فواز حداد

جنود الله



رواية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

God's Soldiers
Novel
Fawaz Haddad

First Published in June 2010

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21 - 466 - 2

الطبعة الأولى: حزيران (يونيو) ٢٠١٠

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

الجزء الأول

ترتبط الذاكرة بالبصر والبصيرة. بالنسبة للبصر، أنا لا أرغب في أن أرى، أما البصيرة فما أصابها أشد من العمى.

في وقت من أصعب الأوقات، اضطرتني ظروف قاهرة للسفر إلى العراق؛ البلد الأكثر إيلاماً، كان محاصراً وجائعاً، وأصبح محتلاً ومهاناً.

بلد لا مكان فيه للعقل أو العدالة أو الرحمة، بل للخيانة والوشاية والخطف والذبح والقتل على الدين والطائفة والهوية والاسم.

ولقد شاء حظي أن أعود منه فاقد الذاكرة.

ربما تعطلت ذاكرتي، أو أنني عملت على تعطيلها. لم يكن هذا سيحصل لولا يقيني أنني اخترت ركناً قصياً لا تطاله الحقائق

ولا الأوهام. وإن كنت قد سعيت من دون وعي وبلا قصد إلى النسيان، فلأنه الأدعى إلى الأمان لا الاطمئنان.

أعرف أنني رهين ذاكرة سوداء، تتراءى لي أشبه بتهديد مسلط فوق رأسي، تهديد أجهل سببه، وإن كنت أعرف منشأه. لا يودي بي إلى الخوف من الموت، وإنما إلى الخشية من الحياة.

سأواظب على هذا المنوال؛ إذ لا شيء يستحق أن أكون جزءاً منه.

طريق آخر إلى الجنة

١

غادرتُ بغداد، أشبه بجثة هامدة، في سيارة بيك آب قديمة بيضاء اللون، جُهز صندوقها الخلفي بأدوات ومواد إسعافية، وغطي بشادر بنّي فاتح اللون، كاحت ومهترئ. كانت حالتي التي بدت جيدة في الصباح، قد تدهورت خلال ساعات قليلة من فرط الحر والتعرق والذباب.

انتقلت من المقعد الأمامي بجوار السائق إلى المؤخرة، اضطجعت على محفة بالية. قواي تتهتك ومناعتي تضعف، والمرئيات التي بهتت أخذت تتحلل في الفضاء الحار، وتكتسي بلون واحد، لون اليأس.

السيارة تخضخض وأنا أصارع الموت بشجاعة، هذا ما قاله لي السائق، مع أنني استسلمت لهذا الذي لم أصارعه؛ مجرد رجل على قيد الحياة، بشكلٍ ما كنت ميتاً، حياتي في حكم العدم،

ومع هذا ارتحت لهذا الموت، وكنت أكثر ارتياحاً لذاك العدم.

لو أنني نعمت بذاكرة ممسوحة، دونما شرخ يتسلل منه الرعب وينسلّ الجنون، لحظيت بنعمة النسيان خالصة. هذا الألم ليس سوى وجع عابر، ما دمت أحمل ذاكرة أقفلت منافذها. وما دام الفضول لا يتملكني إزاءها، فأنا في سلام، لن ترتد عليَّ بأوخم الصور، أيّ لمحة منها كانت وعداً بتذكارات لا ترحم، وأي محاولة لتكهن بعض معالمها، أشد وطأة عليَّ من الموت الذي تمنيته مراراً، لأنجو منها.

المواكب السريعة المتوالية تعرقل المرور وتوقف السير مدداً طويلة. مستلقياً على ظهري، بصري الكليل تتخطفه ومضات سوداء لامعة كحد السكين تضرب رأسي بلا توقف. في العالي، من خلل التشققات المتمزقة والمتهتكة للشادر القماشي، تسدل السماء المدلهمة توتراً شاملاً ينذر بالقنوط، ويتناهى إلى سمعي صوت السكون المدوي بالضجيج والمكتنز بالصهد اللاهب. بينما من الفتحة المكشوفة في مؤخرة السيارة، تتتالى لافتات النعي دون انقطاع، كتابات بيضاء على قماش أسود، كتابات سوداء على قماش أبيض، أموات على مد النظر، كل منهم يحمل لقب الشهيد... أنا في بلد الشهداء.

يدهمني إحساس بموت يتسارع وموات يتباطأ، يمور في داخلي، أراه منتشراً في تلافيف الهواء والغبار، يحلق فوقي مثل هالة صلبة تتمدد، وتهيمن على الفراغ والأنفاس؛ ثمة ما بات وشيك الوقوع سينقض بين لحظة وأخرى، بانفجار يصم الآذان، ويُبدد كل ما هو مرئي، لا يبقى سوى الدخان والحطام؛ حديد خردة، سخام،

بقايا مشتعلة، أجساد تنزف، نثارات لحم وفتات عظام، ودماء تصبغ الضياء الساطع بالأحمر القاني؛ هذا ما يتراءى لي، لكنه أقوى من أية حقيقة.

لم نخرج من بغداد وضواحيها إلا بعد أن استوقفنا العديد من الدوريات الأميركية والعراقية، وعرقلتنا الحواجز الإسمنتية. نعبر شوارع باتت أرصفة مزحومة بالرجال والشبان والأولاد... ولا نساء. رطوبة خانقة، وروائح القمامة المتراكمة والمجاري المكشوفة تحقن الأجواء بالقرف والاشمئزاز، زعيق السيارات يختلط بضجيج أصوات المسجلات، ونداءات الباعة أصحاب عربات الطعام المكشوف، والأولاد الصبيان على بضائع بسطاتهم؛ مشروبات غازية، سكاكر، حلويات، سجائر، جوارب، وسيديات عن كل شيء، من تلاوة القرآن والطقوس الفاضلية إلى الإعدامات والتفجيرات... وأغانٍ راقصة.

تكفلت الأوراق الممتلئة بأختام عراقية وأميركية بتذليل مرورنا في الطرقات المفتوحة للعربات المدرعة والدبابات، بينما سيارات الشرطة المندفعة تطلق صفارات الإنذار، ومسلحون في سيارات رباعية الدفع، أخفوا عيونهم وراء نظارات سوداء، يرافقون مواكب المسؤولين الحكوميين، برزوا من النوافذ يطلقون الرصاص في الهواء، يجبرون السيارات والمارين على إخلاء الطريق لهم.

أمضيت سفري الطويل بين النوم الكثير والقليل من الصحو. لولا حقن المسكنات والمهدئات ومضادات الالتهاب للاقيت حتفي في زحام إحدى تلك العقد المرورية الخانقة. أغفو على وقع زمن ينساح مثقلاً بجعير محرك يئنّ مجهداً تحت لهيب صيف حار

ولزج. وأصحو على طنين الذباب ووهج نور الظهيرة.

أنهض بجذعي، وأتحامل على نفسي، أحمل كيس السيروم الموصول بذراعي، أنزل من السيارة وأحتلّ مكاني إلى جوار السائق. فيطالعني ذلك المدى الثابت من الرمال يشقه طريق بلا نهاية، على أطرافه واحات من أشجار النخيل تتخللها آليات مدمرة تلمع تحت الشمس، ومعالم رجراجة قد تكون خيالات أو سراباً.

يلوح بناء ضخم، إلى يسار الطريق وربما إلى يمينه، يبدو كالسراب ذاته، تحيط به حراسة مشددة، كأنه مجمع لعدة ثكنات عسكرية، حشد من الجنود، أسلاك شائكة، أسوار عالية، وأبراج محصّنة، تظهر منها رؤوس الجنود من بين أكياس الرمل والشباك المموهة. طائرات الهيلوكبتر تحلق عالياً، ثم تنخفض وتمسح محيط المنطقة. في الأسفل، جداريات مشوهة، وأكوام من النفايات. عوارض خرسانية متوالية، على عدة طبقات، ورتل طويل من السيارات تتقدم الهوينى فوق طريق ترابية.

«سجن أبو غريب، يقضي الزوار النهار كله وهم يحاولون رؤية أقربائهم المعتقلين، في حال أفلحوا ووجدوهم فيه». قال السائق.

أردت الوصول بسرعة، لكن إلى أين؟! مجرد توق إلى مكان بعيد جداً، وكأن أي مكان آخر، سيغير هذه المشاهد الكالحة، ويخفف من آلامي تلك التي لم أرغب في التخلص منها، بل أن أواصل النسيان، ريثما أقرر: متى سأتذكر!!

توقفت سيارتنا إلى جانب الطريق، على بعد نحو نصف كيلومتر من قافلة عسكرية تحمل أعتدة وتعزيزات، يبرز من كل عربة

جيب هامفي مدفع رشاش خلفه جندي يعتمر خوذة. الأعلام الأميركية الصغيرة ترفرف على هوائيات السيارات. الدوريات الراجلة تترصد من بعيد. نقاط المراقبة على التلال والجسور تطل علينا. الحراسة مشددة خشية أن تخترقهم سيارة مفخخة. لم يتجرأ السائق على تجاوز القافلة. الإشارة تقول: (لا تقترب أكثر من ٢٠٠ متر.. قوة مميتة) وفي الأسفل رسمت جمجمة وعظام متقاطعة باللون الأحمر.

طال توقفنا.

«ربما كانوا يطلون مفعول عبوة ناسفة».

بعد حين، عاد الرتل يزحف على مهل، ببطء شديد.

وجهتنا الحدود السورية، هناك سيجري تسليمي، وفي دمشق سيكملون علاجي. اضطر السائق لأن يقول لي هذا عدة مرات؛ يبدو أنني سألته مراراً السؤال نفسه. كان ممرضي أيضاً، قبل بمخاطرة نقلي مقابل رزمة دولارات دفعها الأميركيون لقاء إيصالي سالماً، أو ميتاً. كان يعيل ثلاث عائلات، انتزع مجهولون أخاه وابن عمه ليلاً من بيوتهم منذ شهرين، المجهولون كانوا من فرق الموت أو الشرطة أو المغاوير، أو الحرس الوطني. ما الفرق؟! منذ ذلك الوقت لم يعرف عنهم شيئاً.

هل هناك منطقة تدعى بالكيلو ١٦٠، لا تزيد على نقطة تتلامح في الهجير، تحتوي على محطة وقود ومطعم ودكاكين وبائع شاي أسود... هل رأيتها، أم تخيلتها؟ اعترضنا مسلحون ملثّمون، أشاروا للسيارة بالوقوف، كانوا من عصابات السليبة، توقع السائق

ظهورهم. قال لهم إنه مكلف بمهمة إيصالي إلى الحدود السورية. أنزلوه من السيارة وفتشوه، لم يكن لديه سوى ساعته، وبضع مئات من الدنانير التي لا قيمة لها. ثم فتشوا السيارة، لم يجدوا شيئاً ذا قيمة. أطل عليّ واحد منهم، رجل ملثّم لم يبن من وجهه سوى عينيه، أحبطه هزالي وملامحي الممتقعة، وقميصي المتسخ الملطخ بالشحم، وكيس السيروم المعلق بالعارضة الرفيعة للسقف. كنت ممدداً فوق الملاءات القذرة الصفراء، تفوح مني رائحة العرق والبول والقيء. سألني:

«مجاهد؟».

«مجاهد والحمد لله.» تدخّل السائق.

«حياك الله.» هتف الملثم.

وحثّ السائق على الإسراع، خشي ألا أصل حياً. تمنيت أن يطلق رصاصة في رأسي كي أصل بسرعة أكبر. حتى هذه الأمنية، كانت أضغاث حلم.

تركنا نمر من دون مقابل، لقد فعل شيئاً طيّباً، للجهاد والمجاهدين، زكاة عما يسلبونه.

٢

عند نقطة «الوليد» الحدودية العراقية، نزل السائق من الشاحنة، تخطى الدور والرتل الطويل من السيارات، وسلم الضابط المسؤول رسالة من القيادة الأميركية إلى سلطة مركز الحدود تطلب منهم تسهيل مغادرتي للعراق. الضابط لم يستغرب، كانت قد وصلته برقية البارحة بهذا الخصوص. رجع السائق ومعه جندي أميركي يرافقه مترجم، فوجئا بالشاحنة العتيقة وهيئتي المزرية، توقعا رجلاً يلبس بدلة أنيقة يركب سيارة سوداء من الموديلات الحديثة. ناولته أوراقي الثبوتية، وكنت قد أخفيتها في لفائف الشاش المربوطة حول خصري، ولم يحاول أن يفهم أكثر.

وهكذا نفذ الأميركان الاتفاق من طرفهم، ووفوا بما وعدوني به.

في مركز «التنف» السوري، لم أتعرف إلى الذين استقبلوني، كانوا مرتبكين وهم يهرولون من حولي. نقلوني إلى سيارة الهلال

الأحمر السوري. لمحت المنظر الأخير، طوابير الشاحنات المحملة بالبضائع تمتد على مسافة كيلومترات داخل الأراضي السورية تنتظر الإذن بالعبور، وإلى جوارها مئات السيارات الصغيرة تتقدم وئيداً نحو بوابة الخروج، تحمل مئات العائلات عائدة إلى العراق... من يفكر بالعودة؟!

«لا تستغرب، يبذلون المستحيل كي يعبروا الحدود إلى بلدهم». قال لي ضابط الجمارك السوري. قبل أن أستسلم لنوم طويل ومشوش.

وصلتُ إلى دمشق بعد منتصف الليل، حياً ومنهكاً. عانيت طوال الطريق من كوابيس، كانت أكثر إيلاماً من جراح على وشك أن تتقيح من لسعات الحر والحشرات. فور إدخالي إلى المستشفى، أُرسلت إلى غرفة الإسعاف، جرى التأكد من سلامتي ووضعي الصحي، ولم يكن جيداً. أعيد تضميدي، ووُضعت تحت المراقبة في غرفة العناية المشددة. قال لي الطبيب المناوب:

«حالتك ليست سيئة، سوف تتحسن سريعاً».

ثم سألني عن اسمي وعملي. قلت له، لا أعرف. قال، لا تهتم، بعد أيام ستتذكر كل شيء.

... كأنه بكلماته اللامبالية ألقى بي إلى المجهول.

الأشخاص الذين توافدوا لرؤيتي، عانقوني وهنأوني على سلامتي. يبدو أنني أعرفهم، وجوههم مألوفة، أبدوا شيئاً من القلق، وتمنوا لي الشفاء العاجل. الشخص الذي عرفته كان صديقي، نفرت

الدموع من عينيه، عانقني فتلفظت باسمه حسان. ظنت الممرضة أنه أخي وصرخت متأثرة، الدم يحنّ. كان الشخص الوحيد الذي احتفظت به من ماض أردته هباء.

«ما الذي كنتُ أفعله في العراق؟» سألتُه.

«غادرتَ منذ شهرين إلى بيروت، على أن تسافر بعدها إلى دبي، لتتسلم عملك في قناة تلفزيونية حديثة التأسيس. هذه القصة غير صحيحة، كانت أكذوبة تركتها خلفك قبل رحيلك؛ وجهتك كانت العراق. بعد نحو ما يزيد على أسبوعين من إقامتك في بغداد، اختُطفت...».

«لا أرغب بالمزيد». قاطعته.

«لن نخوض كثيراً في التفاصيل».

لخص حسان قصة محنتي بسرعة، وكانت أنني اختطفت من مقهى في شارع (الرشيد). اقتادني مسلحون إلى جهة مجهولة. اختفت أخباري بعدها، لم يطالب أحد بفدية، أو يظهر وسيط، ولم يتمكن أحد من معرفة مكاني، إلى أن دهمت القوات الأميركية موقعاً في محافظة الرمادي، تعرفوا إليّ من خلال صورة لي، ولولا حصولهم على معلومات باحتجازي في هذا الموقع، لأجهزوا عليّ. كنت بين الحياة والموت، حياتي لم تهمهم، لكن عودتهم بجثة مهشمة ملامحها تطابق الصورة التي يحملونها معهم، كانت عملاً جيداً، وإن لم يكن متقناً.

تصورت المشهد، اقتطعته من فيلم سينمائي أميركي، ولم يكن

عسيراً، الجزء الأكبر منه كان معركة حربية: طائرات تنقضّ، قصف شديد، أتربة، دخان وغبش، الرؤية غير واضحة، رصاص كثيف، انفجارات، شتائم وضجيج، فوهة بندقية تصوب إلى جبهتي، وعسكري أميركي متحفّز إصبعه على الزناد. يبعده عني ضابط، صوت مروحية، يحملوني على نقالة ويسارعون بي إلى الطائرة، ينقلوني إلى مستوصف ميداني.

أما الذي لم أنسه، فهو الطبيب الأميركي الذي أشرف على علاجي، وكانت مغادرتي للمستشفى متوقفة على موافقته.

قلت له، لا أريد الموت هنا.

فقال، لن تموت، ستعيش.

قلت له، لا أتذكر شيئاً.

قال، أنت جريح وفي حالة صدمة.

قلتَ له، ولا أعرف من أنا؟!

قال، نحن نعرف من أنت، ولهذا ما زلت حياً.

في اليوم التالي، عاد وبرفقته ضابط أميركي برتبة ليفتنانت يدعى جوناثان، وشاب عراقي يدعى فاضل. قيل إنني كنت على صلة وثيقة بالأميركي، أما العراقي فقد رافقني طوال مدة وجودي في بغداد. خالجني إحساس أنه ينبغي أن يكونا ثلاثة، كان مجرد إحساس. جاءا يودعانني قبل أن أغادر المستشفى على محفة مثلما جئت على محفة.

كان الوداع ثقيلاً على نفسي، أحسست أنني سأترك رجلين كانا عزيزين عليَّ، فخمّنت مدى قربهما مني، وأن هناك الكثير مما ينبغي قوله في هذه المناسبة، لكنني امتنعت، خشيت ألا أحتمل ما قد أسمعه منهما.

فاضل العراقي والليفتنانت جوناثان، كانا مسرورين، لم يفوّتا فرصة وداعي، شدَّا على يدي. وبالكاد عبّرت لهما عن رغبتي في الكلام، وكان سؤالاً عن شيء لا أعرف ما هو!

قال جوناثان، أنصحك، لا تحاول أن تعرف شيئاً.

ومع هذا بلغت مخاوفي أقصاها، دار في خلدي سؤال واحد، هل أنا عميل أميركي؟! لكنني لم أتجرأ على طرحه.

قلت، يبدو أنني لا شيء!!

قال، في هذه الظروف، اللاشيء أفضل من أي شيء. إنها نعمة لو تدري، ليتني أنام وأستيقظ مثلك، وأجد نفسي في طريقي إلى فلوريدا. عندها سأختار نسيان كل ما صادفني هنا، كل ما رأيته وسمعته.

قال فاضل، ستتذكرنا في ظروف أفضل.

قلت، سأتذكركم جميعاً.

ابتسمت بصعوبة، ونويت ألا أتذكر أحداً. غير أن فاضل لفت نظري، بلمحة تبدّت على تقاطيع وجهه وشت بمخاوفه عليَّ، بدا ما يجمعني معه، لا يقلّ عما يربطني بجوناثان، بل أكثر. حرك

وجودهما إلى جانبي مشاعر لم أستطع تحديد كنهها، كنت متأكداً أنه لا يجوز أن أخطئ في تقدير ما بذلوه من أجلي.

قبل خروجي من المستشفى سألني الطبيب:

«هل تؤمن بالله؟».

لويت رأسي، وقلت متحيراً:

«لا أدري».

«أنتم المسلمين مؤمنون بالفطرة والوراثة».

«وماذا يعني؟».

«اشكر الله، لقد أنقذك».

٣

تعود صداقتي مع حسان إلى أيام الدراسة الثانوية في مدرسة جودة الهاشمي، منذ أكثر من ثلاثين سنة، استمرت منذ ذلك الوقت وحتى الآن.

هذا حسب قوله، وزوّدني بخلاصة وافية عنها، لقد تشاركنا طموحات واحدة، السياسة والثقافة، الهوايات واللهو... ولديه سجلّ كامل عن مغامراتنا العاطفية، ولم تكن مظفرة تماماً. وأطلق ضحكة، كنا من الطراز المثالي مع الفتيات، من الجيل الذي آمن بالحب كتعويذة خارقة. وعلى الرغم من ابتعادنا الواحد عن الآخر فترات طويلة نسبياً لظروف العمل والسفر، حافظت صداقتنا على متانتها.

كان وجوده إلى جانبي في هذا الوقت الحرج الذي أضعت فيه نفسي، دليلاً على هذه المتانة. ولكي أكون دقيقاً، ليست الصداقة

وحدها، كان على علاقة بأجهزة الأمن السورية، ويبدو أن علاقته بهم سهّلت لي الكثير من الأمور التي لم أسأله عنها.

توالت إجراءات تعريفي بالزائرين، وكانت البداية التي لا بد منها، تعريفي إلى نهى زوجتي السابقة وندى ابنتي. نهى في أواخر أربعيناتها، امرأة رزينة، لا بد أنها كانت جميلة، المساحيق ساعدتها على الاحتفاظ بقدر غير ضئيل منه، كانت محجبة، وأنيقة باعتدال، أو أنها اعتنت بأناقتها لهذه الزيارة، التي مرت مترعة بالتساؤلات من طرفها، ومن دون إجابات من طرفي، ابنتي ندى لم تبلغ العشرين من عمرها، في سنتها الأولى الجامعية.

أحدّق إلى الفراغ بعينين جامدتين، أصغي إلى صخب يضج في رأسي. وحولي كان الصمت المتقطع والمتوتر ثقيلاً على الجميع. ألحّت ندى متسائلة عن وضعي الصحي، ما بدد السكون قليلاً. أجابها حسان أن حالتي إلى تحسن. ثم خرج معهما من الغرفة، طال الحديث في الخارج، شرح لهما حقيقة وضعي، وطمأنهما إلى أنني سأخرج قريباً من المستشفى، وأكد لهما أنني لم أكن أتظاهر بعدم معرفتهما، كي لا تردّ زوجتي نكراني لها إلى علاقتنا السيئة في السنوات الأخيرة، ما أدى بنا قبل سنتين إلى الطلاق.

«كان الأمر الوحيد الذي أظهرتم فيه رجاحة عقل وسداد رأي».

كان الطلاق النهاية المحتومة لحياة زوجية كانت في انهيار متواصل، من دون أي أمل بإصلاحها. اتفقنا على الانفصال بعد عمر قضينا جلّه لم نتبادل خلاله سوى المزيد من عدم التفاهم والنوايا السيئة.

لم أسأله كيف أصبحت هذه المرأة زوجة سابقة لي، وما الذي يدفعها إلى الاطمئنان إلى زوجها السابق؟! هناك شيء يجمع بيننا أكثر من هذه الابنة التي عانقتني وقبلت يديَّ وبللت وجهي بالدموع!!

«كان من الأفضل ألّا تأتي».

«بعض الأشخاص أنت لست مخيراً إزاءهم».

لم أرفضها، كنت أرفض الماضي من دون تمييز.

كان الاستعراض الذي أشرف عليه حسان على الشكل التالي: قبل أن يدخل الشخص، يُعرِّفني إليه بشكل موجز. يقدمه إليَّ. نتبادل أحاديث أشارك فيها بنصيب ضئيل من الكلمات لا تشف عن شيء، ونظرات باردة وساهمة. فيما بعد يفسر لي حسان ما قيل بالاستناد إلى علاقات وصلات ووقائع جرت في زمن مضى.

الاستعراض لم يكن ناجحاً، وإن اكتشفت من خلاله مدى تشعب علاقاتي وتنوعها، لم يقتصر على الأقارب والجيران، أو يخلُ من الرجال والنساء المتعلمين، كان نصيب المثقفين فيه غير قليل. وعندما قلت لحسان إنه لم يزرني رجل ذو شأن، عقب ضاحكاً، لأنك رجل غير ذي شان. لكن حالتي استدعت زيارة رجل مهم، لم يطل جلوسه، اطمأن إليَّ ببضع كلمات، ثم خرج، لحق به حسان، عندما عاد سألته عنه، فقال لي، لن تتذكره، لقد ساعد على تسهيل سفرك إلى بغداد.

سمعت عن نفسي بعض الأمور منهم، لكن كأنهم يتكلمون عن

شخص آخر لا يعنيني، أثار هذا في ذهني بعض الاستنكار. لكن كان ضرورياً إنجاز العرض قبل مغادرة المستشفى، هناك عرض آخر سيبدأ.

قبل أن يبدأ، ما زال هناك فصل أخير، لاحظت من نظرات حسان المتلهفة أنه يعقد عليه آمالاً كبيرة، ما جعلني أتحفز. أوجزه بكلمات قليلة:

«ستدخل سناء بعد قليل».

وأضاف إليه ما ينبغي أن يحدث:

«استقبلها بلطف، لا تكتف بمصافحتها، تبسّط معها بالحديث، ولابأس لو عانقتها وقبلتها. أنت على علاقة قوية بها».

«علاقة حب؟!».

«كدت أن تُقدم على الزواج بها، لولا ما طرأ و...».

كانت قد دخلت.

□□□

كانت السيدة التي ظهرت لتوها من الباب تشبه الممرضة الشابة الشقراء المولجة بالعناية بي في الفترة الصباحية، ملامحها رقيقة مثلها، غير أن العينين فاتحتان وواسعتان، والفم أصغر وأحلى، وإن بدت متجهمة قليلاً، بالمقارنة مع الممرضة المرحة، ربما بسبب مزاحها معي، ونظراتها الخبيثة التي تغلي بأكثر من تعبير، لا شيء يثير استنكارها ولا دهشتها حتى حالات الولادة العجيبة والموت المفاجئ. حالتي بدت لها طبيعية وواعدة، أن يرجع الإنسان كما

ولدته أمه، لا سيما بهذا العمر، كي يعيش ثانية. حتى أنها شجعتني قائلة لي، فرصة اغتنمها.

لا، لم تكن متجهمة، كانت أقرب إلى أنها خائفة، وشيء ما في نظراتها يوحي بالانكسار والضعف، لم تثرني لهفتها، وإنما التعبير الذي ارتسم على وجهها، كان عابقاً بالحنان ومفرطاً بالهواجس وأسيراً لأشواق بدت مبهمة لي. فتوجست منها، كأنها كانت تمتلكني، ولم تأت إلا لتستعيدني. وإذ أصبحتُ على مقربة مني، نظرت إلي بحب غامر، فخجلت، كنت على وشك إنكارها. تمالكت نفسي، لم أظهر لها أي أحساس ولو كان بسيطاً بالمودة. كان حدسي الذي برز بقوة ونبهني، لو استسلمت إلى ما بدا أنه علاقة قوية، فسوف تقودني إلى كارثة. فتعمدت النظر إليها بفتور ونفور، ما أوقف اندفاعتها نحوي، كانت على وشك أن تعانقني؛ نظراتي المستهجنة صدمتها.

في اللحظة التي خُيل إليها أنها وجدتني، أشعرتها أنها فقدتني. لم أرغب في إحباطها بهذه السرعة، كانت الفرحة التي برقت للحظات على وجهها قبل أن تتلاشى، جعلتني أحس بقدرتها على الاستيلاء عليَّ. تيبست أطرافي، تلك الألفة الملعونة قد تعمل، وتنتزعني عنوة من عالمي الباهت. تملكني الرعب، الشواش في رأسي أقصاها عني، مجرد امرأة متطفلة لا تدرك أي نزيف سوف تتركه وراءها. كيف أبعدها عني من دون أن أتحول إلى شخص كريه في عينيها. لم أتردد. كان لديّ عذري، لم أكن سوى رجل ممدد على السرير مربوط بالشاش، جراحه غائرة، وقروحه محتقنة... وفاقد الذاكرة.

لم أصافحها، أو أشجعها على الاقتراب مني. رغبت في أن تغادر الغرفة بأسرع وقت، من دون أن نتبادل كلمة واحدة.

لم تتزحزح عن مكانها. قلت لها ببرود، لئلا تطيل صفنتها ووقفتها:

«لا أضمن أنني سأحبكِ ثانية».

فردّت بحدة تعقيباً على وقاحتي:

«ولا أنا».

توقعت أن تنسحب. لكنها ترددت، ما اعتمل في داخلها ظهر على وجهها، شفتاها ترتعشان من القهر، تكاد أن تنفجر غاضبة في وجهي، لكنها انفجرت بالبكاء.

أشرت له بأن يخرجها، لم أكن مستعداً لأي موقف يستدر العواطف، لا أريدها أن تواسيني ولا أنا مضطر إلى مواساتها، كان صوتها وقد خالطته التنهدات، يدعو للرثاء. لم أهوّن عليها، حتى الشفقة كنت مصراً على عدم إظهارها.

قبل أن أبارح المستشفى، نصحني الطبيب بأن أساعد نفسي، وأكفّ عن المقاومة وضرب الحصار من حولي. كنت متمسكاً بقراري، لن أتزحزح عنه، لا أريد أن أعرف شيئاً عن حياتي، مهما دأبوا على تسريب المعلومات إليّ عني.

إلى متى استمر عنادي؟

ليس طويلاً، بعدما ظننت أنني نجحت.

٤

بارحت المستشفى ظهراً، أوصلني حسان إلى البيت. قبل أن يتركني قال لي، ستأتي سناء بعد قليل. قلت له، لا أظن أن وجودها ضروري. فحذرني، ستتردد عليك، إياك أن تؤذيها بكلمة، إنك بحاجة إلى شخص يعتني بك، إنها الأدرى بأمورك.

طفت بين غرف المنزل، فتحت النوافذ للنور والهواء. على الأثاث حطت طبقة خفيفة من الغبار. باب الخزانة موارب في غرفة النوم، الأدراج مفتوحة، المرآة تعكس كرافتة كحلية اللون مقلمة معلقة على المشجب، فوق الفراش قميص وبنطال مرميان بإهمال إلى جانب قائمة السرير اليمنى، حقيبة سفر صغيرة فيها بعض الأغراض، كانت عائدة لرجل تركها في آخر لحظة وغادر على عجل.

في المطبخ، صحون وبقايا طعام جاف خالطه العفن في المجلى.

في غرفة القعود على الطرابيزة الصغيرة أجهزة التحكم عن بعد، وبعيداً إلى الحائط تلفزيون وجهازا الاستقبال والفيديو. على الطاولة الصغيرة بضع جرائد محلية وعربية يعود تاريخها إلى أكثر من شهر. تحف صغيرة متوضعة في خزائن الحائط الزجاجية. صورة على الجدار لمنظر طبيعي زيتي ذي إطار فضي اللون. رفوف المكتبة مكتظة بعشرات الكتب، إلى جوارها منمنمات وسجادات صغيرة وأوان خزفية...

توقعت أن أجد نفسي، أو أثراً لي. أحبطني أنني عثرت على شخص آخر، لم أكن أنا، آخر لديه تذكارات وأشياء يرغب في الاحتفاظ بها. أنا لا أريد الاحتفاظ بشي، بل التخلي عن كل شيء. أجيل بصري في أرجاء الغرفة، الكتب التي قرأها أو تصفحها، لم تكن بالنسبة إليَّ إلا أوراقاً وعناوين. مواجهتي كانت الصوفا والأرائك فوقها، تشير إلى ركن خال.

كان الغائب عن أشيائه أكثر حضوراً مني.

كان الآخر... اللامرئي سارحاً في أماكنه؛ أنفاسه لا أنفاسي، تضطرم في صدري وتضج في رأسي، لم أواجهه فحسب، بل اصطدمت به أيضاً!!

جاء من الفراغ، واتخذ مكانه فوق الصوفا.

كنت إلى جواره أو أمامه، وربما خلفه، وحيداً بلا ماض ولا ذكريات، أقف على الضد منه، بلا حمولات عاطفية ولا حنين. لا يترك لي خياراً سوى الاستمرار هكذا، غريباً عن المكان، شخصاً زائداً، لا أمل لي في البقاء على الهامش، إلا بتعزيز الفراغ

الذي في رأسي، بالمزيد من الفراغ من حولي.

دخلت سناء تحمل بعض الأغراض، الآخر أدار لها ظهره، لم تكلمه، أعدَّت الغداء وكانت قد جاءت به جاهزاً، تناولا الطعام، وتبادلا بضع كلمات، من دون أن يتبادلا النظرات على الإطلاق. ضبطتها أكثر من مرة وهي تتأمله. كان متوجساً منها، لا يدري كيف يتصرف معها، أشك في أنهما كانا على علاقة معاً.

يتساءل، بينما أخذت تنفض الغبار عن الكنبات والأثاث. ما كنه هذه العلاقة؟ حب، جنس، صداقة..؟! يخشاها مهما كانت، يتمنى ألا تكون حدثت، يرغب في الاعتقاد أن ما يجري الآن ليس أكثر من خطأ يحصل أحياناً، هذا أحدها.

تمدد على الصوفا، وغفا زمناً يزيد على ساعة، لم يحلم بشيء، إلا إذا كان هناك ما يدور خلف البياض المصمت البارد. أحلامه انمحت، كان الفراغ ناشطاً.

عند مغيب الشمس شطفتِ الشرفة، وضعت كرسيين وطاولة صغيرة. كانت الشرفة مكانها المفضل مع الآخر، وكان عليَّ أن أحتل كرسيه.

مع نسائم أول المساء، رشفا القهوة بصمت، فيما المنظر أمامهما بدأ يأخذ أبعاده؛ دمشق تدرج في الليل، الأضواء الملونة تسري في شوارعها وطرقاتها المتشابكة، وتسبغ على قاسيون مهرجاناً من الألوان، بينما أطرافها البعيدة تمددت في العتمة وادعة تحت جنح الظلام. سررت لأنني أعيش في كنف مدينة بدت جميلة من العالي، كانت ملجئي الأول والأخير. دهمتني رغبة جارفة في

إزاحة أي عقبة بيني وبين دمشق. ليتني أعيد ارتباطي بها ولو في السر. ولم يكن بالأمر السهل... وكل ما فيَّ يقاوم البشر والمدن.

فوجئتُ بما كنت أفكر به، هل كنت أنا أم الآخر؟ ظننت أنني اقتحمت عرين الآخر، لكن كأن شخصاً نهض في داخلي. آنئذٍ لم أكن شخصاً واحداً، بل اثنين، الأول يريد أن يعرف، والثاني يرفض أن يعرف.

قبل أن تذهب، أعدّت العشاء في المطبخ، وسألته عما إذا كان يريد شيئاً، فشكرها.

عدت وحيداً، أنا والآخر، وجاء دور الشقاء.

جراحي لم تندمل، وأنا أرغب في نكء قروح ذاكرته.

لكنه اعتصم بالصمت.

كادت الأيام التالية أن تمتد إلى صمت شامل، لولا ابنتي ندى، تأتي يومياً قبل أن تذهب إلى الجامعة، تعدّ لي الفطور. لم تنقطع عني حتى عندما شعرت بوجود سناء، ما ناقشتُ علاقتي معها أو أشارت إليها، يبدو أن الآخر أنهى هذا الأمر معها سابقاً. لا تتركني قبل أن تطمئن إلى أن هناك من سيأتي في موعده كالمعتاد، كانتا قد تقاسمتا العناية بي. كذلك حسان لم يدعني لزواري القلائل، يأتي يومياً بلا وقت محدد، فيصادف أحياناً سناء ظهراً. كانت زياراته المسائية توفر لنا مجالاً لأحاديث مطولة، من دون تحقيق تقدم يُذكر، لم يكن لديّ ما أقوله، الجزء الأكبر منها يقع على عاتقه.

هيأ لي حسان أكثر مما يلزمني من الهدوء والراحة والتأمل على أمل أن يُضيِّق الملل الخناق عليَّ فيعجل في خروجي من قوقعتي ويُسرِّع بشفائي. لم يُشعرني بأنني مطارد بالأسئلة، بعد أن تعهد لأصدقائه في فرع المخابرات أن قضيتي هي مسؤوليته، وأقنعهم بعدم جدوى أي تحقيق يتطرق لما تعرضت له في العراق، قبل أن أستعيد ذاكرتي.

العناية والحماية اللتان أحاطني بهما فرضتهما اعتبارات الصداقة. كان الآخر صديقه الحميم، مثلما كان هو صديقه الأثير، الحياة لم تبعدهما عن بعضهما بعضاً إلا لماماً. وكان من الطبيعي في هذا الظرف، أن يقف إلى جانبه في ما بدا أنه محنة قاسية يعاني منها، تستلزم حسب رأيه إجراء فرز لما سبق من حياته.

هوّن عليه حسان الكثير من الصعاب، وطمأنه إلى أن هناك ما سيأتي وحده ويأخذ موضعه في الذاكرة، فترات الطفولة واليفاعة وما أشبه من أحداث سعيدة، وهذه لا تشكل عائقاً. ما ينبغي التركيز عليه هو استحضار الحديثة منها، لا سيما المؤلمة، يستحسن الكشف عنها، ولا يضيره تذكرها، تسهم في إعادة رؤية ما جرى بصورة أفضل، وتجعله أكثر استعداداً لما لا بد قريباً من مواجهته. ولقد ساعده، على الأخص، في المرحلة التي كان جزءاً منها.

كانت لديهما قصة طويلة كان حسان قد شارك بقدر كبير فيها.

٥

هذه القصة إذا أردتُ أن أعيد سردها، فأولى وقائعها تبدأ في مدرسة جودة الهاشمي الصف الأول الثانوي عام ١٩٧١. بعد أسبوع من الدوام، نقل الأستاذ الطالب المشاغب المفترض أنه أنا، إلى جانب حسان الطالب الأكثر هدوءاً والأقل كلاماً. خلال أيام أصبحنا أصدقاء، عداني حسان بفضيلة التروي، وأصبته بميزة الطيش. ترى من كان موفقاً أكثر بما اكتسبه؟

جمع بيننا تحالف متين، خضنا مشاجراتنا ومناقشاتنا مع الآخرين متكافلين ومتضامنين، لم يتخلف أحدنا عن مساندة صديقه، وتورطنا بمغامرات صغيرة مع خبرات ضئيلة أخذت تكبر مع الزمن، فتحت أمامنا عالماً من الغراميات والإحباطات مع طالبات مدرسة الفرنسيسكان، قصص غزل وحب وافتتان تعاقبت فصولها بين المسالك المؤدية إلى شارع الصالحية وساحة الشهداء، وعروض الأحد السينمائية في سينما الزهراء والسفراء. غراميات

تتلكأ في العطلة الصيفية، نظفر خلالها بابتسامات مختلسة وإشارات مختطفة، ورسائل متبادلة على الأثير. نتسكع تحت شرفات بيوتهن على مقربة من ساحة النجمة وأزقة أبي رمانة وساحة عرنوس والشهبندر، وقد يكون الختام في الصيف نفسه، عندما تخلو الشرفات من إطلالاتهن، أو في بداية الخريف، فلا نحظى برؤيتهن يتمايلن خارجات من المدرسة في دخلة الشعلان. بعد عدة أشهر نلتقي بهن مصادفة، في يوم شتائي بارد أو ماطر، نلمح المحظوظة منهن في شارع الحمراء تتكئ على ذراع زوجها، تشحط قدمها اليسرى وبطنها منتفخ.

في الصف الثالث الثانوي، اكتشف حسان الولد الهادئ ما يدور من سياسة تحت الأرض، وما يجري فوقها من تململ في الشارع؛ الأصوات المرتفعة المنادية بالحرب، تطالب بتحرير الجولان المحتل. الحرب انطلقت لكن وقف إطلاق النار أحبط الآمال، وخفض التوقعات المتفائلة إلى الحدود الدنيا تحت وقع المفاوضات المكوكية، وتأجل التحرير إلى أجل غير معلوم. كانت الانتقادات التي وُجهت للسلام الذي بات استسلاماً، قد دفعت حسان للتعرف على الجرائد السرية والكراسات والمنشورات.

أصبحت اهتماماتنا واحدة، قرأنا الكتب الرائجة الحمراء، و«عشرة أيام هزت العالم»... فاستأثر انتصار ثورة أكتوبر بخيالاتنا الجامحة ومشاعرنا المتأججة. وبشرت بالقضاء على الرأسمالية، وحتمية زوال الملكية الخاصة، وإقامة مجتمع شيوعي بلا استغلال ولا طبقات.

اعتقدنا نحن الطلبة، أننا الطليعة الثورية المدعوة للتغيير، فبدت

ثورتنا على الأبواب، لا تنقصها سوى المبادرة بالخطوة الأولى. تخيلنا أننا سنقاتل حتى الطلقة الأخيرة والنفَس الأخير وراء المتاريس. كان أساتذة الإضرابات والعصيانات والكومونات قادتنا الفكريين المارقين. لم نتوقع الكثير، بعد أن تعلمنا من النبي المسلح الذي اغتيل أعزل ومنبوذاً بالمكسيك، كيف غُدر بالدولة الاشتراكية الأولى في العالم.

استمرت صداقتنا في الجامعة، رغم انتساب كل منا إلى كلية مختلفة، حسان كلية السياسة والاقتصاد، أنا كلية الحقوق. لا نعبأ بما كنا نتعلمه، ماذا تكون السياسة والاقتصاد والحقوق سوى علوم برجوازية؟ مارس كل منا تأثيره في صاحبه، وعلى الرغم من تطلعاتنا الثورية، لم ننتسب إلى الحزب الشيوعي، كان أقل من طموحاتنا الراديكالية، لم ترضنا سوى الثورة الدائمة، فانتقلنا من منظمة إلى أخرى.

بعد سنوات من الإخفاق في الامتثال لحزب أو منظمة، ابتدعنا تنظيمنا السياسي الخاص، لا يزيد على بضعة أفراد، يتنقلون بين أصدقائهم وخصومهم ساكني الغرف المستأجرة في الضواحي والأرياف القريبة والأحياء المهمشة وأحزمة الصفيح، يتحلقون حول الطاولة، يدخنون بشراهة ويشربون القهوة بإفراط ويتجادلون طوال الليل، وأحياناً يذهبون ليعيدوا الكرة في المقاهي الدافئة والأقبية الباردة مع مثقفي الأحزاب والتنظيمات الأخرى.

كانت لدينا رغبة عارمة في التنظير. فكتبتُ عن الثورة، ولم تكن أكثر من خطط على الورق تبيّن مراحل الاستيلاء على السلطة، تبدأ بإضراب عام، ثم توزيع السلاح على الشعب، فالثورة وتسريح

الجيش، تحطيم الجهاز العسكري، السيطرة على الشرطة، هدم السجون وإطلاق المساجين، تفكيك الجهاز البيروقراطي... ثم نهاية الحكم المطلق.

وكتب حسان رؤيته عن صراع طبقي نظيف، دونما عنف ومجازر وبلا ضحايا. تلمحه بدقة خارقة على نحو غير علمي ولا تقدمي، وكأنها عملية إقناع فكري، واستسلام طوعي لحركة التاريخ، ينتج منها تآخ فطري ضد القهر والاستغلال والبشاعة. تتوج بمصالحة تاريخية، وتغيير مؤبد.

رؤية أقرب إلى الإلهام الشعري المثالي، بمضمون رومانسي فوضوي، مع أن الشكل بدا موضوعياً. كان لدي بعض الانتقادات، ومن الممكن التغاضي عنها، ما دام الأمر مجرد تهويمات في حينها. لكن إزاء هذه المخالفة الخطيرة، اتخذ جدالنا حدة غير مألوفة.

في حمأته، ضللنا طريقنا في أزقة دمشق القديمة. كنا نبغي الوصول إلى مقهى النوفرة، فإذا بنا عند نزلة باب السلام، على مشارف العمارة. فأردت إنهاءه، قلت له:

«متى كانت الثورات تنتصر بالإقناع؟».

«أنشد ثورة بيضاء تفادي سفك الدماء».

«لا يثمر تغيير تخالطه الرحمة».

من سيخطر له آنئذٍ أن القادمين من بعدنا، المؤمنين الصغار، متخرجي المساجد والحلقات الدينية، الأكثر بسالة منا ومسالمة،

لن يكون في قلوبهم موضع لذرة من رحمة، ولن يشفقوا على إنسان مهما ناشدهم الرأفة؟

كأنني ما زلت ضائعاً هناك، وهو إلى جواري يعود بي محاذاة سكة الترام المهجورة إلى ضجيج دخلة المناخلية.

كان الصراع الطبقي هو المحفز الأكبر في تحريك الجموع الهائلة نحو المستقبل العظيم. ولم تكن ندري أن المستقبل غيّر وجهته صوب اتجاه آخر.

كنا قد بدأنا متأخرين، ولن نصل أبداً.

بعد التخرج من الجامعة، وأداء الخدمة العسكرية، التي لم تكن عسكرية، فلم ندافع عن الوطن، أو نستردّ ما احتل من أراضينا، كان علينا كي نحارب، الالتحاق بمنظمات العمل الفدائي، وكانت محاصرة في لبنان. لم نحزم أمرنا إلا عندما كانت على وشك الترحيل من بيروت، وتصفية القضية الفلسطينية إلى مكاتب ومفاوضات وتنازلات ومماطلات.

انخرطنا في حياة البطالة، وكانت فاترة، لكنها اتسعت لاستئناف مغامراتنا الغرامية، وكانت جدلاً إضافياً مع رفيقات الدرب اللواتي بات نضالهن ميؤوساً منه من دون زواج، لم يعد الجنس تسلية لذيذة، أصبح مكلفاً، كان المناضلون متعنتين في موضوع الارتباط الأبدي، لكن الحب سهّل الأمور، وبدأ الرفاق بالتساقط واحداً بعد الآخر في أقفاص الزوجية، فجرى التنازل عن الكثير من القضايا المصيرية، ما جعل النقاشات المتوترة تذكيراً بفقدانها، العزاء أنها لم تفقد حرارتها، لولاها لما كان للعالم الذي نطمح

إليه أي رجاء إلا في خيالاتنا، وبالفعل لم يتعداها، بينما العالم الذي نحن ضده كان آخذاً بالهيمنة.

غير أن ما حدث فاق مخاوفنا كلها، كان انقلابات جذرية، وخيانات مؤلمة أتت على رموز الاشتراكية القويمة، حتى أن الدفاع عنها فات أوانه، لم يعد لنا سوى إنقاذ ما تبقى من قضيتنا المثالية: العدالة وتحرير الإنسان؛ وكانت هي الأخرى، لا مكان لها إلا على أنها تمسك بأنظمة شمولية بدأت بالاستسلام بلا حياء للأعداء الإمبرياليين. أعقبتها سلسلة من الزلازل لن نشفى من آثارها. كانت المتغيرات الكبرى على الأرض قد أخذت مجراها بقوة ودونما هوادة: انهيار جدار برلين، انفراط عقد دول الاشتراكيات الأوروبية، تفكك الاتحاد السوفياتي... وانتصرت الثورة المضادة انتصاراً ساحقاً، بعدها لم نجسر حتى على أن نحلم.

في الحقيقة، لم نكن كلانا، أصحاب فعل تاريخي، كنا ذوي مزاج شبابي يريد التغيير بأي ثمن، اشتبهت تطلعاتنا بما راج من أفكار في تلك الأيام. كانت ثوريتنا من دون دوافع عميقة. فلم نقاتل أو نعارض. كنا نعاند.

طالما خضنا جدالات عقيمة وطويلة مع الرفاق داخل تنظيمات، لم تكن سوى مجموعات انشقّت بعضها عن بعض. مناقشات دامت أحياناً أسابيع وأشهراً على أمور حُسمت قبل عقود. ولقد اكتشفنا أنه على الرغم من حتمية الثورة، لم يتوفر لها منظرون انتهازيون ومقدامون، ولا جماهير عمياء وهائجة، بل عاكستها أقدار عابرة لم تكن حتمية، أحدها المصادفة التي لم نأخذها على

محمل الجد أنا والرفاق.

صار تعبير المصادفة يمنح لجهلنا تفسيراً غامضاً أكثر موثوقية من غيره.

لم يبق من الأفكار المنكوبة التي اعتنقناها سوى أهواء ثقافية غير خطرة، تحفل بعناوين عنيفة، لكن بالية ومشلولة تدور حول التغيير مع الزمن بالقوة أو بالتدريج.

في تلك الليلة، كنا عائدين من سهرة كئيبة، لم نرفع خلالها أنخاب النصر، وإن بحّت أصواتنا دفاعاً عن الاشتراكية، كنا على ثقة بجولة قادمة تلوح في الأفق القريب. توقف حسان مترنحاً وسط الشارع، وقال لي، أتعرف من نحن؟! لسنا سوى برجوازيين صغار لا يؤمَن جانبهم على بروليتاريا طيبة القلب، لن نتورع بعد النصر عن سرقة منجزاتها في المستقبل القادم الذي لن يأتي. نحن، ولنعترف، شبان التحقوا بثورة فاتها القطار.

كان توصيفه لأنفسنا أميناً.

فيما بعد كانت سخرياتنا المريرة على الذين تنصلوا من ماضيهم وارتدّوا عن مواقفهم، الرد على هزيمة لا يد لنا فيها، ولقد بالغنا، وأمست لهواً جارحاً لم يخلُ من جدّ مؤلم، دون التنكر لأفكارنا.

لن تبلغ خيبتنا مداها اللامعقول، إلا عندما رد علينا الواقع بسريالية، لم تحلنا إلى الواقع الذي نعرفه، بل إلى الواقع الذي لا نعرفه. كان السؤال اللينيني الشهير: ما العمل؟! قد أجاب عنه الشيوخ المعممون. يا للمفاجأة، تبادلنا الأدوار على حين غرة،

أصبحنا نحن التقدميين عالقين في العصر الجاهلي، بينما القادمون الجدد عادوا من هجرتهم مظفرين، ليباشروا نضالهم، بتحطيم أصنام المادية والإلحاد، وإعلان الإسلام هو الحل، والقرآن هو الدستور.

لم تُقلب صفحتنا من دون أضرار، أصابتنا مع الموجات المتلاحقة من الاعتقالات التي طالت التنظيمات اليسارية المتطرفة، كان نصيبنا منها قضائي مع حسان نحو سنة في السجن، أطلق سراحنا بعدما أثبتت التحقيقات أننا لا ننتمي لتنظيم يريد الانقضاض على الدولة، ولم نمارس أي نشاط تخريبي ضد النظام، مجرد شبان مارقين، هواة أفكار لا أفعال. وهكذا دفعنا ضريبة نضال بعد أن لم يعد هناك ما نناضل من أجله، لم يكن ثمنه باهظاً بالمقارنة مع غيرنا، لكنه استدعى المراجعة.

بعد خروجنا من السجن، لم يغب المقهى الذي شهد مناقشاتنا الطموحة، عن مراجعاتنا الانهزامية، وكانت مثمرة وبائسة. قطع حسان صلته بالماركسية بنبوءة عفوية:

«الثورة والتحرر لا مستقبل لهما في بلادنا».

ومنح نبوءته بُعداً تاريخياً وجغرافياً لا يقتصران على المنطقة:

«البشر منذ وجدوا على ظهر البسيطة، يستعبدون بعضهم بعضاً؛ لا فكاك من الاستغلال، إنها الآلية الصماء لاستمرار الحياة».

أما أنا فبقي التردد عزائي الطويل واللامجدي. في تلك الفترة، وجدت عملاً على علاقة بالكتابة والسياسة اليومية.

بعثرتنا الحياة العملية، حسان لم يذهب بعيداً، أخذ يكتب في الصحف عن الصراعات السياسية الدولية والإقليمية، في مرحلة ما بعد انتصار الرأسمالية، وانطلاق عجلة العولمة. ولم يغب عن كتاباته الإحساس بعدالة مفتقدة، لعالم يوغل في المجهول على الرغم من دعاوى الحرية والديموقراطية والرفاهية، وعولمة علينا أن نجد لنا موقعاً فيها.

جهوده ذات الطابع الفكري، استلفتت اهتمام دوائر المسؤولين، فطلبوا منه العمل لديهم، فتوظف في مركز للبحوث الاستراتيجية، يقدم معلوماته وثمرة دراساته لعدة جهات كان من بينها أجهزة المخابرات.

«ألا تعتقد أن صلتك بهم خطرة؟»

«إنه مجرد عمل».

ملاحقة الأحداث السياسية نقلتني إلى مقاعد المتابعين اليوميين. انصرفت إلى الكتابة، من خلالها تركزت تساؤلاتي على هؤلاء الذين احتلّوا محلنا، ما الذي بوسعهم فعله؟ ولم تعدم تساؤلات كانت أكثر إلحاحاً، لماذا لا يكون للمؤمنين فرصتهم هم أيضاً؟ فانخرطت في مجال مغاير، ولم يكن من المفارقة أبداً أنني تخصصت في موضوعات ما كان أبعدني عنها؛ دراسات عن «الإسلام السياسي». شجعتني عليها الماركسية المتأخرة المنفتحة على التساؤل الديني، لا سيما وقد اتخذ الإسلام صيغة الفعل النضالي لا الزهد والاستسلام التبريري. لم يعد الدين عزاء للإنسان واحتجاجاً على الظلم، أو الإيمان بحياة في الآخرة أرفع مقاماً في السماء. وإنما برفع لواء الجهاد حتى النصر، ولم يكن النصر سوى الشهادة.

أنجزت بحثاً مطولاً، أصبح مرجعاً في تاريخ الجماعات الإسلامية، نشأتها وأفكارها، نشاطاتها وتنظيماتها. لم أرض عن عملي تماماً، دراساتي لا تهم سوى الذين يريدون أن يفتكوا بهذه الجماعات أو يُشهِّروا بها، أو يستغلّوها. وقد يستفيد منها أولئك الذين يريدون أن يجاهدوا أو يحلموا مجدداً بالاتكال على الله والقرآن بهداية عالم كافر.

استغرب حسان إعجابي بهم، قلت له:

«ربما لاستخدامهم قاموسنا القديم، مع بعض التحوير».

أصبحت الإمبريالية هي الطاغوت، والأنظمة الرجعية العميلة، أنظمة ملحدة ومرتدة، والحزب الثوري، الجيل القرآني الشاب، والكفاح المسلح هو الجهاد، أما العنف الثوري فهو الاستشهاد!!

كأن الروح ردت إلينا وعدنا إلى مواقعنا ملتحين ومجلببين، وفي الطريق، إن لم يكن إلى أسلمة العالم فإلى قلبه رأساً على عقب، أو تفجيره بأسره، وإعادة تشكيله من جديد.

كانت الفكرة بحد ذاتها مثيرة ومحيرة، أن يكون هناك أناس يمنحون الأفكار الكبيرة حياتهم، أناس مهمشون من جميع الطبقات؛ أثرياء وأذكياء، متعلمون وأميون، فقراء ومعدمون... رجال ونساء، شبان وشابات، حظهم من الثقافة متواضع أو ضئيل، ليس لديهم من أسباب القوة سوى أجسادهم، لا تكنولوجيا جبارة ولا قنابل هائلة الحجم ولا طائرات وبوارج تصيب أهدافها عن بعد، سلاحهم التضحية بالنفس، أما سلاحهم الأقوى فرؤاهم الكونية، وإرادتهم في تحويل البشر من الكفر إلى الإيمان.

لم يدع حسان هذه الفكرة تتغلب عليه:

«ماذا سيكون شكل العالم عندما يسيطر عليه أتباع الله؟ ألن نعود إلى عصور الظلام والتفتيش؟».

ما دفعني إلى الانحياز ضدهم، بعد أن كنت مجرد باحث مراقب أرصد تحول الدين إلى قوة تحريض ورفض وتغيير وثورة... هو قيام تنظيم القاعدة بإسقاط برجي التجارة العالمية في نيويورك. ضربة لم تستثن المدنيين العزل والأبرياء، بالعكس كانت تستهدفهم، أو لا تلقي بالاً إليهم بالتضحية بهم. وكان في تسارع الرد الأميركي بقصف أفغانستان، ثم امتداد الحرب إلى العراق، ما أوحى بالجحيم الذي سيعم البلدان العربية والإسلامية، وتحويل العالم إلى ساحات قتال مفتوحة للاستشهاديين.

بعد مضي عدة أشهر، لم أر حسان خلالها، كان عملي قد تطلب مني إجراء سلسلة من الأبحاث حول انتشار الأصولية الدينية في البلاد العربية، تواعدنا على اللقاء في مقهى الهافانا. حدثني عن خيبته مما يجري، كان قد فقد ثقته حتى بوعود الإصلاح الإداري. هونت عليه، وقلت له، إن مقالاته في الصحف تحمل رؤية تُظهر قدراً معقولاً من التفاؤل الحقيقي، ولم أكن أكذب. قال إنه يمر بمرحلة من الإحباط ينبغي ألا يعكسها في كتاباته. بالمقابل كان يتتبع أبحاثي، ومؤخراً قرأ لي في مجلة «المستقبل العربي» مقالة بعنوان «الإسلام السياسي... إلى أين؟». سألني:

«هل هو الخطر الذي ستحذر منه؟».

«ربما كان الهلاك الذي فات أوان النجاة منه».

كان ما تذكره حسان والآخر موجزاً معقولاً لاهتماماتهما ومسيرة حياتهما.

كل منهما، ويا للسخرية، آثر أن يكون مثقفاً مفيداً، يقدم خدماته إلى المجتمع الذي كان سيثور عليه.

٦

هل ما زال هناك الكثير مما أجهله عن الآخر؟ لا، مجرد ثغرة سوداء صغيرة، تغطي الأشهر القليلة الأخيرة، كانت مبعث خشيتي. لم أستبعد خطر ما أخذ يتذكره بتؤدة، وتفاقمه إلى هجمة كاسحة تقوض حاضري البليد. غير أن ما كنت أخشاه أكثر، وإن بدا علاجاً ناجعاً، أنني لم أعد إزاء عملية استرجاع صعبة أو معقدة، تتداعى أقرب ما يكون إلى ترميم ذاكرة متصدعة، وإنما مواجهة إحساس كليّ بأنني مهدد، أخذ يتملكني، وأنه لو نجح في استرداد ما أضاعه من ماضيه، لكان فيه تدمير لكياني.

من حسن حظي، أو هكذا ظننت، كانت دفاعاته قوية.

اقترحت على حسان انتحال شخصية الآخر، بدل أن يحرضها على الظهور. مزحة، عقب عليها ضاحكاً، أنه لن يضع نفسه في

مكاني. حاولت أن أشرح له، متكلماً نيابة عن الآخر، بأن ما جرى في داخلي، هو ببساطة عملية اصطفاء ذاتي، قمت بها عن غير وعي، الهدف منها التخلص من بعض الذكريات بمحوها وإلغائها من الذاكرة، عملية حتى لو كانت انتقائية ولا إرادية، تنطوي على بعد نظر، أليس فيها رغبة شديدة في الحفاظ على النفس؟

هل كنت أبالغ أم أتنبأ؟!

أعرف أنني رهين عاصفة، عندما تهب، قد تختار الزمن الأسوأ، زمن أكون فيه بلا مناعة ولا مقاومة. ومع هذا لم أتشجع على التفكير في استعادة ما مرّ بي، خطفاً ولا بتفاصيله، مجرد لمحة منه تصيبني بالذعر، فكيف بالغوص فيه؟ أتوقع ما سوف يلمّ بي؛ صدمة إن لم تكن قاتلة، فشديدة الأذى، ستخلف وراءها أكثر مما يمكن تحمّله، وإن استطعت تخيله، مزيج مبهم وقاس من الإحباط والقنوط والخذلان.

كانت أقل التفاتة متعمدة أو شاردة نحو تلك البقعة المعتمة، تقذفني إلى أتون خيالات تتشكل بلمح البصر، ساحة مترامية الأطراف، تعج على مد النظر بالبشر العراة، ينهضون من الموت، ويخوضون في مستنقع من الوحل الأسود، كل منهم يخفي وجهه أو عورته، بينما في القاع، بقايا رجال ونساء مثخنين بالجراح، وأشلاء تظهر منها العيون باكية، والأفواه مفتوحة على وسعها تتوسل... وكأننا في يوم القيامة!!

قلت لحسان، تبدو أشبه بلوحة من القرون الوسطى على علاقة بالجحيم والعقاب، أليست هذه فكرة دينية؟ ربما كنت أوحي

لنفسي بالاستعداد ليوم الحساب!! علّق، أن تستعيد ذاكرتك، عملية لا تقلّ عن امتحان؛ هذه التخيلات وغيرها مرتبطة بما عايشته في العراق... لم يخلُ يوم هناك، من حساب وعقاب وقتل.

لا، لم أتوقع تفسيراً مختلفاً.

أفكاري تتخبط في زحام يغص بالتوقعات السيئة، كانت مجرد أحاسيس، الفراغ يكاد أن يقضي عليّ، وإن أفلح حسان في دفعي بضع خطوات إلى الأمام، ببث الثقة في نفسي، والتآلف مع فكرة أنني شخص تماثل للشفاء وبمقدوره أن يكون قوياً، وليس مريضاً في دور النقاهة. غير أنني لم أتصور هذا الأمام سوى واد سحيق، تمنيت السقوط فيه للآخر لأتخلص من كوني شخصاً عديم الفائدة، لا عمل له إلا الاستعداد لفاجعة لا يدري ماذا تكون!!

لم يفتر حسان عن استحضار ما يحضني على التذكر. وكان لا مفر من فعل شيء تحت تأثير تشجيعه ودعمه الدائمين، في أعماقي تشتعل ثورتي على جهل ارتحت إليه، وألقيت أعباءه على الآخر، لكنه لم يمنحني السكينة، بل الترقب والخوف والريبة... شعوري بالتعب الشديد والإنهاك يفقدني التركيز، وكان أشد ما يؤلمني إحساسي بانتهاك لا يفارقني، لمجرد أن الذين حولي يعرفون عني أكثر مما أعرفه عن نفسي.

أليس هذا من فرط تمسكي بعجزي؟

خامرني لحظتها، أن ما أشرف عليه من بعيد، كنت أنا في داخله، لا الآخر. وإذا تابعت هكذا، فلن يكون لي وجود على الإطلاق.

إحساسي لم يمسسني وحدي، كان يمس العالم الذي أنا فيه، لا أريد أن أختلق وجوداً لي، بل أستعيد نفسي وعالمي، مهما كان هذا العالم، طيباً أو مجنوناً أو شريراً. وكان لا بد أن يحصل.

ولقد وفرت لي مخاوفي بداية، أشبه بطرف خيط.

كان المنظر الخاطف الذي دهمني وتسمر أمام عينيّ، قد منحني مدخلاً لما كنت ألوذ بالفرار منه، هيأه حسان، فلم أتوان عن متابعة ما كان يقوله لي عما جرى بيننا عندما استقبلني في مطار دمشق الدولي.

٧

«كان هناك ما حدث وانتهى قبل وصولك إلى دمشق. حرصتُ على استقبالك لأخفف عنك الصدمة. تظاهرتُ أنني جئت لأصطحبك إلى البيت. بينما كان من المفترض أن يكون سامر ابنك في انتظارك.

القاعة غاصة بالمودعين والمستقبلين من الرجال والنساء، ضجيج، أولاد يتطاولون برؤوسهم عالياً، بكاء خافت، دموع فرح، نداءات سفر، عربات محملة بالحقائب الكبيرة والصغيرة، أيد تلوح. تلفت عدة مرات باحثاً عن... عمَّ كنت أبحث؟!

أكد لي سامر على الهاتف قبل أيام، أنه سوف يكون في انتظاري. كان مع أصدقائه في رحلة استجمام على شاطئ البحر في اللاذقية، وسيعود إلى دمشق قبل عودتي من دبي، ليكون في استقبالي في المطار.

عبرت قاعة الانتظار باتجاه بوابة الخروج، دفعت أحدهم بكتفي أو أنه دفعني. التفتُّ نحوه معتذراً، فبادلني الاعتذار. في الخارج، وقفت ساهماً على الرصيف أبحث عن سيارة. كان الجو الدمشقي صافياً ولامبالياً.

من بين الواقفين، ظهر حسان على الرصيف، فوجئت به، لم أكن أنتظره ولا أبحث عنه!! اعترضني معانقاً، أمسك بيدي سحبني وانحرف بي جانباً. استغربت ظهوره المباغت. سألته عن سامر. لم يجب.

لم أدرِ بعدها، وحسان لا يتوقف عن الكلام، إلى أين سيأخذني!!

...اختفى سامر قبل وصولك بأسبوع. عندما عزمتُ على ملاقاتك في المطار، كان في حسباني أن أعلمك بشكوكي خلال الطريق، وأمهد لك ما سوف تعلم به بعد قليل، ولم يكن ساراً على الإطلاق.

طلب حسان من السائق حمل حقائبي وأن يسبقنا بها إلى السيارة. أعدت عليه السؤال.

«سنتكلم فيما بعد». قال.

«بل الآن».

ولم أصعد إلى السيارة.

... صارحتُك بعد إصرارك، أن نهى اتصلت بي منذ أيام، وأعلمتني بانقطاع أخباره عنها، ولم تكن لتلتفت إلى هذا الأمر لولا أن رجال المخابرات دهموا البيت، يبحثون عنه، ورجتني

الاستفسار عما يريدونه منه. اتصلتُ بالفرع، كانت لديهم قضية كبيرة ضده، أما هو فمختف.

أطلق جوابه في رأسي احتمالات شائكة تبدأ بالاعتقال ولا تنتهي بالسجن. أحسست بأنني قد أنهار بين لحظة وأخرى. وباتت مدة بقائي في دمشق وعودتي إلى دبي مرهونتين بما سيرتبه اختفاؤه عليَّ من تساؤلات، وظهوره من أعباء.

... كان ضابط المخابرات واحداً من معارفي في العمل. طلبت منه عدم اعتراضك في المطار، ووعدته بأن آتي بك إلى الفرع. كان ذلك أخف وطأة عليك، حاولت إعدادك، لما سوف تسمعه، وأعطيك فرصة للتفكير لتستوعب شيئاً لا يمكن أن يخطر لك. كنت واثقاً بوجودي إلى جانبك، أنني سأساعدك. كان من الضروري مراجعة الضابط المسؤول.

«هل أنا مطلوب؟».

«لا، ليس لديهم شيء ضدك».

أدركت لحظتها أن حسان بحكم معرفته ببعض ضباط المخابرات، تبرع بمرافقتي لئلا يضايقني أحد هناك.

...أكدتُ لكَ، المقابلة لن تطول، بضعة أسئلة لا أكثر. لن ينجم عنها شيء، ولن تعيقك عن العودة إلى عملك في الوقت الذي تريده.

أنهيتُ صباح أول البارحة في دبي، جميع الإجراءات اللازمة لعملي الجديد، إثر الموافقة على تعييني مستشاراً للبرامج السياسية

في قناة تلفزيونية ممولة من جهات لم أهتم بمعرفتها. فات أوان التحري عمن نتعامل معهم. لم أجهل من خلال الأشخاص الذين رشحوني للعمل أن الجهات المشبوهة لم تعد مشبوهة في مقياس هذه الأيام. سابقاً، كان توافر المال بسخاء كافياً ليضع عشرات إشارات الاستفهام، تُلحق بها اتهامات بالعمالة والتخوين. اليوم يسارع الكثيرون لتبييض كميات هائلة من الأموال القذرة، أخذت ترتد علينا بفرص عمل لبضع سنوات، أو أشهر.

في اجتماعي مع مدير القناة، كان الحديث صريحاً، فقد سبقتني إليه بعض المعلومات عني. قلت له لن أخفي شيئاً، لقد مررت بأكثر من مرحلة يسارية، وطمحت إلى المشاركة في تغيير العالم، ولم أفلح مثل غيري في المشاركة ولا في التغيير. صراع خرجت منه بخسائر فكرية، حصيلة حمّى الشباب، أما الجسدية فبضع كدمات جراء مشاغبات طلابية، وأمضيت مدة تقارب السنة في السجن.

بان على وجهه التساؤل، ثم قال محاولاً إخفاء فضوله:

«قيل لي بأنك لم تعد تهتم بهذه الأمور».

«ولا بغيرها، أهتم بعملي فقط».

تلكأ قليلاً، فأكدت له:

«لست منتسباً إلى حزب، ولا متعاطفاً مع أية جهة».

«لا نعترض على اتجاهاتك، لكننا نريد أن نكون على بيّنة».

لم أجد بأساً في المزيد من التوضيح:

«لن أمنح حياتي لأية فكرة، مهما كانت عظيمة».

خرجت من قاعة الاجتماعات إلى الفندق، الوقت ظهراً، تناولت طعام الغداء، بعض المقبلات الباردة، ووجبة جوردون بلو لا طعم لها، وعصير برتقال. على غير عادتي لم أشعر بالنعاس، أشعلت سيجارة وطلبت كأساً من الشاي. أحسست أنني أنتظر شيئاً ما، أو شخصاً اعتقدت أنه سيدخل من الباب، يتوجه نحوي مباشرة ويخبرني بأمر مزعج. تمنيت أن استقلّ الطائرة قبل موعدي وأعود فوراً إلى دمشق. لكن ما زال هناك ما أنجزه، على الأقل انتظار نتيجة المقابلة، وإن كانت معروفة، وبعض الإجراءات الأخيرة اللازمة. قالوا إن بوسعي إنجازها فيما بعد.

راودني خاطر، تكلمت مع سناء بالهاتف. وقلت لها إنني حجزت تذكرة العودة، وطلبت منها أن تستعد لكي ننجز أمورنا خلال أقل من أسبوعين. ثم اتصلت بسامر وأخبرته عن عودتي بعد يومين، لأنهي بعض الأمور العالقة في دمشق، قبل أن أباشر عملي الجديد.علمت منه أن رحلته إلى اللاذقية قاربت على الانتهاء، وسيكون يوم الثلاثاء بانتظاري في المطار. بينما كان يخطط لاختفائه عن الأنظار.

... لم يكن اللقاء سيئاً في الفرع، وإن كان مفرطاً في التشاؤم. كان الضابط واثقاً أنْ ليس لديك معلومات عن سامر. لكنه أراد استفزازك قليلاً ربما ظفر ببعض المعلومات، لم يظفر بشيء، لكنه نجح باستفزازك.

جلستنا لم تخل من مجاملات بسيطة. زعم الضابط الذي كان لطيفاً ومتفهماً أنه يتابع ما أكتبه من دراسات قيّمة، لكنني لم أرتح

له. كان قصير القامة، ولم يكن تعمده الجلوس وراء طاولته على كرسي دوار مرتفع، إلا ليخفي طوله الحقيقي، دون أن تعوض أكتافه المتينة وصدره العريض طوله المتواضع. هذا ما دار في خلدي حوله من انطباع سيئ، ربما لكي أخفف من تأثيره فيّ. مجرد أنني في مركز تابع للمخابرات جعلني أتيقن أنني لن أشعر بالارتياح، بينما محدثي سيكون في منتهى الهدوء ويمارس ضدي لعبة لن تكون متكافئة.

بعد أن أبدى تقديره لكتاباتي، بادرني دون مقدمات:

«ابنك سامر، أين هو الآن؟»

«ما الذي تريده منه؟»

لم أستطع كبح جماحي، كان في تساؤلي انزعاج.

«لا تتوفز».

«لا تقل لي بأنكم تحتجزونه».

«أجبني، الأمر يهمك».

«سامر في رحلة مع أصدقائه إلى الساحل، وقد تأخر هناك».

«طبعاً أنت واثق. هل استأذنك؟»

«استأذن زوجتي».

«أنت وزوجتك منفصلان، أليس كذلك؟»

«هل أنا في تحقيق؟»

«أريد التأكد مما لدي من معلومات».

«صارحني، ما الذي يجري؟»

«نحن نبحث عنه. تتبعناه من بيروت إلى دمشق، ثم فقدناه في حلب. أعتقد أنه توجه إلى قرية حدودية».

«أنت تعرف أكثر مني».

«ابنك على علاقة بجماعة إسلامية متطرفة».

كان ما يقوله صاعقاً، لكنني استبعدته.

«أنت مخطئ».

لم أتصور على الإطلاق أن يكون سامر على صلة بأي تنظيم مهما يكن كنهه. تبادر إلى ذهني أن الضابط يريد مني شيئاً، فأخذ يبتزني بتلميحات، متعمداً تهديدي بابني.

«سيعود سامر اليوم، وربما كان الآن في البيت. هل لي أن اعرف ما الذي تريده مني؟».

«عندما أقول ابنك، فأنا أعنيه تماماً. نحن نلاحق هذه القضية منذ زمن، وما أعرفه الآن عنه، هو أنه مختبئ في قرية الدواسة، ريثما...».

«ريثما... ماذا؟!»

«خلال الأيام القادمة سيغادر إلى العراق».

«لا تؤذني أكثر، لقد ارتكبتم خطأ جسيماً. سامر ليس في وارد محاربة أميركا، ولا يفكر بهذا مجرد تفكير».

«ما سأقوله لك سيكون خبراً قاسياً عليك، لقد انتمى إلى تنظيم إرهابي إسلامي خلال السنة الماضية من دراسته في بيروت. لن أخدعك، ولا أريد أن أبالغ، ربما كان على علاقة بمنظمة القاعدة على وجه التحديد، وهو الأرجح».

لم يختم حسان حديثه، كان قد افتتحه:

... لم تكن هناك خديعة، بل قضية بالفعل. هل تريد معرفة المزيد؟»

كنت أريد أن أعرف.

٨

لم يسترع سامر انتباه رجال الأمن طوال مدة دراسته الجامعية في بيروت، كان مثل أي طالب سوري يدرس في لبنان، يخرج مع شلته من الشبان والفتيات، يرتاد مقاهي شارع الحمراء والسينمات والكافتريات ومطاعم الوجبات السريعة، لا شيء يثير الشكوك أو التكهنات في تصرفاته. في السنة قبل الماضية، أخذ يتردد على المساجد القريبة من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. فلفت أنظار المخابرات اللبنانية والسورية، وفسروا تواجده فيها على أن صداقاته المتنوعة التي لا تخلو من أصدقاء فلسطينيين، قادته إلى هناك.

بعدها بشهرين، التُقطت له عدة صور ظهر فيها ملتحياً، طول شعر لحيته يتجاوز قبضة الكف، يرتدي لباساً شرعياً قصيراً، حسب النمط الإسلامي الأصولي، وعندما يرجع إلى دمشق في العطلة الصيفية، يرتدّ حليق اللحية مرتدياً سترة وبنطالاً من الجينز. بأيهما

كان يتنكر؟! فأدركوا أنهم وقعوا على صيد ثمين. لكنه لم يكن ثميناً، كان كما تبين مجرد طالب استهواه التدين فقاده إلى المسجد.

في أوائل السنة الماضية، شوهد في مخيمات شاتيلا والبارد والبداوي، يسعى إلى التعرف على الأفكار الجهادية في أكثر أماكنها انتشاراً. لم تبدأ علاقاته تبعث على الريبة، إلا بعد تركزها على أشخاص متشددين من المعروفين بالتكفيريين في المخيمات التي اتخذوها ملجأ لهم. وكانت تحتضن تنظيمات إسلامية معروفة وجماعات صغيرة لم تخترع اسماً لها بعد، يأوي إليها المطاردون والمطلوبون في بلدانهم، يأتون إلى لبنان بجوازات سفر مزيفة بحجة السياحة، ثم يختفون في زواريبها. الواضح أن سامر كان في تلك الفترة، يبحث عن خياراته، لم يكن قد اتخذ قراره بعد.

هذه التنظيمات والجماعات لم ترضه، عموماً لم تكن تشكل خطراً كبيراً، أعداد كل تنظيم لا تزيد على بضع عشرات من المقاتلين، سمعتهم غير نظيفة، بعضهم على علاقة بسياسيين لبنانيين، وأجهزة مخابرات عربية متنوعة، سورية وأردنية وسعودية...كانوا على خلافات فيما بينهم، يخوضون حروباً كلامية، تصل أحياناً إلى إقامة حواجز وتبادل إطلاق رصاص، تتهم كل جماعة الأخرى بأنها باعت دينها لقاء تلقّي الأموال من مصادر مشبوهة، وفي الوقت نفسه يدّعون أنهم يعملون لكسب عيشهم. يمكن مصادفتهم في أزقة المخيم؛ باعة فول وفلافل وخضار وحرفيون، عمال باطون وتمديدات صحية وكهربائية... يعيشون من عرق جبينهم، يزعمون أنهم يشترون الأسلحة من

أموال الزكاة. كانوا مخترقين من عدة جهات عربية لا تبخل عليهم بالتبرعات، وتشجعهم على فتح الطريق إلى العراق، لإشغال الأميركان عن الضغط على الحكومات، بينما تجاهلت أجهزة الأمن تجنيدهم للشبان وإرسالهم متطوعين إلى هناك، بغية التخلص منهم، أو لمحاربة الشيعة، بهدف إحداث توازن طائفي داخلي... كان سامر يبحث عما هو أدهى؛ صلة وصل مع تنظيم القاعدة، أو موفدين من جماعة أبي مصعب الزرقاوي.

لا ندري إذا ما وصل مبعوث من القاعدة كُلف بالإشراف على توجيه خلايا نائمة، أو تشكيل خلايا لحسابها. لا يمكن تحديد ما جرى بالضبط، كانت بعض الجماعات الأصولية تنزع إلى التنسيق مع القاعدة، ومبايعة ابن لادن، كان العمل تحت قيادته يرضي طموحات الشبان ويؤمن الدعم والتمويل.

تمكن سامر من الاتصال بأحد رجالاتهم، وكالمعتاد اتخذوا احتياطاتهم، وضعوه تحت المراقبة والاختبار، وخاضوا معه عدداً من المناقشات الشرعية، أثبت فيها انحيازه للجهاد، واستطاع إقناعهم بسرعة قياسية بمتانة عقيدته. أجمعت المعلومات حوله على أن لديه شخصية إيمانية جذابة، سرعان ما جرى إدراج اسمه في قائمة المجاهدين، وأصبح على اتصال مباشر بالشبكة التي ستتولى تهريبه وتؤمن وصوله إلى العراق.

عملاء المخابرات السورية في بيروت لم يغفلوا عنه، سجلوا تحركاته الأخيرة:

حدد له المسؤول عن الشبكة موعداً في محلة كورنيش المزرعة

قرب مسجد جمال عبد الناصر. أرسل إليه مبعوثاً، أخذه إلى مسجد الأوزاعي، صلوا صلاة الظهر، ثم تناولا طعام الغداء في مطعم قريب. بعد صلاة العصر، سلمه لشخص آخر، وجرى نقله إلى شقة في البسطة بقي فيها لمدة يومين. تلقى تعليمات التحرك، ثم تم تهريبه إلى سورية عن غير الطريق النظامي.

تابعت المخابرات السورية مراقبته منذ دخل إلى دمشق:

التقى بشخص في ساحة المرجة انتظره على ناصية فندق سميراميس، ثم سلمه إلى شخص آخر اصطحبه إلى مضافة في حي ركن الدين. أمضى فيها عدة أيام، قبل أن يغادرها حليق اللحية، لابساً ملابسه العادية.

بعد ذلك، زار أمه وقال لها إنه سيذهب مع أصدقائه في رحلة لمدة أسبوع، لكنه انطلق إلى حلب، وخضع لدورة أمنية سريعة، تعلم فيها أساليب التزام السرية التامة، وكيفية التعامل مع المحققين وتضليلهم في حالات التوقيف. ولم يغادرها قبل مبايعة أمير الجماعة على الطاعة، فيها اشترط ماذا سيكون دوره، مقاتلاً أو استشهادياً.

«ماذا كان شرطه؟»،

سألته كي أطمئن على سامر

«لم يعرف».

عندما حاول رجال الأمن ضبطهم، اختفوا جميعاً، ولم يتركوا

وراءهم أثراً. ظن رجال المخابرات أنهم في قبضتهم، بينما كان الأمر على العكس تماماً.

«لماذا تأخروا في اعتقالهم؟».

«ثقتهم أنه طالما كانوا تحت الرقابة، فبوسعهم القبض عليه ساعة يشاؤون، وكان الأمر متروكاً للحظة المناسبة. الأغلب عندما وعدك أنه سيكون بانتظارك في المطار، كان في طريقه إلى منطقة الجزيرة».

كانت تلك هي الخطوات التي تسبق الأخيرة نحو العراق.

اقتحم الزمن المخيف الذي كنت أقرأ عنه حياتي دفعة واحدة بكل أهواله وجنونه ومآسيه. تمنيت لو أن كل ما سمعته ليس أكثر من إخباريات ملفقة. ضبطت أعصابي ورجوتُ الضابط تكذيبها:

«ترفق بي. أنا مجرد أب».

حدق إليَّ وصفن قليلاً، ثم قال بتؤدة:

«فلنأمل ألا يكون اجتاز الحدود. لا تضع الوقت. اذهب إلى قرية الدواسة. إذا كنت محظوظاً فستعثر عليه. أنت أفضل من يقوم بالمهمة».

تماسكت بصعوبة. لم يكن يتلاعب بي، كان يلقني أمراً بالتحرك. تساءلت بقلق:

«كيف أنجح بما فشلتم فيه أنتم؟».

«هذا العمل يستحسن أن تقوم به أنت، لو قمنا به نحن، فسيقاومنا، حتى الرمق الأخير».

«هل أسلمك ابني؟».

«هذا أفضل من أن أسلمه لك جثة بلا حراك. فيما يمكنك أن تعود به حياً. أنصحك، لا ترفض، لا نريد منه سوى بعض المعلومات».

لم أرفض، قررت اللحاق بسامر. ما كنت أرجوه فعلاً هو أن يكون الضابط على خطأ. فيما كان يستحثني:

«إن لم يكن اليوم ليلاً، فغداً صباحاً».

«ما الذي بوسعك تقديمه إليّ؟».

«اذهب إلى المختار فور وصولك، ستكون لديه تعليمات بشأنك».

كان لدى الضابط ملاحظة قبل أن ينتهي اجتماعك معه، سألك، ألست أنت الذي تكتب عن الجماعات الإسلامية؟ لم يكن يسخر منك، وإنما يعلن عن استغرابه لهذا التناقض الحاصل بين الأب والابن. أتذكر أنك فكرت قليلاً، ثم قلت له شيئاً وافقته فيه على ما قاله.

«نعم ، إنها مفارقة».

□□□

هل كان السأم أم اليأس؟ كلاهما.

بلغ بي اليأس حداً عطّل ما كبحته ونجحت في السيطرة عليه طوال الأيام الماضية، بينما ورطني السأم بعدم مقاومة فضولي، الثغرة السوداء اخترقت، لم أعد في المجال الآمن أتخبط مطمئناً إلى جهلي.

كان ينبغي ألّا أعرف، لكنني عرفت، وبات عليّ أن أعرف أنا لا الآخر، ما الذي جرى بعدئذ. لن أتلطى وراءه. لعبتي أو لعبة الآخر انتهت، ولم يبق سواي.

سلسلة بات من المستحيل إيقافها، أو تفاديها. لم أستسلم لذاكرة بدت شديدة الظلمة، وإن تركت الوقائع تنساب منها، جهدت في تلقيها بحذر شديد، لكن ما نفع الحذر؟!

حدسي كان أقوى من أي يقين، أدرك، بل وأكاد أتلمس ما سوف تخبئه لي الذاكرة من آلام، آلام لا تطاق.

٩

لم أجد في ما قاله الضابط مبالغة، كانت لدي أنا أيضاً معلومات عن القاعدة، لا تتناقض مع ما سمعته. لكن ما أثار عدم تصديقي وتساؤلاتي، أن يتمكن سامر من الانتساب إليها. كان أغلب الذين تقبلهم بين صفوفها من الشبان القادمين من السعودية والمغرب والجزائر، لبنان بالنسبة إليهم نقطة عبور إلى العراق، يأتون إليها فراراً من ملاحقات سلطات بلادهم وللحصول على تدريبات عسكرية تساعدهم على إكمال مشوارهم الجهادي. كانوا يتبرعون بكل ما يحملونه أو ما جمعوه من مال، لقبول تطوعهم لتنفيذ عملية استشهادية، دون الاضطرار إلى الانتظار في لوائح الاستشهاديين العادية، لئلا يتأخر دورهم عدة أشهر.

قبل أن نصل إلى أوتوستراد المزة، اقترح حسان الذهاب إلى بيت زوجتي نهى في منطقة الميسات، حيث كانت مقيمة مع الأولاد بعد طلاقنا. لم أوافقه، الأفضل ألا تعلم حالياً.

«لا تنسي أنها أمه»، أصرَّ حسان.

تذكرت ما دار بيني وبينها بواسطة البريد الإلكتروني قبل عام مضى. كنت منزعجاً من سامر بعد توقفه عن مراسلتي، وتجنبه الرد على رسائلي. أحسست أن هناك ما يخفيه عني. كتبت لها أسألها، أين يقضي أوقاته، فتهربت من الجواب. لم ترغب في إخباري لئلا نتشاجر، كما زعمتْ. فألححتُ عليها، كان جوابها: سامر يتجنب الكتابة إليك كي لا يكذب عليك. لقد التزم دينياً، ترك شلة أصدقائه القديمة، وصار يصوم ويؤدي الصلاة بأوقاتها، ويفكر بأداء العمرة. أتمنى ألا يزعجك تديّنه.

لم أستبعد أن تكون هي أيضاً قد التزمت دينياً. هذا ما تراءى لي وقتها، ولم أكن واثقاً تماماً. حسب اعتقاداتها المتجددة، بشأن تربية الأولاد، صار الدين برأيها يشكل حماية للشبان من المفاسد. هذا ليس ضد اعتقادي، لكنني لم أكن متحمساً له.

نبذت نهى أفكارها التقدمية عن الوازع الأخلاقي الذاتي، وخالفت دعواتها التحررية الداعية إلى حرية المرأة، لتضمن عدم فقدان ابنها مع فتاة متحررة من اللواتي كانت تدافع عنهن، وكانت في زمن مضى واحدة منهن، وتشهد الندوات وتوقيعها العرائض المؤازرة للنساء المظلومات ومشاكساتها للرفاق في المناقشات جرأتها في الدفاع عن بنات جنسها.

مخاتلتها الأخيرة هذه، كانت عينة لما تردت إليه علاقتنا في مراحلها الأخيرة، وأدّت إلى انفصالنا. عشنا المرحلة نفسها، وأصابتنا الهزيمة ذاتها، ففيما تجاوزتُها وأعدت بناء نظرتي إلى العالم بكثير من اللامبالاة والتساهل، عاندت هي، وحافظت على

بعض الثوابت التي سرعان ما تنكرت لها، ثم حورت بعض الأفكار عن التقاليد والتحرر، أضافت إليها نسخة محسنة من إيمان مبتكر لا يمكن فهمه إلا على أنه مزيج من النموذج التلقيني الدارج للعبادات، من دون تمحيص ولا تعقل، مع مقدار لا بأس به من الانفتاح السخي على الغيبيات يتلاءم مع طوالع الأبراج والحظوظ وتفسير الأحلام، ولمسة روحانية تنسجم مع الشعوذات الشائعة عن الجن والعفاريت، من دون التخلي عن ذلك الشطط النسوي لحقوق المرأة، والذي كان في حقيقته رغبة عارمة في التسلط على الرجل والسيطرة عليه، بدعوى إعادته إلى حجمه الطبيعي. كانت النقلة هائلة، والتغير في مجمله خليطاً متنافراً، ومع هذا تمكنتُ من التوفيق بين عناصره على أنه الأسلم، من ناحية أنه لا يهمل شيئاً على الرغم من الإلتواء الرجعي المحلي المفضوح والفج، لإيمان اختارته بعناية، وأتاها متأخراً، لم يتناقض مع تنويعات تقلباتها المروعة. ومثلما لم أفهم تحررها من قبل، هالني تزمتها من بعد. كلاهما كانا طوع مزاجيتها كمناضلة، ثم كزوجة، وبعده كأم.

استعدت سؤالاً طرحه عليَّ سامر قبل أكثر من سنتين، عندما كنا نتمشى في الحديقة المجاورة لمنزلنا عندما سألني:

«أبي، هل تؤمن بالله؟».

باغتني سؤاله. لم يكن الله وارداً في أحاديثنا على الإطلاق. أقنعني وجهه المضرج بحمرة الخجل أنه كان وبكل براءة خائفاً عليَّ من عذاب النار. تلمست هذا بطرافة في وقتها، ولم أرد إغضابه. لم يكن لدي تساؤل حول الله، سواء كان موجوداً أم لا. مع أنه في

المدرسة الثانوية، شكل أكبر مأساة واجهتها في مطلع حياتي، كانت مسألة عالم بلا إله، حيرتي الشاقة وعذابي المرير، كادت أن تدمر كياني الهش ومراهقتي المضطربة، لولا أن انتهت فصولها في العطلة الصيفية قبل دخولي الجامعة، بعدما استولت عليّ فكرة موت الله، المقولة التي اكتشفتها متأخراً عن الإعلان عنها قبل قرن من الزمن. أذهلني أن الله كان قد شُيع إلى مثواه الأخير عدة مرات، كفكرة بالية عديمة الجدوى، تجاوزها عالم تحكمه الحتمية وتتلاعب به المصادفات. لم يكن العلم سوى محاولة دؤوب لتفسير ما لا تفسير له، ربما يساعدنا على الالتحاق بالمستقبل. سيطرت على عقولنا فكرة أننا نعيش في عالم متخلف، ولا وجود لله إلا في عقول بشر يؤمنون بالغيبيات، وريثما يواجهون هذه الحقيقة، لا بد من مضي بضع سنوات. بعدها لا مكان له إلا في المناطق النائية من الريف، هناك يتخذ شكل شعوذة ما تضاف إلى ما سبقها من شعوذات مشابهة.

لم تكن مسألة تعميم موت الله سوى مسألة وقت.

سؤال سامر كان مرتبطاً بما كنت أعمل عليه من دراسات حول الصحوة الإسلامية والجماعات المتطرفة، وغفلتُ عن سهو لا عن سوء تقدير، أن الله سدد لنا ضربة قاصمة قبل سنوات، لم يهزمنا فحسب، بل وطردنا من الحاضر والمستقبل، وأصبحنا جزءاً من الماضي غير المجيد.

لم يدهشني سؤاله ولا أيقظ في داخلي شيئاً، مشاكلي كانت من نوع مختلف، أكثر من أن أتوقف عند غيرها، أو أفكر فيها. قلت له:

«أنا لا أؤمن بشيء».

لاحظت أنه انجرح من صراحتي الزائدة، فقلت مازحاً كي لا يزعل:

«مارس تأثيرك فيَّ، لا مانع لدي».

«لا غنى عن قدر من الإيمان ولو ضئيلاً، غير متوافر لديك».

«ليس الإيمان بل الخوف».

اتخذ سامر موقفاً مني، وأصبح يستاء مما يعرفه عني، سواء عن عدم تديني أو استخفافي بالدعاة والمشايخ مطلقي الفتاوى في القنوات الفضائية. فلم يشأ إعلامي بتحوله إلا بعد تمهيد لئلا يصطدم بي.

اعتبرت تدينه اختياراً شخصياً لا تصح مؤاخذته عليه. ولا يجوز فتح نقاش حوله. فيما بعد أردت توضيح موقفي على أنه اختلاف لا خلاف بيننا، وليس بالشيء الذي يفرقنا، لكنه بقي أحد الأمور العالقة التي لا تني تبرز بين آونة وأخرى، والتي رغبت في حلها خلال وجودي في دمشق، كي أصلح أموري معه، وأقول له ما أعتقده من أن تديناً متنوراً لا يضر الشبان في هذه السن. ولا اعتراض لي عليه على ألا يغيب العقل عنه.

□□□

فتحت نهى الباب دامعة العينين. تراءى لي فوراً أن لبكائها علاقة بمّا سمعتُه، مع معرفتي بأن أصغر الأمور تجعلها تذرف الدموع

على الرغم من نزوعها نحو حل مشاكلها بالتصادم مع الآخرين. فاجأتني بأنها كانت تبحث عني، اتصلت بي عدة مرات حتى ظنت أنني أجلت قدومي إلى دمشق. كانت قلقة، سامر لم يعد البارحة من اللاذقية، لكنه اتصل صباحاً وسأل عني، أصر على عدم قول شيء إلا بحضوري، يريد الكلام معنا جميعاً، ثم اتصل قبل قليل ثانية ووعد بمعاودة الاتصال. انشغل بالها، تلمحتْ في لهجته نبرة غريبة لم تطمئنها؛ قلب الأم دليلها.

هذا ما كانت تزعمه دائماً، هذه المرة لم تخطئ.

طلبتُ منها أن تهدأ، ثم التفتُّ إلى ابنتي ندى وتعمدت معانقتها لأهمس في أذنها ألا تغادرنا، وكانت مستعجلة على الذهاب إلى الجامعة. استغلت زوجتي انتظارنا للمكالمة لتلومني على إهمال سامر الذي تمرد علينا احتجاجاً على انفصالنا. تمنيت أن يكون حزرها في محله. لم أقل لها إنه كذب علينا بشأن الرحلة، وأن الأمر لو صح كلام الضابط، أسوأ مما تتصوره بكثير. انشغلت عنها بما سوف أقوله له، على الأقل معرفة مكانه بالضبط، والطلب منه والعودة فوراً إلى دمشق. لم يطل الوقت عندما رن الهاتف، تكلم سامر مع أمه، ويبدو أنه قال لها إنه سيسافر لفترة طويلة، فاستغربتْ تصرفه من دون فائدة. ثم ناولت السماعة لندى وكانت مضطربة.

تكلمت ندى معه، ثم أعطتني السماعة ولم تكن أقل من أمها اضطراباً ولا استغراباً.

«أين أنت؟» بادرتُه.

جاءني صوته رصيناً:

«أبي، سأصارحك، خلال فترة وجيزة سأكون في العراق، مجاهداً مع إخواني المسلمين ضد الاحتلال الأميركي، أتمنى أن أموت شهيداً. كن إلى جانب أمي، وعسى الله أن يهديك سواء السبيل. اعتنيا بندى وتذرعا بالصبر».

لم تكن المفاجأة كاملة، ومع هذا كانت الصدمة مروعة، أدركت أن سامر اشترط الشهادة في المبايعة. دهمتني الدوخة، وكادت السماعة أن تسقط من يدي. تماسكت بصعوبة وأصررت على سؤالي:

«سامر، اصدقني القول، أين أنت؟»

تابع كلامه بسرعة وبالتصميم نفسه:

«إذا وصلكم خبر موتي فلا تبكوا عليَّ، ولا تقيموا لي عزاء، هذا من البدع».

وأغلق الهاتف. تقصفت قدماي. استندت إلى الحائط، وتهالكت فوق الكنبة، وقبل أن تأخذني الأفكار، خرج صوتي متحشرجاً:

«سامر سيذهب إلى العراق».

لم تشأ أن تفهم ولا أن تصدق ما سمعته مني، وكأن عقلها اختلّ. أعادت وهي تشرق بدموعها ما قاله لها قبل قليل. رجاها أن تتحجب هي وأخته ندى وألا تصافحا الرجال، ثم طلب منها أن تمنحه رضاها، وأن تدعو له بالتوفيق. وعندما استفسرته

مستغربة طلبه دعواتها التي لم تمنعها عنه، قال لها، اعتصمي بالله، إياك والبكاء، رضاك طريقي إلى الجنة.

نظرت إليَّ متسائلة. قلت لها:

«لقد اختار طريقاً آخر إلى الجنة».

١٠

صباحاً كنت في طريقي إلى الجزيرة عن طريق تدمر، الطريق أطول مما قدرت، والباص تعطل، توقفنا ما يزيد على ساعة نتعرق، بينما كان السائق ومعاونه يحاولان بشتى الطرق إصلاح المبرد، أو استبدال قشاط المروحة، وربما أعطال أخرى. دخلنا مدينة دير الزور بعد العصر، تناولت شيئاً يشبه الخبز واللحم في مطعم مفتوح للذباب. تابعت بعدها إلى مدينة البوكمال القريبة من الحدود. تناهبتني عشرات الاحتمالات، تراوحت بين السيئ والأسوأ، جهدت مستغلاً الوقت الضائع في ترتيب أفكاري، لكن الساعات الطويلة من الإرهاق والملل على وقع الهدير الخافت والرتيب للباص على مدى مئات الكيلومترات، كانت كفيلة بتشتيت ذهني أكثر مما هو مشتت على طريق كان قاحلاً وسقيماً. في كراج البوكمال، لم أنتظر الميكروباص المخصص للنقل إلى قرية الدواسة، استقللت سيارة أجرة. بعد مضي نحو أقل منّ نصف ساعة وصلت إليها.

كانت الدواسة المتاخمة للحدود السورية العراقية، أحد المراكز السرية لتجمع المتطوعين الراغبين في الجهاد، يقوم المهربون بنقلهم ليلاً في مجموعات لا تزيد الواحدة على أربعة أو خمسة أشخاص بعد تأمين مسالك مموهة إلى الطرف الثاني من الحدود، أحياناً لا يطول انتظارهم أكثر من ليلة أو ليلتين، وأحياناً أخرى يزيد على أسبوع، ذلك يعتمد على رقابة دوريات الجيش وتغير الأحوال السياسية الإقليمية والدولية. وهذا ما زود الضيعة بسمعة وطنية عروبية كانت جديرة بها خلال الانتداب الفرنسي عندما آوت رجالات الحكم الوطني وسهلت تهريبهم إلى العراق. أما اليوم فبالإضافة إلى النخوة والشهامة، كان التهريب مورداً لقدر متواضع من المال، يُستغنى عنه بعض الأحيان لوجه الله.

من بعيد لا تتميز قرية الدواسة بعلامة فارقة عن بقية القرى التي مررت بها، وإن كانت تمتد على رقعة واسعة؛ بدأت تتضاءل مع تسلل العتمة. دخلتها مع غروب الشمس. في ساحتها الصغيرة أقيم نصب تذكاري بسيط، بدا مهجوراً، ملامحه غير واضحة، ولا معتنى به، بضعة أحجار على شكل ما، ربما كانت رمزاً للفلاحين، أيام كانوا مع العمال يشكلان عماد تحالف قوى الشعب، أو لشهيد من حروب ١٩٦٧ أو ١٩٧٣. تتفرع عن الساحة بيوت واطئة تمتد محاذاة بعضها بشكل غير منتظم على طول دروب مفتوحة على حقول القمح ومدقات متعرجة تؤدي إلى مقهى صغير أو مضافة، ودكاكين معتمة فارغة لا تبيع شيئاً، الباعة على قارعة الطريق يجلسون على كراسٍ منخفضة، ألقيت عليهم السلام، فردّوا عليّ بهمهمة، تتبعوني بأعين نصف مفتوحة، ونساء رغم ما يبدو عليهن من انشغال كنّ يرمقنني بحدة، يرصدن وجهتي لئلا يفوتهن الباب الذي سأطرقه.

بضعة صبية يلعبون في فسحة خالية، سألتهم عن بيت المختار، دلوني عليه. كان واقفاً أمام الباب بانتظاري. رحب بي بشكل زائد ومنفر:

«جئت في وقتك».

كانت الغرفة المتقشفة الأثاث، الأشبه بدكان لا مكتب، مقر المختار، في الزاوية طاولة صغيرة من الصاج، عليها أوراق وعدة أختام، وكرسيان من القش، وإلى الجدار بضعة متكآت وحشايا رقيقة، قدر فخاري للماء، وسماور للشاي، دلة قهوة وفناجين فوق صينية نحاسية. دعاني إلى الغداء، اعتذرت بتناولي الطعام في استراحة بمطعم بدير الزور.

في الظروف العادية، لم أكن لأرتاح إلى المختار. بدا رجلاً مرائياً وثقيل الدم، غير أن وضعه الحرج خفف من قسوة تقييمي له كجاسوس مسكين غير محترف، يجهد في إخفاء أمره، لو عرف أهالي الضيعة بحقيقة تعاونه مع المخابرات في هذه الظروف القاسية، لنبذ هو وعائلته إن لم يُقتل ككلب أجرب. هذا إن لم يكن وهو الأغلب، عميلاً للجميع، للدولة والمهربين والمقاتلين. أراد إرضائي بالإكثار من الشاي والقهوة وتأمين مكان لائق للمنامة، علّ عندها تنتهي احتياجاتي. ظن أنه بإظهار حفاوته المبالغ بها سأنقل صورة حسنة عنه إلى العاصمة، تقيه شرّ المخابرات وفرعها في المحافظة.

نصحني حرصاً على حياتي بعدم التجول ليلاً في القرية، الأمن غير مستتب، أغراب كثر ينشطون في الظلام، تحركاتي ستثير شكوكهم، وتستفز أهل القرية أيضاً. الأفضل البقاء في المضافة،

ولن يبخل عليَّ بكل ما أريده، وسوف يدعو وجهاء القرية الليلة للمسامرة، ويزودونني بما يجري على الحدود.

قلت له، لا يهمني ما يجري خارج القرية على الإطلاق، جئت باحثاً عن شاب عمره ثلاثة وعشرون عاماً، اسمه سامر، لا بد أن أجده اليوم وفي أقرب وقت ممكن، قبل أن يجتاز الحدود.

انخطف لونه، نهض وقال بغيظ مكتوم، الأمر ليس بهذه البساطة. بدا محتاراً بأمره:

«أنتم لا تعرفون ما يجري، الوضع صعب جداً، نسمع القصف الأميركي يأتينا عبر الحدود، لدينا أولاد عمومة هناك. الحرب تدور داخل بيوتنا، النفوس مهتاجة، صباح اليوم وصلنا خبر عن استشهاد شاب من الضيعة غادرنا قبل أقل من شهر».

«أتعرف لماذا أبحث عنه، بل ومصرّ على العودة به معي؟».

«ما أدراني؟ أنا لا أتدخل، ولا أريد أن أعرف؟».

«سأقول لك، أنا غير مكلف بالقبض عليه، هذا الولد ابني».

فانفرجت أساريره:

«إذا كان هنا، فستجده. حسب علمي، لم تخرج أي دفعة من المقاتلين البارحة، الدروب غير سالكة حالياً، ولا في اليومين التاليين».

سمعت نقراً خافتاً على النافذة، انسحب من جواري، أمام الباب

تهامس مع شخص أخفى وجهه. ورجع مضطرب الملامح، قال:

«لا بد من ذهابي إلى العزاء، يريدون الاستفسار مني عمن تكون».

«سأرافقك».

لم يبد اعتراضاً، ونبهني ألا أشير لمن أرسلني، وأن أتحوط في الكلام.

اتخذنا طريقنا في العتمة، أشباح تمرق بسرعة على مبعدة منا، وخيالات تحدق إلينا وتتلطى في الظلال. بعد خمس دقائق من المشي المتعثر وصلنا إلى زقاق لا يلفت النظر، لا عزاء ولا مشايخ أو تلاوة قرآن. أمامنا باب موارب ولغو خافت يمور في الظلام. دفع المختار الباب ودخلنا، فوجئت بفسحة واسعة مترامية الأطراف تعج بالبشر، خيّم عليهم السكون. ألقينا السلام على الجمع، أفسحوا لنا ممراً ومكاناً، جلسنا صامتين. الإنارة خافتة جداً، شموع صغيرة مبعثرة على الأرض في الأرجاء القريبة والقصية، يترجرج لهبها الضئيل وتكاد أن تنطفئ، وبصيص سجائر يُضيء رؤوساً مطرقة ووجوهاً حزينة تلفها سحب الدخان. تذكرت أن الكهرباء لم تكن معطلة في بيت المختار، والبيوت كانت مضاءة في طريقنا!! سألت المختار، فقال لي إن أهل الشهيد يتحاشون جلب أنظار رجال الأمن إلى عزائهم.

بعد أن اطمأنوا إلينا، أخذ المشهد بالتبدل، تناهى من العمق المرتعش بالظلال صوت المقرئ يتلو بصوت هامس: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور﴾.**

على أطراف الفناء انتصبت الأشجار، وتسللت مع النسيمات الحارة من خلفنا أصوات نشيج ونواح وبكاء مكتوم لنساء وصبية، يخالطها لطم ورثاء، يتعالى تارة وينخفض تارة أخرى، كان قادماً من الأسطحة المعتمة للبيوت المجاورة.

لم يطل الوقت عندما برز من بين الأشجار ملثمون مسلحون، تبعثروا على الأطراف، أحاطوا بالمكان وضربوا طوقاً حول المعزين. بعضهم برزت لحاهم الطويلة من تحت اللثام، يرتدون الجلابيات البيضاء الطويلة وفوقها معاطف قصيرة كاكية أو سوداء اللون.

اثنان من الملثمين أصبحا على مقربة مني، وقف الأول إلى جواري، وتابع الثاني من خلفي واقترب من المختار وهمس في أذنه، فقام من كرسيه وذهب معه، وقفا بعيداً، انضم إليهم رجل آخر، واحتدم نقاش. أدركت أن الأخير كان قائدهم. الحديث يدور عني، المختار يشير إليّ، القائد يستمع ويهز رأسه، ثم تركهم وتوجه نحوي وجلس إلى جانبي. أرخى اللثام عن وجهه. كان شاباً في العقد الثالث من عمره. تأملني:

«من أين الأخ قادم؟».

«من دمشق».

«ما الذي جاء بك إلينا؟».

تلكأت قليلاً، بدت فرصة تهيأت بسرعة لم أتوقعها، لم أتردد في التقاطها. فسارعت أجيبه:

«ابني لديكم، جئت...».

لم أتابع، لمعت عيناه باستغراب، فقلتُ:

«جئت كي أودعه».

«من يكون ابنك؟»

«سامر...».

«لا تكمل، نحن لا نستعمل هذه الأسماء».

أخرجت من جيبي صورة سامر. دفعتها إليه، أخذها، تناول الشمعة المشتعلة القريبة منه، وتأملها تحت لهبها. نبس مدهوشاً:

«أخونا سامر ابنك!!».

احتضن كفيَّ بيديه، ثم ربت على كتفي واعتذر:

«سامحني يا عمي، نحن لا نعرفه بهذا الاسم، لا تذكره أمام أحد. الحرص واجب».

أمعن النظر إليّ مدققاً في وجهي، فتخيلت للحظات أنه سينقل إليّ خبراً سيئاً، لكن تبدّى الحبور البريء في عينيه:

«أكرمك به الله، مثلما أكرمنا. ابنك شاب تقي عظيم الإيمان قلَّ مثيله».

وأشار من بعيد إلى رفاقه الواقفين متأهبين، كانت إشارة بالبدء، لم

يطل الوقت عندما اشتعلت الأضواء، وأُنير المكان وبان الحضور واجمين.

تقدم من بين الملثمين رجل بدين معتدل القامة، أسقط اللثام عن وجهه الممتلئ، وبان بلحية قصيرة وشعر أبيض، هتف بصوت عال كي يصل صوته إلى البيوت المجاورة:

«نحن لسنا في مأتم، نحن في عرس الشهيد.. كفكفوا دموعكم».

فخفت صوت البكاء وانقطع.

«من يستشهد في سبيل الله يقام له عرس لا عزاء. أخفوا الحزن وأظهروا الفرح. إذا كنا نقيم الأعراس لمن يزف إلى نساء الطين، فالأولى أن نقيم العرس لمن سيكون مأواه الجنة، والحور العين نصيبه.

يا أم الشهيد، امسحي عبراتك، الله حقق أمنية ولدك بالشهادة».

سكت قليلاً، ثم أخذ نفساً، وعلا بصوته منشداً، رفاقه خلفه يرددون وراءه:

لبيك إسلام البطولة كلنا نفدي الحمى، كلنا نفدي الحمى..

لبيك واجعل من جماجمنا لعزك سلّما.. سلّما.. سلّما..

لبيك إن عطش اللوا سكب الشباب له الدما، لبيك لبيك لبيك..

أخذت أتأمل الوجوه، لم ألمح سامر بينهم، قلت للشاب:

«أريد رؤية ابني».

«اجتاز الحدود قبل يومين».

«اتصل بي البارحة، قال إنه لم يغادر بعد».

«قالها للتضليل، خشي أن يكون الاتصال مراقباً».

«أصدقني القول».

«أقسم أنني لم أكذب عليك».

كانت الحماسة قد أخذت المنشدين:

حنا شباب التوحيدِ ما نخشى من التهديدِ، حنا شباب التوحيدِ ما نخشى من التهديدِ..

بن لادن صقر الجهادِ، حبك بقلبي مو عادي، بن لادن صقر الجهادِ، حبك بقلبي مو عادي..

بو مصعب ولد النشمية، سمعني صوت.... بو مصعب ولد النشمية، سمعني صوت....

بو مصعب ثاروا رجالك واتبعوا العقيدة مالك.. حنا شباب التوحيدِ ما نخشى من التهديدِ

أحسست بضيق كبير، كتمت غضبي. قلت له:

«إذاً لن أراه أبداً».

«علْم هذا عند ربك».

«بعد أيام سيصلني خبر موته».

«الأعمار بيد الله».

أسامة بن لادن يا مرعب أميركا.. بقوة الإيمان وسلاح أمريكا

دمرنا أميركا.. دمرنا أميركا..

طيارة مدنية، برج التجارة صار كومة ترابية، برج التجارة صار كومة ترابية

«لا تزعل، انظر إليهم، هؤلاء أخوته، أخوته في الإيمان والإسلام، هذا الذي ينشد أردنيّ جاءنا من عمان، والباقون بينهم ليبي وسعوديان وجزائري ومغربيان ولبناني، سيغادرون الليلة بعد ساعتين إلى العراق. كم هم مسرورون، أتمنى لو أغادر معهم، لأنهم لن يعودوا، هذه حفلتهم أيضاً، وعرسهم، عرس الشهيد».

إن قالوا إرهابي، قلت الشرف لي، إرهابنا محمود.. دعوة إلهية، إرهابنا محمود..

أميرنا الملّا عن دينه ما تخلّى، كل الجنود باعوا أرواحهم لله.

الله أكبر

سبيلنا.. سبيلنا.. سبيلنا.. الجهاد.. الجهاد.. الجهاد.

أردت أن أنفجر بالبكاء، لكنني حبست دموعي، تركتها ليوم قادم، لن يطول موعده، عندها سأبكي كثيراً.

«عمي، افخر بابنك».

«ابني ذهب لينتحر».

«ابنك ذهب لينال الشهادة. افرح ولا تحزن. اصبر، إن الله مع الصابرين».

«عندما تصبح أباً، واسيني بهذا الكلام».

«سأقول لك شيئاً، لكي أطمئنك فقط، لن يقوم بعمل استشهادي».

«ما أدراك؟».

«اليوم وصلنا خبر عنه، الله أعده لمسؤولية أكبر».

يا قاعدي سمعنا المدفع والأربيجيه. يا قاعدي، يا قاعدي..

سيلنا الدم فجّرنا الموقع على الأمن، على الأمن، على الأمن..

حرقوا الأبار خلوني استشهادي، استشهادي..

يا قاعدي سمعني المدفع والأربيجيه، يا قاعدي يا قاعدي..

أدركت أنه يهّون عليّ مصيبتي، ويحاول التخفيف عني، ماذا تكون تلك المسؤولية سوى أنه سيفجر بجسده حاجزاً أميركياً، أو

مبنى لحزب عميل، أو مخفراً للشرطة... كنت يائساً، لم أفه بكلمة.

والأميركي لا ترحموه، الأميركي لا ترحموه..

باللهِ لا ترحموه.. وباللهِ لا ترحموه وباللهِ لا ترحموه..

الأميركي لا ترحموه.. الأميركي لا ترحموه.. أرجوكم لا ترحموه.. باللهِ لا ترحموه.

نهض، الحفل انتهى، ارتدّ الجمع صامتاً، اتخذ الشبان طريقهم نحو الباب المفتوح على الخلاء وسواد الليل.

أغصان الأشجار تتمايل خلف السور، المعزّون ينصرفون متفرقين، وأهل الشهيد يتقبلون العزاء وهم يحبسون دموعهم، المقرئ يختتم تلاوته بالدعاء للشهيد.

استدركت بعد لحظات، كنت مع أمير الجماعة!! حاولت اللحاق به، كان قد اختفى مع رفاقه في الظلام.

١١

لا نكتشف معنى بعض الأشياء اللصيقة بنا إلا بعد كارثة، تخلف الفجيعة في داخلنا والدمار من حولنا. لم يشكل سامر بالنسبة إليّ الابن الذي يحمل اسمي، أو الابن الذي أنا مسؤول عن رعايته. إنما هو قطعة لا تنفصل عن روحي. كانت أمنيتي أن أراه يتفتح وينمو ويمضي في الحياة حاملاً معه قدراً من المبادئ لا معنى للحياة من دونها. هذا ما تمنيته في مرحلة التوقعات الكبيرة، حينها كانت الآمال بالحجم نفسه، بل وأكبر. أمنيتي لم تتحقق، وكانت من جملة إحباطاتي السعيدة.

كنت واحداً من الذين عاشوا خدعة التوقعات الكبيرة، وكانت في نهاياتها التي امتدت دون طائل. أثمرت تمنيات حسمت فيها الخسائر على أنها فترة عارضة. لم أعلم أن مشروع حياتي أخفق، أو شارف على الانتهاء، اعتقدت أنه تعثر أو انقطع مؤقتاً، وما حدث ليس أكثر من ارتكاسة سننهض لا محالة من بعدها أوفر

عزيمة، وأن للجماهير عودة قريبة إلى الساحات والشوارع، ريثما تسترد الطليعة دورها وتعيد تجميع صفوفها، لتقود المسحوقين من جديد إلى هجوم معاكس، أو شيء ما على منوال ما حقنتنا به الكتب المتفائلة الحمراء. كان من المستحيل أن نُقيّم ما حدث إلا على أن طهرانية الثورة قد تعرضت للخيانة.

وكان لا بد من مضي بعض الوقت لنستوعب أن الجماهير مسيّرة وغير مخيرة، وأن التاريخ يعاكسنا إن لم يكن ضدنا. كانت هزيمتنا شاملة وعالمية.

تلاه زمن، كان هروباً من ثوابت راسخة إلى ارتدادات انقلابية عشواء، كانت درساً متأخراً أدركت بعده أن الحرية أثمن من الخبز والعدالة، وأن التفاوت بين البشر حقيقة نهائية، ينبغي أخذها على محمل الحقيقة، لكي تحافظ الحياة على سيرها بطريقة مجحفة لئلا نسقط في الأحلام السعيدة والطموحات المسعورة. وأننا ما دمنا من القطيع، علينا ألّا نستقوي بالمساواة، وأن نعيد الاعتبار للاستغلال، بل وأن نؤمن به، وحده يمنح العالم خصوبته الفاسدة وحيويته الرعناء، لا سبيل أمام المغلوبين سوى التحسر والحسد، أو الجريمة والانتقام.

لم أكن مستاء، بل راضياً عن فكرة أن سامر لن يتنكب عناء ارتياد طريقي، ولن يعيد الكرة. كان على وشك التخرج من كلية إدارة الأعمال وعلى عتبة ممارسة مهنة تعد بحياة عملية ناجحة. حتى أنني عندما علمت بأنه كان على علاقة عاطفية بفتاة تصغره بأربع سنوات لم أعترض، المهم ألا يقتفي أثري في السياسة، وأن يختار مستقبله دونما أفكار مسبقة. وعدته بعقد خطبته عليها

عقب التخرج، أما الزواج فبعده بسنتين، ريثما نجهز له بيت الزوجية. بعدئذٍ لم يفاتحني بالأمر. كان يفكر على نحو يختلف عني، أراحني عدم طموحه إلى أن يكون نسخة مني، وطمأنني أكثر توقه إلى الانطلاق بعيداً، لكنه أفرط فيه إلى حيث لا يمكن تخيل أين شط به البعاد. المفارقة أنه تابع مشواري المشؤوم نحو الهدف نفسه: إنقاذ العالم؛ لكن على نحو آخر: إنقاذه من الجاهلية!!

كان ينبغي ألا أدعه للآخرين.

إثر سقوط قضيتنا، لم يخطر لي أن ما جمعني بنهى سيفرقني عنها. أمست نهى بحاجة إلى خصم، فكنت أنا رفيقها السابق خصمها الجديد. الهزيمة نكأت أسوأ ما لديها من طباع، فتضخم إحساسها بذاتها، وبالغت بقدراتها. باتت استقلاليتها لا تمس، وعلى حساب استقلاليتي، كانت تعترض على كل ما أقوم به، وترفض مشاركتي بأي شيء. كانت رغبتها في الهيمنة بلا حدود. لم أصطدم بها إلا بفعل تفاقم ترهاتها، ما أسهم بتحويل حياتي إلى مجموعة سخافات، وكأنني أنا المسؤول عن نكساتها، عوضت عنها بوساوس نسائية... بالتشكيك في تصرفاتي، واتهامي بأنني غير أهل لممارسة دوري كزوج وفاشل كأب، ورجل بلا مستقبل، في حين كان كلانا بلا مستقبل. كنت مطالباً بتفسير ما أفعله وتبريره، بينما كان ما تفعله لا يتطرق إليه الشك، ولا تجوز مناقشته.

بداية، لم أهتم كثيراً للتفاهم معها حول هذه الأمور، كان ممكناً تأجيلها، واعتبرتها مشكلة بالوسع تذليلها. لم أعتقد أن إعادة النظر

في حياتنا الزوجية قضية عاجلة، فأهملتها، وكان من الممكن التغلب على تقلباتها بمسايرة تغيرات بدت أسيرة ظروف عابرة، ولا عقبة في الاستمرار معاً بفعل ما كنا نحمله من أفكار مشتركة وإن أصبحت سابقة، تحول دون انفصالنا، كما لم يعد سامر وحيداً، كانت أخته ندى قد جاءت إلى عالمنا، وبعثت فيه رغم الاضطراب، الكثير من الرقة.

كنا بحاجة إلى ترميم ما أصابنا من وهن في داخلنا. لكن خلافاتنا الشخصية استفحلت مع الزمن، وتعسرت حتى لم يعد هناك مشاكل غيرها، ولا حل لها، هل هناك حل لأمور مختلقة لا قيمة لها يندلع من جرائها شجار صاخب لا نتورع فيه عن تمزيق بعضنا بعضاً؟! لم أعد أنا، وإنما شخص غيري، رجل مستلب يعاني ليل نهار من مشاكل تافهة صارت مستحكمة وتهددني على الدوام، مشاكل باتت أقوى من السياسة والأيديولوجيات والديموقراطيات والليبراليات... والتحولات بأنواعها، حتى وصلنا إلى طريق مسدود، وتفوق صراعنا المستميت والسخيف على صراع الطبقات. لا يعني هذا أنني لم أحس بالخطر فيما بعد، وأبذل جهداً لإصلاحها، لكنني كالمعتاد أخفقت، لم يتنازل الواحد منا للآخر ولو قليلاً. من قبل لم أتمكن من إقناعها بأن تكون زوجة عادية، مثلما من بعد لم أحاول مناقشتها باختيارات باتت مصيرية. وإذا كانت قد تغلبت عليَّ، فلأنها تاجرت بمشاعرها الأمومية واستطاعت أن تنتزع مني سامر وندى، وبمحض إرادتيهما، كنت الطرف الخاسر.

في قرارة نفسينا، كنا قانعين بما وصلت إليه حياتنا من عدم وفاق. فلم نتفاهم على شيء قدر تفاهمنا على هذه الخطوة. لم تطلب

الطلاق خوفاً من كلام الناس، مع أننا كثيراً ما سخرنا من هذا التعبير. لم تتوقف خلافاتنا، رغم أننا حافظنا على علاقة معقولة، كانت خارج العقل أحياناً. لكن بعد مضي الوقت تغلبت هي على العائق الاجتماعي، وأنا على العائق النفسي، ولجأنا إلى المحكمة الشرعية، واخترنا أسرع السبل انفصالاً، ولفظنا كلمات المخالعة، أبرأتها وأبرأتني من جميع العقابيل المادية، لكننا لم نبرأ من العقابيل الأخرى، وما كان أكثرها.

بعد انفصالنا رسمياً، كرست نهى حياتها لولديها، مع أنهما أصبحا في سن الرشد، ولم يعودا بحاجة ماسة إليها. ولقد أحس سامر وندى بالارتياح لوضع حد بالطلاق أخيراً لخلاف لا نهاية له يدور بين شخصين عزيزين عليهما يتشاجران حول أتفه الأمور لساعات طويلة وبلا جدوى.

المصيبة بعد عودتي من الدواسة، كانت في إبلاغ نهى، أن سامر غادر إلى العراق فعلاً وهو الآن موجود هناك، وأنا الأب لم يعد لدي ما أفعله. أما هي الأم، فحالها أفضل مني، تستطيع أن تضع رجاءها في الله، طبعاً لن أقول لها إنه لا جدوى من دعواتها، لأن الله هو الذي اصطفاه للجهاد.

كان وقع الخبر عليها سيئاً جداً، قلب شكوكها إلى يقين. لم أرها بهذه الحالة المرعبة من قبل، تتصرف بهيسترية مقيتة. فجيعتها كانت كبيرة، أكبر من أن تتحملها، لامست الجنون وهي تلوم نفسها. لم أشمت بها مع أنني كنت راغباً في ذلك، سامر كان تحت رعايتها وتقواه تحت إشرافها. خشيت أن تفقد رشدها خلال نوبات ثوراتها، أو ترتكب حماقة وتؤذي نفسها، اضطررتُ

إلى البقاء إلى جوارها طوال النهار، ريثما عادت ندى من الجامعة وشاركت أمها البكاء.

١٢

بات من العبث أن أعبّر للضابط مدير الفرع عن مكنوناتي. لم يكن ابني بالنسبة إليه سوى أحد المطلوبين الفارين. لن يتحسس مشاعري بانعدام أي أمل لدي برؤيته، ربما إلى الأبد. أو يتفهم مأساتي بفقدانه بالموت، وهو ما يزال حياً!!

قلت له باختصار، بأنني وصلتُ متأخراً إلى الدواسة، وعدت خائباً، وأنهيت كلماتي القليلة بكلمات أقل:

«لن أفيدكم، أو أفيد نفسي».

كان كل ما بوسعي فعله هو ألا أحرك ساكناً في انتظار هاتف قادم من وراء الحدود، يقول لي استشهد ابنك في عملية جهادية.

تنحنح الضابط وغمغم يريد أن يقترح شيئاً. لكنني قاطعته بانزعاج، وحاولت أن أعبّر له عما يعنيه ألا يكون لولدي وجود في هذا العالم.

«لن أظفر برفات له، أو فتات منه، ولا رماد».

هل كان الضابط معتاداً على اختفاء الناس من دون أن يتركوا وراءهم أثراً على وجودهم؟ ربما، لكنه وجد كلمة عزاء مناسبة.

«للأسف، خرج الأمر من أيدينا جميعاً».

لكن كان لديه الكثير مما يخبرني به، وقد اعتقد أنه على الرغم من أخباره المروعة سأكون أكثر ارتياحاً عندما أسمعها، كانت في أحد وجوهها بشارة سعيدة؛ سامر لن يقوم بعملية انتحارية.

«كن مطمئناً من هذا الناحية فقط، وهذا لا يجنبه المخاطر الأخرى، ما نحن متأكدون منه، أن أولوياته البقاء حياً لا مواجهة الموت!!».

السبب في تغيير الضابط لتقييمه السابق، اكتشافه أن الإخباريات التي تعاملوا معها كانت مضللة عن عمد، بعدما وصلته البارحة إخبارية متأخرة جداً، حصلوا عليها من أحد المعتقلين حديثاً؛ كان كل ما يخص سامر من تحركات عبارة عن تمويه، أعدت كي تبدو وكأنها إجراءات تجنيد شاب للجهاد وإرساله إلى العراق، قد ينجح في اجتياز الحدود أو لا ينجح، وربما قتل على الطريق. هذا ما دار على السطح، أما ما دار تحت السطح فغفلت عنه أجهزة الأمن كلية.

المعتقل الذي انهار في التحقيق، باح لهم بأكثر مما يتوقعون:

بُدئ بالتحضير قبل نحو ستة أشهر لبناء شبكة لوجيستية تعمل انطلاقاً من لبنان، تتخذ من سورية مقراً لها، تتوزع فيها الأدوار بين أمير للجماعة تتم مبايعته والالتزام بأوامره، ومُوَرِّد للمال

والسلاح، وجهاز تزوير يؤمن المستندات اللازمة؛ بطاقات هوية وجوازات سفر تغطي مختلف الجنسيات لضمان تنقلات الأفراد.

في هذه الفترة تمكن سامر من الاتصال بالقاعدة والذهاب إلى العراق والبقاء هناك لمدة تزيد على شهر، اجتمع بأكبر مسؤول عن القاعدة هناك؛ الزرقاوي على الأغلب، وخاض معه مناقشات عقائدية وشرعية وتنظيمية، وجرى الاتفاق خلالها على تقسيم سورية إلى إمارات خمس لكل منها أميرها وهيكلها التنظيمي، ويُعتقد أنه اتُخذ قرار بأن توكل إليه إمارة قاعدة الجهاد العامة في سورية.

لم تكن بشارة، كانت صدمة أخرى أطاحت بصوابي؛ اعترافات المعتقل لم ترحْني، زلزلتني على الفور، سامر ضالع بشيء لا يمكن تصوره؛ التنطع للعب دور قيادي... إمارة سورية!! القصة غير مقنعة، سواء بتضخيم دوره، أو اتصاله بالزرقاوي القوة الضاربة لمنظمة القاعدة في العراق، من يستطيع الوصول إليه؟! هذا إذا افترضنا أن له وجوداً.

«هل تعتقد أن الزرقاوي ما زال حياً؟».

كانت التقارير الأميركية قد أكدت قبل سنوات أنه قُتل في جبال السليمانية شمال العراق عندما قصفت طائراتهم مواقع أنصار الإسلام، ومنذ ذلك الوقت أصبح وجوده موضع شك كبير.

«الأنباء حوله متضاربة، إن لم يكن الزرقاوي فأحد أعوانه».

بدا وكأنه لا يريد الاعتراف بأن العراقيين أكدوا أنه نجا، كي ينفي ما أشيع حول إصابته ومعالجته في سورية، لم يشف تماماً، عاد إلى العراق بعاهة في قدمه.

لم أرغب في الخوض خصوصاً بأمر الزرقاوي، كان اسمه وحده يثير الهلع. لم يُدعَ بالأمير الذبّاح عن عبث، كان الملثم الذي يقطع رؤوس المختطفين العملاء أمام الكاميرات لتبث على الملأ. فكرت بسامر، خبرته محدودة جداً، لا تؤهله ليكون خلال فترة وجيزة عضواً ناشطاً وفاعلاً في منظمة القاعدة المنتشرة في أرجاء الكرة الأرضية، لا أحد بات يجهل أن القاعدة أصبحت قاعدات: قاعدة في أفغانستان، قاعدة في العراق، قاعدة في السعودية، وأكثر من قاعدة في أوروبا، أعلنوا جميعهم الحرب على اليهود والصليبيين وتعهدوا بالانتقام من المصالح الأميركية أينما وجدت. كان البحث جارياً عنهم في أرجاء العالم. قلت للضابط ساخراً:

«لا تقل لي إن سامر أصبح مطارداً من العالم كله!!».

«ربما أصبح لابنك دور كبير في ما صار يدعى بقاعدة الجهاد في بلاد الشام».

«يبدو أنك تتكلم عن شخص آخر، ليس هو ابني وإن كان يحمل الاسم نفسه، من هو حتى يتصل بالقاعدة، ويذهب إلى العراق خفية، ويقضي هناك شهراً، على أمل أن يتسلم منصباً كبيراً لا يعقل إسناده إلى ولد جامعي صغير السن».

«يظن الآباء، مهما كبر أولادهم، أنهم ما زالوا مراهقين».

ومع هذا كان ثمة خلل واضح في ما أخبرني به، وهو الزرقاوي نفسه، كنت أعتقد جازماً ألا وجود له. وإذا كان الكثيرون يلوّحون به، فلاستغلاله واتهامه بأشد العمليات دموية، حتى أن الأميركان أنفسهم تراجعوا وأعادوه إلى الحياة، وربطوه

بمجموعات متشددة في بقاع مختلفة في العالم مع إرهابيين عرب ناشطين في الشيشان وجورجيا، أو خلية في بريطانيا، وأخرى في فرنسا، وثالثة في إسبانيا، ورابعة في إيطاليا، وأكدوا ضلوعه في التخطيط لهجوم كيماوي، ما دعاني في العام الماضي إلى الكتابة عن حاجة أميركا وأوروبا إلى من يحلّ محل صدام المعتقل، ولهذا نشروا أخباراً عن الزرقاوي الوحش المرعب الذي يُهدد أوروبا بأسلحة التدمير الشامل، أوليس طريداً بساق واحدة يفر من دولة إلى أخرى لتفادي اعتقاله، إن كان ما يزال حياً.

هل كان الشخص المفترض أنه الزرقاوي بحاجة إلى سامر، فطلب منه القدوم إلى العراق؟ تمثيلية لن تجوز على الضابط، لكنه أشفق عليَّ كي يخفف عني فقدان ابني، وإذا كان قد هول من أمره وقدراته، فلكي يمنحني أملاً ضئيلاً.

سامر ذهب ليقتل ويُقتل، هل هناك أسوأ من مهمة كهذه يتطوع للقيام بها شاب غرير، طيب وساذج، الإيمان قسّى قلبه، بدل أن يُلينه، أيُّ إيمان هذا؟!

□ □ □

بلا تعقيدات تأجل مشروع زواجي بسناء، كان من المستحيل أن أتزوج قبل معرفة ما حلّ بسامر. هل كان موضوع لياقة اجتماعية؟ لا، كان الأمر عائداً إليَّ، الزواج ولو كان يخصني وحدي، لا أريد إيذاء مشاعر أولادي، كما لن أسمح لنفسي بترتيب أموري المستقبلية بمعزل عنهما، أردت إخبارهما بما أنا مقدم عليه، وبدا ليَّ أنني لو تزوجت في غياب سامر، أقطع رجائي من عودته.

عزمت على قطع إجازتي والعودة من حيث أتيت، بعد حصولي على وعد من ندى بتمضية عطلتها الجامعية نصف السنوية معي في دبي. حزمت حقائبي، مع أنني لم أفردها إلا لتوزيع الهدايا، إحداها كانت لسامر، تركتها لدى ندى، كنت واثقاً أن بصره لن يقع عليها، كانت عبارة عن ثلاثة مجلدات عن الفن المصري القديم، ماذا تكون الحضارة الفرعونية بالنسبة إليه سوى أنها حضارة وثنية؟!

حاول حسان مواساتي. قلت له، لا شيء ينفع.

سناء وقفت إلى جانبي، فكرتُ في الطلب منها اللحاق بي بعد أشهر، على أن نعقد زواجنا عقب وصولها، لكن متى؟! ليس بمقدوري تعيين الوقت المناسب. لم أقل لها هذا، كنت متردداً، وغير واثق من شيء، قدر ثقتي بأنني أؤجل كل شيء، بانتظار أمر ما، تمنيت ألا يكون خبر مقتل سامر.

وكأنّ نداءً خافتاً يهيب بي عدم التسرع بالعودة، لكنني لم أكن لأصدق أي نداء، إلا على أنه من فعل رجاءاتي، وكانت مستحيلة، ومع هذا طاوعتها. وقررت البقاء على مضض إلى نهاية إجازتي. استغللت الأيام المتبقية في إنهاء بعض الأمور المالية العالقة في دوائر الدولة، تسديد ضرائب، إنجاز معاملة فراغ، الحصول على براءة ذمة مالية...

ما جعلني مصمماً على إنهائها، اعتقادي أنني لن أعود إلى دمشق لبضع سنوات، ما دام الخبر الذي سيصلني منها لا يحتاج إلى جنازة.

١٣

عندما لم يبق سوى يوم واحد على مغادرتي دمشق، اتصل بي حسان، وأبلغني أن الضابط يريد رؤيتي اليوم مساء.

«هل لديه أخبار؟».

«شيء أكثر من هذا».

رافقني حسان، كان الضابط قد طلب منه أن يكون موجوداً.

لم يكن الضابط وحده، كان في انتظاري أيضاً، ضابط أميركي برتبة ميجور يلبس ملابس مدنية، قميصاً نصف كمّ أزرق اللون، سترة خفيفة وبنطال جينز، أقرب إلى الطول، تجاوز الأربعين من عمره، رياضي القوام، أبيض البشرة، أشقر الشعر، عينان زرقاوان، النموذج الشائع للأميركي الكلاسيكي. يتكلم الإنكليزية بسرعة لكن بوضوح شديد، فاجأني من فرط ما كان عملياً، ودخل في

الموضوع مباشرة:

«أقدّر وضعك كأب فقد ابنه في ظروف سيئة، لا تظن أني أحمل لك أو لابنك أية ضغينة، أفهمُ أنه أمر حدث بالرغم منك».

بعد أن انتهى من إبداء مشاعره، انتقل بسرعة إلى الموضوع الآخر:

«لا أجهل سير الأمور في المنطقة، إنه ليس لصالحنا ولا لصالحكم. أنا آسف لما تردّت إليه الأحوال بالنسبة لكلينا، علينا أن نعمل معاً ونفعل شيئاً، أرجو أن يكون جيداً، هل أنت معي حتى الآن؟».

أصغيت إليه باستغراب، وكأنني أمثل الطرف الآخر. قلت ببرود:

«إنني أسمعك جيداً».

«أدرك وجهة نظركم، لكن دعني أنظر إلى الأمور من وجهة نظري. إنها حرب خاسرة للجميع. لن نتوقف عند من هو المسؤول عن هذا الخراب. نحن نتشارك في ورطة، لن أبحث نصيب كلٍّ منا فيها. أعتقد أن الانسحاب يحل مشكلتنا، بصراحة هذا ليس رأي إدارتي، إنه رأيي. وأنا أشاركهم في نقطة واحدة؛ ترى من سيكون المستفيد؟ لا نحن ولا أنتم».

بدا وكأنه يتلو كلاماً محفوظاً عن ظهر قلب، لكنه ارتكب خطأ، هذا الكلام كان ينبغي أن يوجهه لمدير الفرع وليس لي. لكنه استطاع شد اهتمامي في اللحظات الأخيرة:

«أقول لك، حسب الصلاحيات المخولة لي، باستطاعتي مساعدتك، على أن تساعدني بالمقابل، هل أكمل؟».

كان المدخل المتأخر مذهلاً في إيقاعه السريع، فأومأت بالإيجاب، السؤال يبشر بأمر ما، وكأنني مدعو إلى تفاهم، دون أن أعلم على ماذا سوف نتفاهم. تساءلت:

«هل لهذا علاقة بابني؟».

«سمعت أن ابنك لن يكون انتحارياً ولا مقاتلاً. هل لديك تفسير؟».

خطر لي وبلمح البرق، مسايرته واعتبار أن المبالغات التي أحاطت بسامر شبه صحيحة، بل ومن المستحسن إعطاؤها أبعاداً أكثر واقعية، بخصوص أن القاعدة تعتمد على الدعاية، وبما أن سامر تخصص في إدارة الأعمال ـ قسم التسويق، فلا بد أنهم يريدون من يروج لأفكارهم وعملياتهم.

«أعتقد بسبب تخصصه في التسويق».

«هذا لا يكفي، إنهم لا يفكرون مثلنا، كما لا يكفي عدم قيامه بدورات تدريبية على إعداد المتفجرات أو تفخيخ السيارات، أو استعمال الحزام الناسف. الأمر أهم من هذا».

«سامر في الثالثة والعشرين من عمره، مؤهلاته للأسف لا ترقى إلا لما استبعدته».

«العمر غير مهم، المؤهلات المطلوبة مختلفة عما ذكرته».

«ألست تبالغ؟».

«حسناً، سأصارحك بماذا أفكر... أعتقد أنهم سيوكلون إليه مسؤولية كبيرة، لها علاقة فعلاً بما درسه في الجامعة، إدارة الأعمال، لكن أية أعمال؟! نحن نعرف أنهم يفتقرون إلى عقدة اتصال قوية وموثوقة تربط بين تنظيم القاعدة في العراق وسورية، منصب يحتاج إلى مقدرة على اتخاذ مبادرات فورية، وجرأة إلى حد التهور، عدا إيمان كبير بأفكار القاعدة. شاب متعلم، ذكي وصغير السن مثل ابنك كفء جداً لهذه المهمة».

كان يتكلم على نحو مشابه لما تكلم به الضابط مدير الفرع، فاعترضت:

«لكن بلا تجربة».

«سيكتسب التجربة خلال العمل، وهي لا تهم كثيراً، سيُضحى به إذا احتاج الأمر، تعرفهم ليسوا حريصين على الحياة. هذا العمل يلزمه نوع متشدد من التدين، مع قدرة على الإدارة والتخطيط، أعتقد أنهم اقتنعوا به... عموماً لا نعرف بالضبط كيف يفكرون، لكنها مجرد نقطة انطلاق».

«وما المطلوب مني؟».

«نحن نريده».

صدمت لأنني أدركت أن ابني أصبح مستهدفاً من الأميركان.

«لستم وحدكم، أكثر من جهة تريده».

أجبته كي أخفف الصدمة عن نفسي، وأنا أنظر إلى مدير الفرع، كانت كافية للضابط الأميركي كي يفهم أنهم ليسوا سوى طرف من عدة أطراف.

«نحن المعنيين أكثر من غيرنا، ولا خلاف مع الآخرين».

«هل هو في خطر؟».

«إنه بوضعه الحالي، بعيد عن نقاط الاشتباك، في وضع آمن أكثر من غيره».

لاحظ صمتي فتابع:

«سأعرض عليك صفقة، سنؤمّن لك السفر إلى العراق والإقامة هناك، ونبحث عنه معاً، نريدك أن تعود به سالماً إلى سورية. إنها عملية تحتاج إلى جهدك كأب».

«وما الضمانة؟!».

«نريد الحصول منه على معلومات، التحقيق الرئيسي سيجري هنا في دمشق، ويقوم به محققون سوريون».

لكنه لم يطمئني، إذا كان التحقيق هنا، فلا يستبعد أن يكون الأسوأ.

«لا تتصور لحظة أن يخون أب ابنه ويستدرجه لكي يسلمه للتعذيب والموت، بصراحة: أُفضل أن يُقتل».

«لن يصيبه أذى، إذا قدم معلوماته كاملة».

«ماذا لو حكم عليه بالإعدام؟».

«سنعقد معك اتفاقاً ملزماً للجميع دون استثناء، لقد حصلنا على موافقة الطرف السوري».

تدخل مدير الفرع قائلاً:

«على أن تتم العملية حسبما خطط لها. أنت تريد ابنك، ونحن نريد معلومات، العفو أمر لن نتنكر له».

كان لديه تعليمات بهذا الخصوص من مصادر عليا، وهو يعمل طبقاً لها.

انتهزتها فرصة وصارحت الأميركي:

«أنا على خلاف معكما، أعتقد أننا لسنا بصدد الشخص نفسه، لدي شكوك في أن يكون ابني. ومهما كانت النتيجة، فهل يبقى قرار العفو سارياً؟».

وافق مدير الفرع والضابط الأميركي على أن الاتفاق يشمله مهما كانت صفة سامر، مقاتلاً أو انتحارياً، وربما أميراً، وسواء كان لديه معلومات، أم خالي الوفاض منها.

«حسناً، سأفكر بالأمر».

«ليس طويلاً».

حذرني حسان، القرار ليس سهلاً، والخطر الذي سيقع عليك أكثر مما سيتعرض إليه ابنك، العملية غير مضمونة تماماً، أشبه بتجربة سيقع عليك لو أخفقت دفع تكاليفها الباهظة، ثمة أمل ضئيل إذا خدمتك المصادفة. يعتقد الأميركان أنهم قادرون على كل شيء، لكن إخفاقهم الذريع في العراق، أظهر أنهم يتخبطون وغير قادرين على شيء.

كنت أفكر بأنها فرصة لي لا تقدر بثمن، قلت لحسان:

«هل أستطيع الثقة بالأميركان؟».

«عادة يتقيدون بما يعقدونه من صفقات».

«لكن علاقات سورية بأميركا خاضعة للمد والجزر».

«على الرغم من الخلافات السياسية، التعاون الأمني قائم بينهما وإن كان في حده الأدنى، لا تنس في هذا الاتجاه لديهما عدو مشترك. أميركا تخشى الإسلاميين، يريدون تفجيرها، ونحن نخشى من تحول نشاطاتهم إلى الداخل السوري».

١٤

للوهلة الأولى بدت مهمة العمر، لن أنقذ ابني فقط، بل سأنقذ غيره أيضاً، وربما بشراً لا حصر لهم، عرباً وأجانب، أغلبهم أبرياء.

عندما كتبت عن الإسلام السياسي، خُيل إليّ أنني اضطلعت بمهمة إسعافية، أو خيرية... بالتحذير من خطر قادم، أو الاحتياط من حماقة مهلكة. أمنية تخالط الذين يظنون أنهم مكلفون بأمانة عليهم تأديتها قبل فوات العمر والفرصة، وهي فكرة من رواسب مرحلتي الاشتراكية المثالية، غدت في هذا الظرف مواتية لمأساتي الشخصية، فبدا لي ما أردت القيام به عملاً ذا طبيعة إنسانية تتجاوز جنسيات الأشخاص، ما دام بينهم عرب وأميركان وإيطاليون وإنكليز وأتراك ونيباليون وكوريون... لن أكمل، الغطاء الإنساني ليس كافياً.

ما الدافع الذي دار في أعماقي؟

لا، لم يخطر لي الإقدام على فعل مثالي، ولا السعي وراء مغامرة. ليس في العمر متسع لهذه الرفاهية النضالية، ولا العقل يسمح بهذه الانتهازية البطولية. أردت إنقاذ شخص، كنتُ السبب، ليس في ذهابه إلى هناك فقط، بل وفي وجوده في الحياة أصلاً. ألا ينبغي التكفير عن خطأين؟ وإذا كنت سأذهب إلى الجحيم من أجله، فعزائي أنني سأكون السبب في عودته منه.

أنا لم أقدم شيئاً لسامر، تركته فريسة لأفكار مميتة، وإلا فماذا تدعى مقاومة عشوائية بهذا الهول، سيارات مفخخة، عمليات انتحارية، قتل عائلات آمنة... تستمر على هذه الشاكلة الهمجية، وأصبحت تعني كل شيء لشاب في مطلع حياته، والتبست بعالم استُدرج إليه، عالم غيبي يقبع في تمنيات الوهم. أين تقع الجنة سوى في خيالات المؤمنين؟! عندما ناضلنا ضد الإمبريالية، جاء مَنْ وعدنا بعالم أفضل. وكانت النتيجة عالماً أسوأ. لم نحصل على جنة فوق الأرض؛ بل تحتها، في القبر، جنة العدم.

□□□

فلأتوقف، كفى.. الشرود وحده يسوّغ لي ما لا يسوّغ.

هذه الذاكرة قد تطلق شياطينها.

.... كانت التداعيات قد سحبتني من الحاضر البارد الخالي من الأحداث، وارتدّت بي من جديد إلى زمن أخشاه، وقفت على أبوابه، زلّة واحدة وأنزلق إلى داخله، وأزجّ في أتون عالم انطوى،

لماذا أسترده من الماضي؟ وهل بإمكاني التحكم بنفسي وألّا أتابع الشرود نحو ما لن أفلت منه. أقول قبل أن أغلقه على ما فيه: هذا الشقاء، ولست أتكهن، انتقام من الخذلان لا من النسيان. لا أجهل مخاوفي مما أحاول تجنبه، ليت الحيلة تسعفني لو خانتني الجرأة. قلت لحسان:

«ليس بوسعي الاستمرار، لا قدرة لي على تحمل خبايا الذاكرة».

«لا أقرك على الهروب. يريدون معرفة ما حدث تماماً، تقرير الأميركان عما حدث معك في بغداد، لم يكن كافياً».

كنت قد فقدت صلة الوصل مع المشهد الذي يليه، ومع هذا حاولت:

«من كان الضابط الأميركي الذي اجتمعتُ به؟».

«الميجور ريتشارد ميللر».

«يبدو أن علاقتنا أصبحت وثيقة».

«لا أدري إن كانت وثيقة، لكنها لم تكن سيئة».

«حدثني عنها قليلاً».

... زودك الميجور بجواز سفر أجنبي يحمل اسمك تحت صفة رجل أعمال أميركي من أصل عربي، ممهور بتأشيرة دخول إلى الأراضي العراقية، كواحد من ممثلي الشركات الأجنبية، جاء إلى بغداد لاستجرار عقود توريد مواد غذائية للجيش الأميركي.

أما عمل الميجور حسب علمنا، فكان التأكد من حسن تنفيذ شركات المقاولين المدنيين للأعمال المتعاقد عليها، ومطابقتها المواصفات المطلوبة. طبعاً هذا لم يقنعنا بسبب تنقلاته بين بيروت ودمشق وطلبه منا معلومات لا علاقة لها بعمله.

«أنت تعرف الكثير».

«لا. ليس كثيراً، لكننا لم نعلم عن مهمته الأخرى سوى نزر يسير، وكانت سرية، وهي قيادة وحدة من المرتزقة والجنود الأميركيين المدربين على العمليات الخاصة، لمواجهة عمليات الخطف واحتجاز الرهائن. أتيح لنا معرفتها مع غيرها، بسبب ما أثير حول نشاطاته من لغط، وما أحيطت به من تكتم، حتى أصبحت هناك قضية عرفت بقضية ريتشارد ميللر».

«هل لي علاقة بها؟».

«لا أظن. لكن الاتفاق معك كان مرتبطاً بهذه المهمة السرية».

لم أقل له إنني أريد أن أنسى. قلت له، أنا متعب.

ترى ما الذي تعنيه التفاصيل، سوى الإنهاك العقلي لا الإرهاق الجسدي، والعذاب المقيم لا الألم العابر؟

«كانت عبارتك الأخيرة، قد لا أعود».

«لا تقل لي إنني كنت انتحارياً».

«لِمَ لا؟ ذهبتَ إلى بلد، الموتُ لا يستثني فيه أحداً».

«يبدو أنني جازفت».

«جازفتَ كثيراً، كان العراق في ذلك الوقت يجتاز أحلك أيامه».

عراق بلا ديكتاتور، الرئيس المخلوع صدام حسين رهن الاعتقال والمحاكمة، مهدد بحكم لا بديل عنه؛ الإعدام. وحزب البعث الحاكم أمسى مطارداً. حرية مطلقة تحت سيطرة قوات التحالف الأميركية البريطانية في بلد أصبح الأشد خطراً في العالم.

المقاومة التي بدأت ضد قوات الاحتلال باتت على الهامش، بعد أن أثمرت حروباً أهلية دموية يومية، السنّة ضد الشيعة، العرب ضد الأكراد، والأكراد ضد التركمان... الجميع ضد الجميع؛ يتدخل فيها الأميركان والإنكليز والإيرانيون والأتراك ودول الجوار من العرب... ورجال استخبارات دول غربية لا يغيب عنهم الموساد الإسرائيلي. وبغداد العاصمة أمست تحت رحمة عصابات السلب والنهب والخطف، بينما الميليشيات المتقاتلة المسلحة بالأحقاد والكراهية والارتباطات المشبوهة حولت البلد بالتآزر مع فرق الموت إلى ساحة صراع طائفي، يذرعون الشوارع ليلاً ونهاراً، يتبادلون النيران والكمائن وقذائف الهاون والاغتيالات. الدولة مشلولة، لا حكومة قادرة، لا مؤسسات أمنية فاعلة، الجيش مسرح، مئات آلاف العسكريين والموظفين ورجال الأمن بلا عمل. أحزاب تنمو كالفطر، بلغ تعدادها مائة وخمسين حزباً!! يرغب كل منهم في اقتطاع الحصة الأكبر من الوليمة الثمينة، أطراف الحكومة يتبادلون الاتهامات وتدبير المكائد.

«لا، لم تكن تجهل ما أنت مقدم عليه».

.... من جانب آخر، أحسنتَ التصرف مع زوجتك بإخفائك الحقيقة عنها، لكي لا تأمل كثيراً، وتجدد فجيعتها. قلتَ لها، سأعود إلى دبي ولن أطيل غيابي. بينما صارحت ابنتك بحصولك على تسهيلات تسمح لك بدخول العراق، ربما نجحت بالعثور على سامر، وهو أمر لا ينبغي لأحد أن يعلم به. تأثرت وتمنت لو تمنعك، كانت لا تريد أن تفقدك أيضاً، فوعدتها ألا تعرض نفسك للأخطار. كذلك أعلمتَ سناء بحقيقة سفرك.

قلتُ لسناء، لا تفهمي الأمر على أنني آثرت ابني عليك.

قالت، لا يحق لي الاعتراض على مشاعرك الأبوية.

قدرتْ إحساسي بالمسؤولية نحو ابني، ولم تثني عما اعتزمته.

«هل كانت خائفة عليّ؟».

«الذهاب إلى العراق لم يكن نزهة، حتى بالنسبة إلى جيش مدجج بالصواريخ والبوارج والطائرات».

لم أفهم تماماً كنه العلاقة التي ربطتني بسناء. هل نشأت عن حب، أم عن حسابات؟ الحب عاطفة ليست مقنعة ولا دائمة لمن هو في عمري، بعد تجربة زواج طويلة، أثبتت أنه إحساس مخادع لا يعول عليه، ولا الركون إليه. وإذا كان عن حسابات، فلا أسف عليها، الحسابات نفسها اليوم تبعدني عنها، هل هذا نوع من التواطؤ مع ذاكرة مغلقة، أم أنا رجل حذر، وناضج على نحو سيئ؟

كانت، كما أحببت أن أتخيل، علاقة عقلانية هادئة بين شخصين يحتاج كل واحد منهما إلى رفيق، يساعده على الوصول إلى نهاية الطريق بأقل قدر ممكن من العناء. ماذا تكون الحياة بالنسبة إليّ سوى أنها على وشك الانتهاء، وهذه السنوات الأخيرة مهما طالت وامتدّت، فلا تتسع إلا للقيام بأعمال غير مجهدة مع فسحة من الهدوء والتأمل، تساعد على تجرع مقادير ضئيلة من النكد، وعدم الاكتراث ببعض العادات السيئة التي لا خلاص منها.

كنت في منتصف خمسينياتي، في سن لا ضمانة أكيدة فيها ضد موت مفاجئ، أو مرض ميؤوس منه. وما حاولته ليس إلا الإعداد لنهاية معقولة، لا تضيرها بضع تفاهات لا تشغل البال، وأحزان في الحد الأدنى، وفجائع أكيدة لابد منها، حتى لو زادت على هذه العيارات، مصائبي السابقة ستجعلني أكثر احتمالاً لها.

أو، وهذا لا ينبغي استبعاده، ارتبطت معها بعلاقة جنسية، أحالتها كما تفترض معظم النساء، إلى علاقة عاطفية، ما دام الجنس يبرر ادعاءات العاطفة. هل كانت هذه لعبتنا، أم نقيضها؟ وإذا كنت الآن أحاول تصحيح ما سلف مني من دون تحديد، فلأنني أريد أن أشعرها بأنني لا أكنّ لها مشاعر مماثلة، أو على الأقل أكنّ لها مشاعر أجهلها ولا أدري عنها شيئاً. سناء بدت غريبة عني، لأنني كنت غريباً عنها، ولم يكن عجيباً أنها أخفقت في التقرب مني، وآلمها هذا الجفاء والتجاهل؛ إلا إذا كان عزاؤها حباً بلا ألم، ليس حباً. كان صمتي حاجزاً بيننا، بل وأصبتها به. لا أحس نحوها بأي نفور، مجرد أنني لا أرغب في أن تحتل مكاناً في ماضيّ، كي لا تشدني إليه.

لم أستطع مقاومة نظراتها الحادة، ترمقني من بعيد، وترثي لي، ما الذي فيّ يستوجب الرثاء؟!

«هل أنت متأكدة أننا كنا في سبيلنا إلى الزواج؟».

«لا تدفعني إلى الشفقة عليك».

«ما الذي يجمع بيننا؟!».

«كل شيء ولا شيء».

وتركت الخيار لي.

□□□

لم أكن مخيراً، كنت كما أحسست لحظتها، مكبلاً بذاكرة ممتنعة عني، وتتحايل عليّ، تُخفي وتُظهر ما ترغب فيه، وأنا أسير ما تسمح به، أو تمنعه عني.. سخية بالتمويه، وبخيلة بالوقائع. وفي الحقيقة، كنت لها بالمرصاد، وتصديت لها بكل قواي، لم أرغب في إيجاد مكان لأحد في حياتي، رغبتي الأكبر إخراج الجميع منها. دونما أي إحساس بتأنيب الضمير.

هم أيضاً كانوا لي بالمرصاد، صديق بلغ به الإلحاح حد الحنق وهو يستحثني على المضي قدماً نحو الخلف، وزوجة بحاجة إلى من يسري عنها ويكفكف دموعها، وابنة تراقبني بحيرة، وإلى جواري امرأة تأتي كي ينفد صبرها. انتظارهم يرهقني، أعرف لا يجوز أن يطول صمتي، عليّ أن أبذل جهداً، لا أطيق بذله، وفي الوقت نفسه، أرغب في اختراق ما يحجب ذاكرتي عني، وأتمنى

ألا أنجح، صورتي غير مشجعة في عيوني، وإذ أتأملها... كانت ملائمة لمأساة رديئة ورخيصة، ماذا تكون غير مأساة غامضة لرجل بليد ورعديد، أصيب بفقدان الذاكرة، ولا يجرؤ على استعادتها. إلى أين تأخذني هذه الميوعة؟

لا أستطيع تحديد ما اقترفته بحقهم، هل فقدت ذاكرتي رغماً عني، أم أنني اتخذت موقفاً منها، وقمت بإجراء عطّلها من العمل؟ ماذا تدعى هذه الحالة: فقدان الذاكرة الإرادي!! إذا كان هذا ما حدث، فلكي أكون دقيقاً، ليس عن سابق تصور، بل عن تصميم. لا أقول إنني سأتغلب عليها، أو سأتخلص منها. ليس هذا هدفي، ولن يكون. وإنما أريد معرفة ما الذي يعنيه هؤلاء الأشخاص القلقين من أجلي، لا يبخلون عليّ بالرعاية، ويتحملون سخافاتي. لاسيما هذه المرأة التي يشق عليّ انتظارها.

١٥

الستائر مفتوحة على سماء قاتمة؛ أقبل الخريف، فصل الغيوم العابرة والأمطار المتفرقة. الإضاءة خافتة تساعد على الكآبة، لا النوم. المآل هذا هو، مضطجع على السرير، نصف مريض، نصف جريح، نصف ملتاث... وحيد ترعاني في وحدتي امرأة حزينة، كادت أن تكون زوجتي الثانية، لولا، لولا ماذا؟!

سئمت الفراغ والوحدة، والتقاط مشاهد سواء جرت أو لم تجر، لا تهمني، إنما التساؤل، لماذا أنا فيها؟ قلت لها:

«أنا على شفا الاختناق. أريد أن أعرف، مهما كلفتني هذه المعرفة».

«ما تحاول الهرب منه لا يستحق كل هذا التشنج، ما دام سيحدث لا محالة في يوم ما قادم، ليس ببعيد».

«أدرك أنني مدين لكِ بالكثير، رغم أنني أجهله».

قال حسان، هل تريد أن نساعدك، إذن تعاون معنا قليلاً.

«لا أدري، لكنني سأحاول».

«قبل مغادرتك دمشق، وعدتَ سناء أن ترسل لها رسائل بالبريد الإلكتروني. الرسائل كانت موجزة، لم تشر إلى أشياء تلفت الانتباه، فقط لتطمئنها عنك؛ لم تخلف وعدك، رسائلك احتوت على بعض الأمور الواضحة وغير الواضحة».

شجعني حسان على قراءتها، ربما ساعدتني على التذكر.

جاءتني سناء برسائلي الإلكترونية مطبوعة على الورق، مرتبة بالتسلسل حسب زمن ورودها إليها. وضعتها أمامي، وكأنها تقدم إثباتاً على شخصيتها وماضينا المشترك وثقتي الكاملة بها. وهي تقول عاتبة:

«كتبتَ رسائلك إليَّ أنا وحدي».

قلَّبتُ الرسائل، وكانت مرتبة حسب ورودها، موجزة جداً، تبدأ عادة بـ«عزيزتي سناء»، وتُختتم بتحياتي إلى معارفنا المشتركين، أحياناً مع قبلاتي الحارة، وأحياناً أخرى أنهيها بجملة تعبر عن افتقادي إليها.

وكأنّ شيئاً انتهى، وشيئاً آخر سيبدأ، مهما كان نوعه، محتملاً أو غير محتمل، مؤسفاً أو غير مؤسف، لا بد أن ألتفت نحو الماضي، ولو كان مؤلماً، وأستعيد تلك الذكريات، مهما بلغت مرارتها.

لن أتنبأ، سأمضي قدماً. وإن انتابني الضعف، ربما لأنني واجهت شخصي الآخر، وكان متحيراً وعنيداً، مصمماً ويائساً، فقررت أن أعرف، مع أنني لم أكن بهذا العزم ولا الإرادة. عزمت على تجاوز كل ما ظننت أنه ممنوع أو محرم، وما اعتقدته مخاوف!!

لا، لم تكن لديّ هذه الحسابات. ماذا كانت إذن؟!

شعرت بشيء يتفجر في رأسي، كان صدىً لانفجارات أخرى، ألغام مزروعة في الذاكرة، كانت موقوتة، وحلَّ زمنها؛ تتوالى من حولي دون صوت وتصم أذنيَّ، ترسل الدخان، ولا تخفي الأشياء، تخلف مشاهد ليتني لم أرها.

لكنها لم تغادرني حتى تعود. إذاً لماذا خذلتني الرؤية؟

الجزء الثاني

اليوم بَعُدَ بي الزمن عما جرى، وبات ما يفصلني عنه، مسافة لا تقاس بالأيام ولا بمئات الكيلومترات. عدا أنني أشحت ببصري بعيداً عنه، وظننت أنني تخلصت منه.

لم أتوقع الكثير مما تضمه رسائلي؛ لكنني شعرت عندما قرأت سطورها الأولى، أنني هوجمت على حين غرة، وحوصرت وحيداً مع هواجس لا أدري عنها شيئاً، سوى أنها متشائمة. لحظتها تهتكت دفاعاتي.

ترى ما السبب المنطقي الذي تحكم بي وحرضني على استعادة ما خفي حتى عني؟! سأفترض أنه الرسائل، هذا أقرب ما يمكن الاستناد إليه، وإن كان ليس أكثر من ادّعاء أدعيه، لا شيء يجعلني متيقناً، سوى أنني مضطر لاعتماد أمر يبرر تورطي فيها.

المذهل، ما نجم عن قراءتها من تدفق هائل للذكريات دون بذل جهد في استدراجها، لم تفتقر إلى هموم ثقيلة، ليتها كانت مميتة، أيضاً بعض الأوهام، وكانت أكثر من أوهام.

رسائل من بغداد

الرسالة الأولى

(وصلت بعد الظهر إلى بغداد. استغرقت الرحلة ساعتين بالطائرة.

الرحلة مريحة، لم أصادف ما يزعجني.

نزلت في فندق الرشيد الواقع داخل المنطقة الخضراء، وهي منطقة آمنة تماماً.

لن أطيل عليكِ، ليس كل ما يُشاهد ويُسمع عن الوضع في العراق صحيحاً، لا يخلو من مبالغات إعلامية، أكثرها أقاويل وشائعات.

بغداد على الرغم مما أصابها من دمار، ستتعافى قريباً.

ليلاً، عكر الهدوء دوي انفجار بعيد.

لكن لا شيء يبعث على القلق).

□□□

لم أكن صادقاً في رسالتي الأولى، المبالغات والشائعات أقل من الحقائق التي تسعى قوات الاحتلال لإخفائها.

أما بغداد فربما لن تتعافى أبداً، وإذا حدث فبعد سنوات طويلة، لم تعد حاضرة الدنيا، التي قرأنا عنها، ولا كعبة المجد والخلود، أو قلعة الأسود كما في الأغاني وبلاغات حكومات الانقلابات العسكرية، وبيانات الانتصارات المظفرة، على وقع الهزائم الدورية. كانت مجرد مدينة منكوبة، والأسوأ أنها ما زالت ترزح تحت وطأة الذهول.

اضطررت للكذب، كي لا أحرك ظنون سناء في الاتجاه السيئ، وكان هذا وارداً، أنا في ساحة معركة، والموت مصادفة شائعة، وأيضاً لدواع أمنية. الاحتراس مطلوب، ربما وُضعتُ تحت الرقابة، لا ينبغي استثارة شكوك أية جهة في المنطقة الخضراء، سلطة التحالف، الحكومة المؤقتة، أجهزة الأمن، الأحزاب المتعاونة مع الأميركان، وكانت بالعشرات، ولديها رجالها؛ وأجهزتها السرية، وجواسيسها، لا تدري من يراقبك أو ما قد يعتقده عنك.

هذه المخاوف تلاشت سريعاً، وحلّت محلها أخرى لا تقلّ عنها؛ الفوضى والخوف لا يتيحان لأي من تلك الجهات المراقبة الصبورة ولا التأني، كان ما يشغلهم، اتخاذ المزيد من الاحتياطات والمبالغة في الحذر.

«لا يمكنك توقع ما قد يصيبك من جراء خطأ غير مقصود، أو ارتباك بسيط».

نبهني الميجور ميللر، منذ عشرة أيام، قُتل شاب عند حاجز

الدخول، كان يتجادل مع الجنود، حاول إخراج هاتفه الجوال من جيبه، ظن القناص أنه سيرمي بقنبلة، فأطلق عليه النار. قال ذلك معلقاً على منظر القناصين المنتشرين أعلى الأبنية؛ وأردف، أي شيء تافه قد يثير شكوكهم، ولن تكون ردة فعلهم سوى الضغط على الزناد.

كان منظرهم مثيراً، وهم يسددون فوهات بنادقهم السريعة الإطلاق، وأعينهم مشدودة الى المناظير الدقيقة ترصد كل حركة؛ كنتُ في الهدف تماماً.

كان لا بد من طمأنة سناء.

□□□

ولا بد أيضاً، وقد تذكرتها، أن أستعيدها!!

هل بوسع المرأة التي أعادتني إلى الحياة مرة، أن تعيدني ثانية؟

دهمني إحساس ثقيل بالذنب. ما الذي انتابني بعد عودتي إلى دمشق، حتى نسيتها كلية؟! كان ينبغي استثناؤها من دوامة عاتية وقاتمة، طحنتني وكادت ألّا تبقي عليّ. هل وجدتُ طريقي إليها، أم تسللت خلسة إلى مواقعها في حياتي؟ لا، عثرت عليها في مكانها الذي لم تبارحه، كما تبدو الآن، جالسة على الصوفا وقد طوت ساقيها تحتها، تلبس بلوزتها الخفيفة التي اشتريناها معاً من شارع الحمراء في أوائل الصيف، منهمكة بوضع الطلاء الأحمر على أظافر أصابع يديها، ترفع رأسها، وتتأمل بعينين شاردتين زرقة السماء من خلال النافذة.

هذه هي المرأة التي أحبها.

تكامل حضورها في وجودها الصامت وأشيائها المبعثرة في الشقة، معطفها معلق على المشجب، حقيبتها فوق الترابيزة، وإلى جوارها زجاجة المانيكور والآسيتون، وكتب وأوراق وقلم حبر جاف، وبجانب الباب حذاؤها الأسود ذو الكعب الواطي.

نهضت من مكانها، اقتربت من النافذة، ثم ارتدت إلى الصوفا، جلست شاردة، تناولت ورقة أسندتها إلى كتاب، وأخذت تكتب. رفعت بصرها صوب النافذة، تقرأ شيئاً سُطِّر على صفحة السماء، ثم التفتت نحوي، وتابعت قراءته على وجهي، كانت تكتب الشعر. هل ألهمتها مأساتي بشيء؟

لا أرى أشياءها فقط، وإنما هي بأوضاعها المختلفة؛ في المطبخ حول خصرها المريولة، في الشرفة تروي أصيص أزهار البنفسج، وفي السرير تشد اللحاف إليها وتتثاءب.

ها هي تقف وتتأهب للذهاب، المسافة تتقلص بيننا، تصبح قريبة مني، أمسكت بيدها وقلت:

«ثمة مشاعر تتغلب على النسيان».

كانت رغبتي فيها شديدة، ولم تكن رغبتها أقل.

طوال سنتين، لم يبتعد أحدنا عن الآخر طويلاً، كنا على موعد دائم. أطول مدة فارقتها فيها، الأيام العشرة التي قضيتها في دبي، وكنت أتصل بها من هناك يومياً.

قبل سفري إلى بغداد بأيام، باغتتها الوساوس، أيقنتْ أنها ستفقدني، كانت قد وقعت تحت تسلط فكرة أنها لم تخلق لتعيش بهناء، وأن حياتها على تضاد مع السعادة. راودها أنني مهدد بالأخطار، وأن علاقتنا ستنتهي نهاية مؤلمة. لم أكن مرتاحاً لهذه التصورات ولا لهذا التعلق، كنت على وشك أن أصبح مرضها المستعصي.

أخبرتها أنني سأرافق الميجور ميللر إلى بيروت، كي أتسلم من السفارة الأميركية جواز سفر أميركياً يحمل اسمي، ضمن عملية تمت بترتيب مع واشنطن، ستوفر لي حماية أكيدة في بغداد، والإقامة في فندق مريح من دون التعرض لأي متاعب. وتم تحديد وقت المغادرة بعد نحو أسبوع، اتفقنا على ألا نفترق طوال هذه الفترة.

لكن في السفارة فوجئ الميجور باضطراره للمغادرة حالاً، إن لم يكن اليوم فغداً، إثر تلقّيه خبراً عاجلاً يحثه على العودة إلى بغداد فوراً. كان بوسعي اللحاق به فيما بعد. لكنه نصحني بمرافقته، الظروف تتغير من يوم لآخر، وقد يصبح دخولي إلى العراق مستحيلاً. فطلبت منه إمهالي إلى صباح الغد. رجعت في اليوم نفسه إلى دمشق، لملمت حوائجي الشخصية في حقيبة صغيرة، وأخبرت حسان بما حصل، واتفقنا على ألا يُعلم أحداً عن مكاني، بينما تسارعت شكوك سناء من جراء سفري العاجل، أقنعتها بأنني لم أكن أعلم به ولا مستعداً له، ومغادرتي اليوم أفضل من بعد أسبوع. ولكي أخفف من مخاوفها، وعدتها بالكتابة إليها من بغداد؛ رسائلي ستكون دليلاً على أنني في صحة جيدة، كي لا أقول لها، البرهان على أنني ما زلت على قيد الحياة.

في السادسة صباحاً انطلقنا من مطار بيروت على متن طائرة نقل صغيرة، بعد نحو ساعتين كانت تحلق عالياً فوق مطار بغداد. من وراء زجاج النافذة، رأيت نهر دجلة يتعرج شاطراً المدينة. أحصيت ثلاثة أعمدة من الدخان، كان سببها حرائق أصابت بعض الأمكنة بفعل صواريخ أو متفجرات.

دارت الطائرة في الجو عدة دورات بشكل حلزوني استعداداً للهبوط، لم تكملها، برج المراقبة أبلغ الربان عن تعرض مهبط المطار لهجوم بمدافع الهاون من المتمردين. فاضطر إلى تحويل طريقه والهبوط في مطار عمان بالأردن. عدنا بعد أن تم إصلاح المهبط. استغرقت رحلتنا ما يزيد على ثماني ساعات.

لم يفلح الوقت الذي أمضيته مع ميللر بين دمشق وبيروت، في إحداث تقارب بيننا، غير أن الساعات الثماني التي قضيناها معاً في الطائرة نجحت في كسر الجليد بيننا وأحدثت تقارباً لا يمكن توقعه. كان الميجور أكثر مني إقبالاً على الكلام والإفضاء بما في دخيلته. ولقد جاريته مع أنني كنت متحرزاً. انتهت رحلتنا ونحن أصدقاء، لم أتوصل إلى هذا وحدي، كان هذا رأيه أيضاً، فسره بأنه يفتقر إلى صديق، جميع هؤلاء الذين يعمل معهم، اقتصرت علاقته بهم على العمل فقط، فاستغربت أكثر.

لم يُخفِ تقديره لجرأتي. عندما رآني في باحة مطار بيروت، اعتقد أنني سوف أرجع قبل صعود سلم الطائرة، لم يظن أنني بهذا التصميم. وإن كان إعجابه لم يخل من تلميح، إلى كوني أجهل حقيقة ما يجري في بغداد ، معلقاً على الأوضاع فيها بأنها

أسوأ مما يُعرض في نشرات الأخبار، أو حتى مما يرشح عن التقارير السرية.

قلت له، مهما ساءت الأحوال، فلن أتراجع.

عقّب بأننا نتشارك في بعض الأشياء، مثلاً تقديسنا للأسرة والحفاظ على تماسكها، وهذا واضح من سفري بحثاً عن ابني. لم أقل له إنني كي أحافظ على أسرتي، لم يكن هناك مفر من تمزيقها.

ترك ميللر زوجته وأولاده في بيتهم بكاليفورنيا، كان يراسلهم يومياً ويطمئنهم إلى أحواله، يعرف أنهم قلقون عليه، فيحاول ألا يأتي على ذكر ما يفعله في هذا البلد البعيد، يكفي ما يسمعونه عن الحرب في القنوات التلفزيونية. أما ما يرسله إليهم من أخبار، فشكواه من أوجاع المعدة ومتاعبه مع الطقس الحار... لا يستطيع أن يبوح لهم بأكثر، يؤكد لهم أنه يمارس القسم الأكبر من عمله الإداري خارج العراق، في الأردن وبيروت ومؤخراً رحلته إلى سورية.

أظهر ميللر تعلقه بأولاده، لم يخف عني اشتياقه الجارف إليهم. تحيرت من أنا حتى يثني أشواقه الخاصة نحو عائلته!! برز السؤال من نظراتي. ولقد لاحظه:

«متاعب الآباء متشابهة».

قالها كأنه ينفي أننا من بلدين مختلفين، وأنه ضابط في جيش احتلال، وأنا قادم من بلد مهدد من جيشه بالذات؛ وإنما جيران في شارع واحد، يعانون المصاعب ذاتها.

عدم اهتمامه بالفوارق الشخصية بيننا، كانت تمهيداً لإزالة بقية الحواجز، ومع هذا فاجأني عندما تحدث عن المشاكل التي يواجهها الجيش الأميركي في العراق، لم يكن سراً أن القوات تلاقي الكثير من الصعوبات على الأرض.

«نحن لا نحقق تقدماً، العراق كعكة كبيرة، كل منهم يريد أن يأخذ نهشة منها، مئات الملايين من الدولارات تبخرت في السجلات. على ماذا أُنفقت؟! المبالغ تسلم من دون تسجيل، لماذا؟ لأن الإجراءات المحاسبية الأصولية ليست واردة في زمن الحرب. وهكذا لا يُعرف من قبض عشرة آلاف أو من قبض خمسمائة ألف!!».

ما علاقتي بمشاكل الاحتلال اللوجيستية والإدارية؟!

«نحن نتعامل مع شركات أصحابها محتالون، ينتفعون من نظام أجور سخي، ويتباطأون في التنفيذ، ويجنون أرباحاً هائلة من دون مقابل معقول».

تخيلت أنه لم يكن يتكلم معي، وإنما يتكلم مع نفسه، لكنه عندما أخذ يشهدني على التجاوزات المرتكبة عن قصد، كالتلاعب بأسلوب منح العقود، وتلفيق قوائم صرف مزيفة لمقاولين لا وجود لهم، والتعاقد على أعمال وهمية، بدا محبطاً تماماً، أدركت أنه يعاني منها فعلاً. كان يرغب في أن تكون القوات أكثر كفاءة، وأقل تكلفة مادية.

لم أستطع مجاراته، هل أوافقه على حرب أشد تدميراً، بتكلفة بخسة، ولا تخطئ ضحاياها؟ مشكلته كانت مع الأشخاص

الأمنيين المستأجرين، أو ما يُطلق عليهم من تسميات مختلفة كموظفي الشركات العسكريّة الخاصّة، أو شركات الحماية الأمنية، والمتعاقدين المدنيين، والمقاولين الأمنيين. كل هذه لا تزيح عنهم صفتهم الحقيقية: مرتزقة، ما الذي تربطه بهم سوى خلافات آنية، وإن عبّر عنها بحدة:

«هدفنا كسب الحرب، بينما هدفهم زيادة أرباحهم».

كان عمل الميجور الرئيسي كما قال لي، تمثيل الجيش الأميركي في مراقبة تنفيذ العقود الخاصة بشركة «ميترا كورب»، وهي تدريب وحدات تضم نخبة من الجنود العراقيين على شن الغارات على مخابئ المتمردين في المثلث السني، ومداهمة المناطق المشبوهة، عمليات من فرط خطورتها، قد تستجر الانتقام من عائلاتهم، لذلك سيقوم الجنود بعملهم مقنّعين. لكن لم يحتاجوا إلى أقنعة، تدريبهم بالفعل اقتصر على استخدام الأسلحة الخفيفة، وعمليات لا تتعدى معالجة الحوادث الناشئة عن الاشتباكات المفاجئة، ريثما تصل نجدات من قوات الجيش الأميركي. كان هذا أحد أسباب خلافه مع الشركة.

لم يكن لدي أي سبب لآخذ جانب طرف ضد طرف في خلاف استعماري، كنت ضدهما معاً، لكنه عندما تمنى أن يكون إلى جوار ولديه التوأم في عيد ميلادهما، عبق وجهه بالاحمرار وكاد أن يختنق من حنينه إليهم:

«هل فهمتني؟».

لم أفهمه، بل أحسست أن الآباء متشابهون.

كانت ملامحه قد ازدادت احتقاناً، وبرقت عيناه، فبدا كأنه تذكر شيئاً. أدار وجهه عني. خلت أنه يخفي اضطراب مشاعره. غيرت فكرتي عنه، لم يعد ذلك الأميركي المتعجرف، أو الأميركي المتظاهر بالطيبة، كنت على خطأ عندما خطر لي أنه يحاول خداعي بالتظاهر بالمغالاة بمنحي ثقته، كان من الصنف الذي يتعاطف مع الآخرين، والغرابة أنه لم يتأخر عن وضع نفسه في محلي، ليس بداعي الشفقة، بل بسبب تأثره بموقفي، وأبدى مساندته لي بصرف النظر عن الظروف الحالية، حتى لو كانت غير ملائمة. لم ينظر لابني إلا على أنه مراهق متمرد، غُرر به، ينبغي إعادته إلى صوابه.

لم يفتر ميللر عن إثارة استغرابي، ولم أتوقع أن يضيف جانباً آخر إلى شخصيته، يزيد على العمليّ منها الذي كشف عنه في دمشق، أو رب الأسرة المتعاطف مع أمثاله، أو الإداري النزيه في عمله، وإنما في اعترافه بالتقصير قائلاً بأنه لم يفعل شيئاً مؤثراً في حياته، في الحقيقة لم يتح له القيام بعمل طالما طمح إلى تحقيقه!!

لم أسأله عنه. خلال حديثه راودني أكثر من مرة، أن الميجور يشكو من شيء، لم أستطع تحديده، وإن توضح لي جانب مثالي في شخصيته، كان ضعيفاً وهشاً. وإذا كان قد بدا لي ضعيفاً، فلتناقضه مع صورة القوة الأميركية، أما هشاشته فلأنه عرضة لوساوس الكمال الأخلاقي في حرب لا تأبه بالبشر ولا تعترف بالأخلاق. كانت انتقاداته تدور حول جودة أداء العمل، لا الغايات والدوافع، وكان متفائلاً في رسمه للعراق صورة لما سيكون عليه في المستقبل، يستحيل إنجازها في عالم كان مؤهلاً للمزيد من الدمار، صورة بدت نموذجية في تمزيق العراق إلى

دول، لا سبيل إلى تحقيقها إلا بتسعير الحرب الطائفية.

وربما لأن الحديث تدرج بنا وتشعب واتخذ مناحي شتى، صارحني بأن استدعاءه على عجل كان لإجراء تحقيق حول تدهور سيارة عسكرية ليل أول البارحة، قتل من جرائه رجلان، وأصيب اثنان آخران إصابات بالغة، لم يُعرف بعد إن كان بفعل عبوة ناسفة، أو كانوا مخمورين. هذا الحادث اضطره إلى العودة سريعاً، هناك أمر غير طبيعي حوله.

هذه المجموعة كانت ستعمل تحت إشرافه، بينما كانت في السابق تعمل تحت إشراف الشركة فقط، تبلغ بالأمر قبل سفره، ولم يتح له الوقت للتعرف إليهم، على أن يتسلم قيادتها بعد عودته. وهكذا بقيت المجموعة من دون قيادة لمدة لا تقل عن عشرة أيام.

كان هذا ما دعاه إلى الإفصاح عن طبيعة عمله الآخر غير المعلن، فربطت بينه وبين سفره لبيروت ودمشق، لم يكن إلا بهدف جمع معلومات عن تسرب الإرهابيين من المخيمات الفلسطينية في لبنان إلى الأراضي السورية، وعبورهم الحدود العراقية. قالها في معرض تأكيده على أن قصتي من صميم مهمته وستأخذ مجراها عاجلاً. فبدت وكأنها مهمة واحدة، وإن كانت متشعبة.

لم يكمل، كان قائد الطائرة يعلمنا بأننا على وشك الهبوط.

مطار صدام، الذي أصبح مطار بغداد الدولي، لا يشبه أي مطار آخر، لا نداءات تخبر عن مواعيد وصول الطائرات أو مغادرتها. الأوساخ في الممرات، والاضطراب يخيم على القاعة، مسافرون

غير عاديين، لهفة الوصول على ملامحهم يخترقها الوجوم والتوتر، كأنه سيحصل عائق يبدد فرحة وصولهم سالمين، ما طمأنهم قليلاً، أن أغلب من كان في استقبالهم رجال مسلحون.

في نقطة الانتظار، لم نتقيد بإجراءات التفتيش، توقفنا قليلاً عند الحاجز الجمركي، ثم تجاوزناه بسرعة بحكم صفة ميللر العسكرية. عبّر لي ونحن نغادر القاعة عن احتقاره للعاملين في الجمارك، لتقاضيهم الرشوة، متذرعين بمصاعب عملهم، ومهما كانت تبريراتهم، فلا تبيح لهم هذا الانحراف الأخلاقي.

بدا مجرد ادعاء، مادامت بلاده بخير فما الذي يهمه من سلوك احترفه رجال الجمارك في بلد أمسى فقيراً من جراء الحصار والاحتلال؟!

على رصيف المطار، كانت بانتظارنا سيارة همر ترافقها مدرعتان. أقلعت بنا السيارة، اجتزنا الحواجز الرئيسة العسكرية المتمركزة عند مخرج المطار. لاحت من بعيد بعض البقايا المعدنية الناجمة عن التفجيرات الانتحارية، بينما على الجانبين، تحولت الحدائق إلى مستنقعات تعج بالحشرات وقصب البردي، تفوح منها رائحة عفونة، وتناثرت محركات السيارات المحترقة، بين الحفر المتخلفة عن القنابل.

لا يبعد المطار عن بغداد أكثر من عشرين دقيقة بالسيارة. حذرني الميجور، قد نتعرض إلى حادث، الطريق مستهدف بشكل دائم بالألغام، ونادراً ما يمر يوم من دون قصفه بمدافع الهاون.

البارحة، قال السائق، تسببت قنبلة بقتل جندي وجرح عدة عناصر

من دورية أميركية، واليوم، عدا إصابة المهبط، أدى انتزاع لغم إلى تعطيل السير عدة ساعات.

لم يكن عبثاً أن عُرف طريق المطار، بـ«طريق الموت».

كان قد حجز لي غرفة في فندق الرشيد الواقع في المنطقة الخضراء الخاضعة للحراسة المشددة، الدخول إليها يتطلب الكثير من الإجراءات الأمنية. يستحيل على أي شخص الإقامة فيها إن لم يكن من العاملين مع القوات الأمريكية، أو الحكومة والبرلمان، أو ساكناً فيها من قبل.

عند المدخل، حملت اللافتة الحديدية ذات اللون الأسود تعليمات مشددة باللون الأبيض حول إجراءات الدخول: «قف أنت على مقربة من قوة سريعة الإطلاق». ولافتات أخرى تحتوي على تحذيرات بعضها باللون الأحمر.

تقيدنا بالتعليمات، أغلق الميجور هاتفه النقال، وأخرج البطارية منه، فيما اكتفيت بإبراز أوراقي الرسمية. فتشوني بواسطة الأدوات الإلكترونية، وتشمم كلب بوليسي ضخم حقيبة ملابسي. كانت إجراءات دخولي برفقته قد أعدت مسبقاً بالتنسيق مع الأجهزة الأمنية المختلفة.

طلب ميللر من السائق أن يتجول بنا قليلاً، سارت بنا السيارة على مهل، الشوارع فسيحة، حركة المرور منظمة. أعطاني فكرة عن المنطقة الخضراء، مساحتها واسعة جداً، تحتل ثلاثة أحياء، بالإضافة إلى جسر المعلق، وطريق القادسية السريع وفندق الرشيد وما يحيط به. مع جزء كبير من متنزه الزوراء، وساحة الاحتفالات

الكبرى التي تضم قاعات سينما ومسارح وصالات عروض تشكيلية فارغة ومهجورة، بعضها تستعمله الإدارة في القوات الأميركية.

«حالياً هي العاصمة الفعلية للسياسيين من صناع القرار، والبقعة الآمنة الوحيدة في بحر من اللاأمان المطلق».

غير أن الاحتياطات كلها، لم تمنع من وقوع خروقات أمنية بالغة الخطورة، كإدخال سيارات مفخخة، ووقوع عدة تفجيرات انتحارية أصابت عدداً كبيراً من الجنود الأميركيين وبعض المسؤولين العراقيين. وربما كي يخفف عني وطأة هذه القلعة الحصينة، أشار إلى وجهها الآخر:

«إنها بغداد المستقبل، صورة مصغرة عنها، انظر إليها، إنها على وشك أن تصبح مدينة حقيقية».

بعد أيام، قلت له: ريتشارد، بغداد الحقيقية توجد خارج نطاق هذه الأسلاك الشائكة والأسوار الإسمنتية العالية.

توقفت بنا السيارة عند مقطورة بيضاء. كان الميجور يستعملها كمكتب يمارس فيه عمله، اختارها ليكون على مقربة من عناصره. كان معاونه الشاب الليفتنانت جوناثان واتسون، في انتظارنا والماء يقطر منه، كان قد أفرغ قبل أن ندخل ثلاث زجاجات فوق رأسه وصدره. جفف شعره بالمنشفة، خلع سترته المبللة ونشرها. كانت الشمس القوية كفيلة بتجفيفها خلال دقائق.

عرّفه ميللر بي، صافحني جوناثان بمودة كبيرة، أبدى سروره بالتعرف إليّ، وتفهم بسرعة أسباب وجودي في العراق، كانت لديه فكرة عني سبقتني إليه. لكنه أثار دهشتي، عندما أظهر أسفه من أجلي، وتمنى مساعدتي. وقال لي من دون مقدمات، وكأنه يريد التعريف بنفسه على نحو مختلف، إنه ضد الغزو الأميركي للعراق، ولا يريد أن يخدم هنا، طالب مراراً بإعادته إلى أميركا، الإدارة لم ترفض، لكنهم يماطلون.

ضحك ميللر معلقاً على كلامه بأنه يؤوي لديه مشاغباً ناشطاً من النوع الأشد معارضة للحرب، والناقم الأكثر ضراوة على المخططين لها في البنتاغون.

بدا الليفتنانت النحيل الذي لم تفارق وجهه الابتسامة، عسكرياً إدارياً أكثر منه مقاتلاً محترفاً، وبالفعل كان مسؤولاً من الناحية الإدارية عن تدريب مجموعة من المتطوعين العراقيين في الشرطة المدنية على إدارة شبكة المرور في أجزاء حساسة من العاصمة. بالإضافة إلى ما يكلف به من مهمات، وهي مهمات إنسانية مختارة ترضي ضميره، ولا تؤذي مشاعره.

لم أفهم من الحديث المتبادل بين ميللر وجوناثان، سوى أن الأخير رفض التدخل في قضية تدهور السيارة، الحادثة مشكوك بها، وأن الكولونيل ضابط الاتصال مع شركة «ميترا كورب» يريد الانتهاء منها بسرعة. ثم صمت فجأة، وتغير مجرى الحديث، ربما تنبه إلى أنه ينبغي ألا يستطرد في الكلام أمامي.

كان توقف ميللر في المقطورة، لكي يستعلم من معاونه عن مهمة أوكلها إليه قبل أن يغادر إلى سورية، وكانت عن تسرب أخبار

عن تسلم بعض الأهالي في مدينة الصدر لرسائل من تنظيم إسلامي مجهول تهدد باستهدافهم إن لم يتم تسليم أولادهم الشواذ جنسياً إليهم بغضون أيام قليلة، التهديد كان جدياً لا سيما أن العشائر التي ينتمي إليها الشبان أهدرت دمهم وأباحت قتلهم. جوناثان لم يحرز أي تقدم، عائلات الأولاد كانوا متحفظين وخائفين، أنكروا رسائل التهديد، ولم يطلبوا حماية أولادهم الشواذ. عقّب ميللر باختصار، سجلْ هذا في تقريرك. قال جوناثان إنه سيحاول معهم ثانية.

عند الباب، توقف الميجور وعاد إلى الداخل مدعياً أنه نسي شيئاً لم يبلغه لجوناثان، فيما تابعت طريقي إلى السيارة وانتظرته فيها، خرج بعد عشر دقائق واعتذر عن تأخره. بدا مشوشاً، ولم يعد إلى طبيعته.

أوصلني إلى الفندق، تأكد من الحجز واطمأن إلى أن أموري ستكون على ما يرام. في الردهة، قال إنه لن يستطيع رؤيتي اليوم، عليه مباشرة التحقيق فوراً، وسيأخذ وقته كله لهذا المساء. ولكيلا أشعر بالملل، نصحني بزيارة السوق القريب، قال لي إنه سوق حديث أقيم بعد الاحتلال يغني الجنود والمقيمين الأجانب عن الذهاب إلى الأسواق المحلية. تركني بعد أن اتفقنا على اللقاء غداً صباحاً.

صعدت إلى غرفتي، رتبت أغراضي القليلة في الخزانة والأدراج، أخذت حماماً ساخناً. قبل أن أبارح الغرفة، ألقيت نظرة من الشرفة، كانت مطلة على حوض السباحة، رجال وشبان يسبحون، وآخرون يتشمسون يضعون على رؤوسهم قبعات قماشية ملونة

وقاية من الشمس. مددت بصري، انبسطت أمامي المنطقة الخضراء تحت مناظير أبراج المراقبة، كانت ثكنة عسكرية واسعة الأرجاء.

تمشيت في الشوارع من دون وجهة محددة. لم أفاجأ بنقاط التفتيش المنتشرة بكثرة، ولا بالاحتياطات المزعجة، وكانت تُراعى بدقة وخشونة. الحرارة لا تطاق ولا يمكن تحملها، بلغت نحو خمسين درجة. تناولت طعامي في مطعم يقدم البيتزا. ثم تابعت إلى السوق الذي دلني ميللر عليه. تسكعت بين الدكاكين، الباعة عراقيون من سكان المنطقة. يحتوي السوق على محلات للحلي التقليدية والمنمنمات، قطع أثرية، عطور عربية، وهواتف محمولة وأقراص مدمجة، والعلم العراقي مع عبارة «الله أكبر»، كان معروضاً للبيع، وبدلات عسكرية قديمة، ومحل تصوير فوتوغرافي يغري الزبائن بالتقاط صور تذكارية لهم بالملابس العربية. جنود أميركيون يتمشون، توقفوا واشتروا تذكارات من العملات النقدية العراقية عليها صورة صدام، ثم اصطفّوا من أجل صورة جماعية.

عدت إلى الفندق، لم يواتني النوم، فكرت بسناء، لم أكن صريحاً معها، وإن كنت لم أخفِ عنها أمر سفري وما كنت أقوم به من استعدادات. في الأيام الأخيرة، لم أرد توريطها بمعرفة أمور قد تشغل بالها، فتجنبت الحديث معها، وأصبح الوقت الذي نمضيه معاً مجرد زمن ينفرد الواحد منا بنفسه. كانت مثلي تخفي شيئاً، لم أحاول معرفته. كنت في حالة لا تساعدني على التساؤل عما تشكو منه، لديّ همومي ولست بحاجة إلى هموم إضافية، فتخيلت أنها مهمومة من أجلي. وكان من الأفضل، قبل مغادرتي، أن أكشف لها عما يقلقني، كانت بالمقابل صارحتني، لكن لم

يتسّن لي التفكير في شأننا.

ضبطتها في الفراش صاحية، تعللت أنها لم تستطع النوم بسبب شربها كمية كبيرة من القهوة، لم تكن القهوة، كانت قلقة من أجلي. لم يكن تلاصقنا سوى إرضاء لتلك النوازع التي يوفرها الفرار من الأرق إلى الجنس، لكنه لم يشغلنا عما في داخلنا، فلم ننس كلانا أمراً لا ينسى، هل كان الشيء نفسه؟ في ذلك الصمت والشرود، تشاركنا الهواجس من دون البوح بها. قلت لها، أنا غير قادر على التفكير بأي شيء، ثمة ما يفتك بي، ولا شيء يُسرّي عني. كان عريها بين ذراعيَّ مجرد بياض أدفن فيه خواطري السوداء، وفسحة أريح رأسي على كتفها وأنشج. احتضنتني بقوة ونشجت هي الأخرى.

لا، لم نكن ننشج على الشيء نفسه، ولم أسألها. كان صمتنا من أمراض الكتمان، ولقد تابعتُ المراوغة. وتأجل سؤالي إلى بغداد.

الآن، ما نفع الأسئلة؟

الرسالة الثانية

(الحياة في المنطقة الخضراء مختلفة تماماً، أحياء وأسواق متنوعة ونوادٍ رياضية ومسابح، محلات تحتوي على كل شيء، مطاعم فيها ما يلزم من الشراب والطعام بأنواعه خاصة الغربي، أمكنة هادئة وموسيقى، شوارع عريضة، جميلة ونظيفة، تتجول فيها السيارات وحافلات النقل المكيفة، تتقيد بحدود السرعة المسموح بها.

تمتاز الأبنية بتهوية كاملة وتبريد متواصل. مستلزمات الراحة متوافرة، خدمات تنظيف وغسيل جاف. وسائل الرفاهية والتسلية موفورة، قنوات فضائية، أفلام سينمائية، محلات لبيع البيرة والويسكي والنبيذ الفرنسي وغيرها من المشروبات الكحولية.

مدينة كاملة ومتكاملة، داخل بغداد لكنها خارجها، قطعة من الغرب، مدججة بالجنود والأسلحة... بالإضافة إلى بهارات سياحية).

□□□

كأنني انتزعت معلوماتي من كتيّب سياحي، ومع هذا كانت المنطقة الخضراء تحتوي على هذه الامتيازات دونما مبالغة وأكثر، هذا دون أن آتي على ذكر أصناف البهارات السياحية، لئلا تظن سناء أنني في رحلة استجمام في بانكوك، لا سيما أن أحد المطاعم الصينية يعرض المساج مع وجبات الطعام. قرب موقف السيارات، صادفت أطفالاً يبيعون الأقراص المدمجة، أحدهم ظن أنني أجنبي، هتف لي: «مستر، هل تريد أفلاماً أو صوراً جنسية؟».

وتعمدت طبعاً ألا أذكر لها شيئاً عن المخاطر المحتملة في داخل هذا النعيم المحصن بجدران ضد الانفجارات، والحواجز الإلكترونية المسلحة، والأسلاك الشائكة ودبابات آبرامز والطائرات المروحية.

صباحاً في بهو الفندق، انتظرت قدوم الميجور، الصالة تعج برجال من القوات الخاصة من أنواع مختلفة، مفتولي العضلات يتحركون مثل الرجال الآليين، بعضهم يرتدي سترات واقية من الرصاص، يحملون جهاز اتصال توكي ـ ووكي مربوطاً بأسلاك حول خصورهم، تسريحة شعرهم قصيرة، أو صلعان حسب الموضة، يخفون عيونهم بنظارات شمسية سوداء، وموظفون من السفارة الأميركية يهمسون في هواتفهم الخلوية، دبلوماسيون يلبسون بدلات أنيقة، خبراء أمن، مقاولون ومتعهدون، ومراسلون صحافيون يشربون القهوة ويتثاءبون، وربما بعض الشخصيات المهمة... على وشك الانطلاق كل إلى مهمته. فيما كان عمال الفندق يتنقلون بصمت بيننا، ويستجيبون لمجرد الإشارة إليهم.

من بعيد في الشارع، لمحت المنظر الأكثر مدعاة للاطمئنان،

عدداً من المجندات والمستخدمات في القوات الأميركية، يلبسن بلوزات مكشوفة، يمارسن رياضة الهرولة بالسراويل القصيرة.

كان صباحاً عادياً في المنطقة الخضراء.

على شاشة التلفزيون، المذيع يتلو موجزاً سريعاً للأخبار: انفجار سيارتين مفخختين، الانفجار الأول لدى مرور دورية مشتركة للجيشين الأميركي والعراقي أدى إلى مقتل ثمانية وإصابة ١٥ آخرين من المارين بينهم عدد من جنود الدورية. الانفجار الثاني وقع بعد عشر دقائق وأدى إلى مقتل شخص وإصابة خمسة آخرين، جميعهم من المدنيين. الهجوم الانتحاري البارحة في ديالى حصد ٢٤ قتيلاً وأكثر من مئة جريح. استهداف مركز للشرطة في مدينة الصدر نجم عنه تسعة قتلى و٣٨ جريحاً في عملية انتحارية. مقتل ستة أشخاص وجرح ثلاثة إثر إطلاق مسلحين النار على حافلة تقلّ عائلة في بعقوبة. مصدر أمني يؤكد العثور اليوم في أنحاء متفرقة من بغداد على ٤٤ جثة مشوهة مجهولة الهوية. كل الجثث كانت موثقة اليدين مع رصاصة في الرأس، ثمانٍ منها عثر عليها في حاويات القمامة.

كان صباحاً عادياً في العِراق.

□□□

جاء الميجور بعد أقل من ساعة، متعباً ومحمّر العينين، لم يأخذ قسطه من النوم. اعتذر عن تأخره، هناك ما تعسر في التحقيق الذي امتد حتى ساعة متأخرة من الليل من دون نتائج ملموسة. وطلب مني إمهاله مزيداً من الوقت لاضطراره إلى مقابلة عدد آخر من الشهود.

كان الاتفاق قد جرى بيننا في دمشق على أن يباشر العمل على قضيتي فور وصولنا. بدا من الإحباط الذي ظهر على ملامحي، أنني أتهمه بنكث اتفاقنا، بقائي بلا سبب بعدما أصبح بدء العمل مرهوناً بانتهاء التحقيق.

دنا برأسه مني، وبصوت منخفض، أكد لي أن قضية سامر من أولوياته. لاحظ تململي، كان إقناعي يحتاج إلى أكثر من الهمس، فلم يجد مناصاً من التعريج على مهمته السرية التي لمح لي عنها ونحن في الطائرة، تطرق إليها، وإن بشكل محدود، بالنسبة إلى الوحدة الجديدة التي تضم بعض المستخدمين المدنيين والجنود المدربين كان مكلفاً بأن يسند إليها عمليات خاصة لا يستطيع الدخول في تفصيلاتها، لكن وبإيجاز شديد، ملاحقة أفراد من منظمة القاعدة الإرهابية واعتقالهم، أفراد يظنون أنفسهم غير معروفين ولا مطلوبين، أدوارهم تبدو هامشية، لكنهم صلة الوصل مع جماعات المتمردين الأخرى، مما يساعد على ضرب أي تعاون بينهما. العملية ترمي إلى عزل القاعدة. قال:

«إذا كان هدفي الوصول إلى القاعدة فهو هدفك أيضاً».

كانت قضيتي على صلة وثيقة بإنهاء التحقيق.

الجانب الذي استرعى قلقه في الحادث؛ أن القتلى جميعهم كانوا من أفراد هذه الوحدة بالذات!! ما جعل مخاوفه تتركز حول مهمته، هل انكشفت، وبُدئ بتصفية عناصره؟! وعبّر عن وساوسه بعبارة مثيرة:

«أخشى من وجود جاسوس للقاعدة هنا داخل المنطقة الخضراء».

وإذ شرد في أفكاره، تخيلت أنه سينشغل بقية اليوم بالبحث عن الجاسوس!! وريثما يتفرغ لي غداً أو بعد غد، سيحتجزني في الفندق. لكنه كذب تخيلاتي، وشجعني على الخروج من المنطقة الخضراء، والقيام بجولات اطلاعية في الشوارع القريبة، بشرط ألا أغادر بغداد إلى المدن والقرى الأخرى تحت أي ظرف من الظروف، وأن أتصل به في حال حدوث طارئ، أو تعرضت لأي مشكلة، ولكي لا أتجول وحيداً طلب من السلطات العراقية تكليف موظف عراقي بمرافقتي نهاراً. فرشحوا له موظفاً شاباً، يعمل في وزارة الثقافة. لكن... ونصحني ألا أثق بأي عراقي.

«من يضمن ألا يكون عميلاً للمتمردين؟».

لم أخف انزعاجي مما قاله:

«يبدو أنكم موسوسون حتى من العراقيين الذين تتعاملون معهم».

أردف برفق، يصلح ما قاله:

«احتياطاً، لا بأس أن تكون على حذر منه».

أمسك ورقة وقرأ منها:

«الموظف اسمه فاضل عبادي، وسوف يتصل بك بعد قليل».

واعتذر عن عدم إرسال قوة حماية ترافقني كي لا ألفت الأنظار، وشدد على أن أكون حريصاً جداً، الأوضاع في العاصمة معقدة ومتشابكة جداً. المجريات على الأرض غير سارة على الإطلاق، كانت سيئة جداً، هناك أحياء باتت تحت سيطرة الميليشيات

السنية، وأحياء تحت سيطرة الميليشيات الشيعية.

زودني ميللر قبل أن يذهب ببطاقة تسمح لي بالدخول والخروج من المنطقة الخضراء، ومن بوابة محددة، هي مدخل فندق الرشيد من دون اصطحاب زائرين أو ضيوف معي. وبالنسبة للجولة التي سأقوم بها، جرى إعلام مرافقي العراقي بالمناطق التي لا يصح الاقتراب منها.

أعطاني هاتفاً لكي أستعمله طوال مدة وجودي في بغداد.

□□□

بعد أقل من ساعة، اتصل بي فاضل مرافقي العراقي، تكلم معي بالإنكليزية، طلب مني أن أنتظره على الجانب المقابل البعيد للحاجز الإسمنتي الخارجي. وتابع قائلاً:

«لا تبحث عني، سأتعرف أنا إليك».

لم أكن قد وصلت إلى الجانب المقابل حتى توقفت أمامي سيارة تويوتا بيضاء اللون، أطل منها ودعاني للركوب إلى جواره، لم أستغرب، كانوا قد أرسلوا إليه صورتي.

رحب بي وهو يسوق بهدوء ويرمق المارين بإمعان. تفحصته، كان فاضل شاباً وسيماً في منتصف الثلاثينيات من عمره، وجه أسمر ممتلئ، عينان سوداوان، شاربان كثيفان، عيناه لا تثبتان في اتجاه، يدخّن بكثرة. يبدو لطيفاً مع أنه تعمد أن تكون ملامحه باردة لا تنبئ عن شيء. ظن أنه يرافقني كمترجم، قلت له:

«تكلم معي بالعربية، أنا سوري».

فانفردت أساريره، وعقدة لسانه، وأطلق ضحكة:

«أرجو ألا يظن أحد أنني مترجم أو سائق، المترجمون والسائقون، لا ثمن لهم في سوق الخطف، يُقتلون على الفور».

خطر لي لأنه موظف أن أُثمن جهده معي، لا سيما أنه لن يتقاضى من وزارته أجراً عن مرافقته لي، فعرضت عليه عشرين دولاراً عن كل يوم يرافقني فيه، يعوضه عن هذا العناء، وربما الموت، قد يُقتل لمجرد أنه بصحبة غريب.

«هل المبلغ معقول؟».

انتفض قائلاً بأنه لا يقبل رشوة وغير معتاد على الإكراميات من أي نوع. كان موظفاً في وزارة الإعلام، بعد الاحتلال جرى نقله إلى وزارة الثقافة، إنه من جيل الموظفين الصغار الذين تربوا في زمن صدام، كانت أي شبهة من هذا النوع توردهم التهلكة.

أم هذا ما يدعى بالحساسية العراقية؟

عندما كُلف بهذا العمل، كاد أن يرفض بسبب الأميركيين، لكنه وافق عندما علم أنه سيرافق باحثاً أميركياً قيل له إنه من أصل عربي، فلم يستبعد كوني أتعثر باستعمال لغتي الأم، وربما نسيتها. دفعه للقبول أيضاً أنني، حسبما أبلغوه، سأجمع معلومات من أجل كتاب يتحدث عن واقع العراق تحت الاحتلال.

«هل هذا صحيح؟».

«لنقل إنني بحاجة إلى معلومات».

قال وعيناه لا تفارقان الطريق:

«ما المعلومات التي تريدها؟ ذلك يعتمد...».

لم يكمل، تردد قليلاً، ثم أعلمني بشكوكه:

«لا تنس أنك تقيم في فندق الرشيد بحماية قوات الاحتلال».

كان قد وضع الحدود التي تفصل بيننا، بإظهاره عدم ثقته بي.

نظر إلي وقد اختفت ابتسامته. ينتظر جواباً. قلت له:

«عاملني كسائح».

اقتصرت جولتنا على الأماكن القريبة من المنطقة الخضراء. هذا بموجب التعليمات التي تلقاها بخصوصي؛ كان من المستحسن برأيي أنا أيضاً عدم تجاوزها.

حركة السير بطيئة، الطرقات تعج بالبشر والسيارات، الازدحام سببه اختناقات المرور، وكانت قد ازدادت مع تقدم النهار، بغداد مقفلة بسواتر ترابية وخرسانية، المتاريس تحيط بالمواقع العسكرية الأميركية، تحصينات من الباطون اخترقت الشوارع لتفادي الهجمات المحتملة بالسيارات المفخخة. الفنادق التي يقيم فيها النزلاء الأجانب، وهي كثيرة، يحق لوحدات الحراسة فيها تحويل شبكة الطرق المحيطة بها إلى اتجاه واحد، كذلك منازل المسؤولين الجدد المنتشرة في أنحاء المدينة، والمراكز الحزبية

على أنواعها، ومكاتب الشركات الأجنبية.

من خلال زجاج السيارة، الهواء رمادي يحجب زرقة السماء الكالحة بمزيج قاتم من غبار وأبخرة ودخان وغازات ومخلفات سوائل الوقود المحترقة، ممزوجة بروائح النفايات المتعفنة.

«ليست أزمة مرور فحسب، بل وأزمة كهرباء، وأزمة بطالة، وأزمة ماء وهواء...»

... قبل سنة، كانت الأزمات مستفحلة، طوابير الناس الطويلة تقف ساعات أمام محطات الوقود، أليست مهزلة... العراق يحتوي على أكبر احتياطي نفطي في العالم... وأيضاً بلا ماء، ويُسمى بلاد ما بين النهرين!! ولا شرطة لتنظم حركة المرور. ولا رجال إطفاء في وقت تكثر فيه الحرائق، وبلا عمال نظافة والنفايات تسد الشوارع.

الناس يمضون مسرعين، يتعثرون بخطواتهم.

لم أدر، هل كان الخوف حقيقة واقعة، يتراءى لي مرتسماً على الوجوه، خشية من رصاص طائش أو شظية جراء عبوة ناسفة، أو سيارة مفخخة؟ على الرغم من التطيّر، ثمة استهانة، الحياة تجري بقوة، وآلاف البشر يتدافعون غير عابئين بموت بات يومياً، مبذولاً ومبتذلاً، على الطرقات والحواجز، وقد يحدث في أية لحظة.

تعمدت التحرش به.

«لن يحتمل العراق المزيد من الخراب، صدّام كان عامل أمان

ضد الفوضى والتجزئة».

كانت فصول محاكمة الرئيس المخلوع تنقل على شاشة التلفزيون، وقد قاربت على الانتهاء، ربما كان متحيزاً له، تابعت قائلاً:

«ألا تؤيد عودته إلى الحكم؟».

«لن يرتدّ الزمن إلى الوراء، حتى الذين كانوا من أتباعه لا يقبلون به. وبات مرفوضاً من غالبية تنظيمات المقاومة، في الحقيقة لم يغادرنا حتى يعود، الكثيرون لم يصدقوا ما حدث حتى بعد مضي ثلاث سنوات، صديق لي أطلق سراحه، لم ير النور طيلة عشر سنوات، كان محتجزاً في سرداب معتم. خرج نصف ميت، ظهره محني، وجهه لا يزيد على عظام، عينان غائرتان، وأسنان منخورة، لا يتجرأ على الكلام، شبح صدام يرافقه، كابوس لم يتخلص منه بعد. المسكين يخشى من أن خروجه من السجن ليس إلا حلماً، قد يستيقظ منه ويجد نفسه ما زال في الظلام».

«مهما يكن، هناك حرية».

«ما الذي نفعله بها؟! نحن لا نرغب في العودة إلى الوراء، وفي الوقت نفسه، إذا كانت على هذه الشاكلة، فلا نريدها. إلى جوار بيتي يوجد حاجز أميركي، حين أغادر البيت أو أعود إليه، أحتاج لإذن جندي أميركي قادم من سان فرانسيسكو أو شيكاغو، يستطيع أن ينتزعني من الشارع أو من فراشي، يقيد يديَّ إلى الخلف، ويضع على رأسي كيساً أسود ويقودني إلى سجن أو مخيم، ويهين كرامتي بشتى الأساليب، من يمنعه؟».

نزلنا من السيارة وتمشينا وسط عجقة الناس، تقدمني ببضع خطوات في شارع الرشيد، يفسح لي الطريق المنصف بسواتر إسمنتية، إلى الجانبين امتد رواقان بأعمدة ضخمة من بداية الشارع إلى نهايته، تتوضع على أطرافه المحلات والمقاهي والبوابات المؤدية إلى الأسواق.

طالعتنا محلات لبيع الأجهزة الكهربائية. بينما احتلت عربات الباعة الثابتين والجوالين الأرصفة والطريق والساحات. صراخهم يختلط مع الأصوات العالية للمسجلات.

بالكاد من شدة الزحام، تميزت الشارع والرصيف، البسطات على مد النظر، وكأن البائعين أكثر من الشارين، بضائع صينية مستوردة من جميع الأنواع، أدوات كهربائية، موبايلات، أحذية، قمصان، بيجامات... وأقراص مدمجة لأفلام عن حفلات التعذيب في سجن أبو غريب، معارك الفلوجة، زرع عبوات ناسفة وتفجيرها في دبابة أو رتل عسكري، تدريبات واستعراضات لميليشيات إسلامية...

«ألا تريد شراء تذكار من بغداد؟».

«أرغب في تذكارات أخرى».

«لو جئتَ بعد الاحتلال مباشرة لرأيت العجب على الأرصفة».

شهادات ماجستير ودكتوراه حسب الطلب، جوازات سفر مزورة، هويات شخصية، سندات ملكية عقارية، بطاقات تموينية، ملابس الضباط الكبار مع أوسمتهم ومسدساتهم المطلية بالذهب، علب

السيجار الكوبي عليها أسماء أولاد الرئيس؛ كلها معروضة في الطرقات لمن يدفع. مستندات الدوائر الرسمية وسجلاتها مكدسة على الأرض، أسرار الدولة العراقية الدبلوماسية والعسكرية والمخابراتية والداخلية والدولية مع الأسرار الشخصية لعائلات رؤوس النظام، برسم البيع لمراسلي الجرائد المحلية والعالمية والفضائيات العربية. باعة جوالون يحملون في حقائبهم رزماً من الملفات، وثائق مختومة ومصدقة، صور وأشرطة التسجيل، وأفلام فيديو لإعدام عملاء لإيران، تقارير الوشاة عن المشكوك بأمرهم والهاربين من الجيش وعائلاتهم، لقاءات حميمة بين أولاد المسؤولين وفتيات صغيرات في السن. كل شيء بثمن، والثمن بالدولار، وقد يصل إلى مئات الألوف... وكل ما يساعد على تصفية الحسابات، أو ما يثير الفضول والفضائح والتنكيل.

اللازمة نفسها التي تصاحب الانقلابات؛ عهد ينتقم من عهد.

«نحن العراقيين لدينا تنويعاتنا، شهّرنا بالعهد السابق على الأرصفة. الانتقام لم يقف عند هذا الحد، ولا على إسقاط تماثيل صدام، بل امتد إلى من سبقه، سُرق تمثال الرئيس السعدون، وأزيل تمثال الغريري، واقتلع تمثال الرئيس البكر، ونسف تمثال أبي جعفر المنصور، وسوّي بالأرض قبر ميشيل عفلق فيلسوف حزب البعث».

الحاضر يعيد كتابة الماضي ويثأر منه.

نهاية شارع الرشيد لم تكن ختام سياحتنا، صوت انفجار قوي وضع النهاية لها. تخيلت قنبلة انفجرت على مقربة منا، بحثت عن حائط قريب لكي أرتمي إلى جواره، لكنني رأيت فاضل

والناس الذين في الطريق يرفعون رؤوسهم إلى السماء، سحابة ضخمة من الدخان تتصاعد في الفضاء، عيّنت موقع الانفجار، كان على بعد عدة شوارع.

سيارات الشرطة العراقية تمرق من أمامنا، مسارعة إلى مكان الحريق، أعقبتها سيارات الإسعاف مطلقة زعيقها، في السماء ظهرت مروحيات أميركية حلقت متوجهة نحو أعمدة الدخان.

في نشرة الأخبار، كان سبب الانفجار الذي سمعته سيارة مفخخة استهدفت ساحة الفردوس، حصيلة الضحايا ثلاثة قتلى مدنيين وإصابة ١٥ آخرين بينهم عدد من الحراس المسلحين. أما الانفجار الأكبر الذي لم أسمعه، فقد كان بعيداً، تفجير سيارة مفخخة في سوق للماشية أدى إلى مقتل ٢٤ مدنياً بينهم الانتحاري وأكثر من مئة جريح. عند المساء ارتفع عدد القتلى إلى الأربعين. هجوم على حاجز أميركي، لم تقع خسائر. العمليات التي سجلتها المناطق الأخرى، تسعة قتلى و٣٨ جريحاً في عملية انتحارية استهدفت مركزاً للتطوع في مدينة البصرة، مقتل سبعة أشخاص وجرح أربعين في الرمادي، مقتل ٢١ شخصاً وإصابة العشرات بجروح في كربلاء. وفي الموصل قتُل جنديين أميركيين بانفجار عبوة يدوية الصنع لدى مرور دوريتهم. في تكريت إصابة سبعة بينهم مسؤول محلي في هجوم مسلح.

حصيلة ما بعد الظهر إلى المساء، شكلت مع حصيلة الصباح ضحايا يوم عادي آخر في العراق. هذا في الأخبار.

أما الحقيقة، قال فاضل، فأضعاف مضاعفة.

ليلاً، عمَّ الظلام بغداد عدا بعض المناطق والشوارع، الحرائق تضيئها، وربما قاذفات اللهب، بعض المباني نوافذها مضيئة. وميض أنوار السيارات العابرة يرسل خيوطاً متحركة وواهنة من الضوء سرعان ما تغيب.

الرسالة الثالثة

(أنا في موقف لا أحسد عليه، تعرقلت المهمة قبل البدء.

الوقت طويل، أطول مما أحتمل.

القلق يلازمني، لا أرغب في إضافة المزيد.

وفري ظنونك، ولا تشغليني بها.

أريد أن أفعل شيئاً، لكن كل شيء مؤجل).

□□□

رسائلها أصبحت أكثر إلحاحاً، يصلني منها يومياً ثلاث أو أربع رسائل على الوتيرة نفسها، ترجوني فيها عدم التجول في الشوارع، وأن أكون شديد الاحتراس. من قبل كانت حريصة على ألا تشغل بالي، وتحاذر التطرق إلى ما يخصنا. في رسائلها الأخيرة حددت

هدفها، وناشدتني العودة إلى دمشق، والأسباب كثيرة: خائفة، بحاجة إليّ، تحس بالذنب لأنها لم تمنعني من السفر، أحلامها المشوشة ترعبها. كانت أوهامها قد عاودتها.

لا تنقصني الأوهام ما دام الميجور ميللر قد اختلق جاسوساً وأخذ يبحث عنه. اليوم لم يتصل بي، فتواعدنا أنا وفاضل على متابعة جولتنا.

روائح الفلفل والقرفة واليانسون والكمون تهب من سوق البهارات، وأصوات الطرْق على النحاس تتسلل من سوق الصفارين، واللغط يتعالى من سوق الهرج، وفي شارع المتنبي كأنما أسمع حفيف الورق.. ما الذي يميزها عن أسواق البزورية والمسكية والنحاسين في دمشق؟! عدنا أدراجنا إلى شارع المتنبي، لم يعد شارع الكتب، بل شارع القرطاسية. دعاني فاضل إلى شرب الشاي في مقهى الشاهبندر.

ألقينا السلام على الحضور، فاضل يعرف بعضهم، كانوا من رواد المقهى المداومين، صحافيون وشعراء وأدباء وموظفون متقاعدون، يدخنون السجائر وبعضهم النارجيلة، استرخوا على المقاعد الخشبية الطولانية، يتحدثون وقد أطلقوا النظر بين الفينة والفينة من خلال الواجهات البللورية العريضة إلى شارع لا يهدأ عن الحركة. على الجدران علقت براويز تضم صوراً لشخصيات عراقية يعتمرون الطرابيش والفيصليات والعمائم من الأدباء والسياسيين والضباط ورجال الدين، المراوح المتدلية من السقف العالي لا تكفّ عن الدوران، من دون أن تخفف من الحر.

تناثرت تعليقاتهم حول ما استجدّ اليوم من أحداث، وكان مثل

قبله. ما الذي تبدل؟! لا شيء، لم تختلف الأمور كثيراً عما كان سائداً في زمن صدام، بل ازدادت سوءاً باستشراء الفساد، مليارات الدولارات المخصصة لإعادة إعمار العراق تذهب للشركات التي تربطها علاقات بالإدارة الأميركية، يستفيد منها أفراد النخبة العميلة، استولوا على أبنية المراكز الحزبية البعثية، وسيطروا على الفنادق والمدارس والمجمعات السكنية، وشددوا الإجراءات الأمنية، وأخذوا ينهبون الأموال ويحتكرون العمولات وفق نفقات تشغيل باهظة. أحاطوا أنفسهم برجال مسلحين موالين لهم. من يدفع تكاليف حمايتهم؟ فساد كامل، فساد بكل معنى الكلمة.

«في الماضي كانت السرقات لا تتعدى بضعة ملايين، اليوم مئات الملايين».

دار النقاش بأصوات عالية، وبلهجة عراقية استفزازية، لم أفهم على أي شيء هم مختلفون ما داموا متفقين في الرأي على إدانة اللصوص الذين جاءوا فوق ظهور الدبابات الأميركية!! بين الحين والحين، يتسرب إلى سمعي أصوات طلقات رصاص وانفجارات بعيدة، أو أنني أتخيل سماعها، فتتعثر متابعتي لهم. أما هم فلا يكترثون، باتت في حكم المعتاد. مر وقت ريثما استوعبت أنهم يتحدثون على هذا النحو العصبي والمتوفز، سواء كانوا ناقمين أو غير ناقمين. كاد أحدهم من فرط انفعاله أن يطيح بيده ما فوق الطاولة والترابيزة الطويلة من أباريق ماء وكؤوس الشاي الأسود والمنافض المملوءة بأعقاب السجائر.

كان الفاصل الانتقادي الشديد اللهجة، خفيف الوطأة بالمقارنة مع ما تلاه من حديث حول تمركز قيادات القاعدة في قلب

بغداد، رداً على فِرَق الموت الشيعية. وتيرة الفرز السكاني المذهبي آخذة بالاتساع، ميليشيات السنّة فرضت أحكامها على الأحياء التي احتلتها، وأصدرت بيانات باسم «مجلس شورى المجاهدين» معلنة عن تشكيل إمارتين إسلاميتين، الأولى في الدورة والثانية في العامرية، ووزعت منشورات تمنع تجول النساء سافرات، وحلق ذقون الرجال، وحظرت على الشبان ارتداء الشورت وبناطيل الجينز. بينما كرست الميليشات الشيعية وجودها في شرق بغداد، وانتشر مسلحوها المرتدون ملابس سوداء، ونظموا دوريات للتفتيش على مدارس البنات والمؤسسات الحكومية لمراقبة المخالفات وتقويمها. وفرضوا على النساء ارتداء العباءة السوداء، ومنعوا الشبان من حلق لحاهم، أو ارتداء ملابس ملونة في أيام العزاء الحسينية. الأحياء باتت مغلقة، وتطبيق الأحكام الشرعية بالقوة.

جرى التعقيب عليها بتساؤلات عابثة؛ متى سيتقاسمون شارع الرشيد؟ مقهى الشاهبندر سيكون حصة من؟

ما سوف يحدث لا يحتمل الكثير من المزاح. الشريعة لن تستثني أحداً.

بات كل شيء قابلاً للحدوث، حتى أكثرها وحشية، إذا كانوا قد بدأوا بتطبيق الأحكام؛ فالحد سيقام على السارق بقطع يده، ورجم الزاني والزانية حتى الموت... إذاً ما العجيب في الدعوة إلى منع تعليم البنات وحجبهن في البيوت، أو إطلاق النار على محلات الحلاقين. أليس من الطبيعي تفجير دور اللهو والسينمات، وقتل باعة الخمور، وحرق محلات باعة

أقراص الغناء المدمجة الخليعة وغير الخليعة؟!

افرحي يا بغداد... لا موسيقا، لا رقص، لا غناء.

وتداعى بهم الحديث إلى الأخبار والشائعات المنتشرة: القتل علنيٌّ وفي عز النهار؛ امرأة ذُبحت لأنها تختلط مع الرجال وتعمل في التجارة. ثلاثة شبان يعملون مدربين في المسبح قطعت سيقانهم لارتدائهم السراويل القصيرة. خمس عاملات في البنك لا يلبسن الحجاب، انتزعن من الحافلة التي تقلهن إلى بيوتهن عند الظهيرة أمام أنظار زميلاتهن، أطلق عليهن الملثمون المسلحون نيران أسلحتهم الرشاشة، ثم عمدوا إلى قطع رؤوسهن وألقوا بها على الرصيف ، نذيراً لسواهن، وأمرن العاملات المحجبات إبلاغ ما رأينه إلى غيرهن. ثم وللترويع، منعوا أهالي الحي من رفع جثثهن من على الأرض.

دونما اتفاق، اعتبر الطرفان قتل السافرات عملاً يُثاب عليه صاحبه. المناطق المسيطر عليها انتقلت من زمن الجاهلية إلى زمن الحاكمية لله.

لا غرابة بعد اليوم، الأحياء تركت مسرحاً لزعران الشريعة.

لم أعِ سوى أن العراق بلد أعمى، يتلمس طريقه بالنار والسكين، وأن السياسة تضلل الدين وتقوده إلى العار في حياة أصبحت موعودة بالهلاك، صفحة بلد بكاملها قد تطوى بموت مديد وبشع.

تابعنا تجوالنا على غير هدى، من حولي ضجيج لا يخفت وتزاحم

خانق، يعيق الحركة في مسالك مغلقة، وجسور تحتها ركام من الأوساخ، أكوام الزبالة تحوم حولها الكلاب الضالة... السينمات مغلقة، أسلاك شائكة تحجز الأبنية عن المارين. الشرطة ببدلاتهم الزرق يغوصون في بحر من الفوضى العارمة ويزيدونها احتداماً، لتدر عليهم بضعة دولارات. كانوا يرتشون على الملأ، وما يحاولونه بلا جدوى!! كأنما التقط فاضل ما تردد في داخلي، فجاءني صوته منخفضاً، يفسر من خلاله مشهداً أكبر.

«هؤلاء الشرطة على شاكلتنا، مغلوبون على أمرهم، وتحت الخطر، يريدون أن يعيشوا من أجل أمهاتهم وأولادهم. لكن الأمر ليس لهم، ولا لنا، ولا للجماهير التي هتفت لصدام، أو التي تهتف اليوم لأحزاب سرعان ما تظهر وسرعان ما تختفي. رجال الحكومة خائفون على أرواحهم ومختبئون خلف الأسوار العازلة، والسلطة المحتلة تحت الحراسة المشددة، وهناك بعيداً فيما وراء البحار، المخططون في البيت الأبيض والبنتاغون. هذا البلد يحكمه رجال غير مرئيين؛ يقبعون في قارة بعيدة».

نظر بعيداً، وابتسم ابتسامة خفيفة:

«كذلك المقاومون غير مرئيين أيضاً، مع أنهم هنا حولنا، يقاتلون ويقتلون، يضربون ويتلاشون، لا ينبئ عن وجودهم سوى ما يخلفونه من دمار».

تساءل: هل أنت مهتم بالمقاومة؟

قلت: ليس كثيراً.

لم أسترسل، ظن أنني أتكتم على ما أسعى إليه. في تلك اللحظة، كان يريد معرفة غرضي من قدومي إلى بغداد، فتابع محاولته وكأنه لم يسمعني.

«من الصعب حصر أعداد جماعات المقاومة، خاصة ما ينبت منها. كل يوم تحت اسم جديد، بعضها زائف أو غير حقيقي، والأكثرية عصابات تعمل على الاختطاف والسلب».

أدركت أن لديه شكوكاً حولي، ربما كنت عميلاً لقوات التحالف، فقطعت عليه تلميحاته، وقلت له إنني غير مهتم بالمقاومة الإسلامية أو الوطنية، الشريفة منها، أو غير الشريفة. بصراحة، اهتمامي منصبّ على منظمة القاعدة بالذات؛ ابني لديهم، أريد استعادته.

«مختطف؟!».

«لا، يعمل معهم».

«إن لم يكن نفذ عملية انتحارية، فهو في طريقه إلى القيام بها خلال أيام، أو ساعات. كيف جئت إلى العراق؟».

«ساعدتني المخابرات السورية».

«لكنك تستعين بالأميركان».

«إذا كان الله مع القاعدة، فأنا سأتعامل مع الشيطان».

«لا تأمل كثيراً، فات الأوان على استعادته، هذا إذا استطعت

الوصول إليه. لمعلوماتك، الأخبار سجلت سبع عمليات انتحارية خلال اليومين الماضيين. إذا شئت نصيحتي، اسأل عنه في المستشفيات والمشرحة، ربما رآه أحد المصابين وهو يُفجر نفسه، أو أصيب في أحد الاشتباكات، قد تعثر عليه جريحاً، وعلى الأغلب ميتاً. إذا كنت محظوظاً تجد شيئاً منه، تأخذه تذكاراً تعود به إلى سورية مطمئناً إلى أنك لن تعيش بوهم أنه ما زال على قيد الحياة».

هل هذه هي التذكارات الأخرى؟ لم أتصوره بهذه الوقاحة والفظاظة، قلت له:

«عد بي إلى الفندق».

واستدرت عائداً إلى حيث أوقف السيارة. لحق بي، سبقني ببضع خطوات، فتأخرت عنه، وتبعته على مهل. لم أنتبه إلى الشخص الذي حاذاني واقترب مني، مال عليَّ بكتفه، دفعني نحو الحائط، حاولت أن أبعده عني، بسرعة خاطفة لوى ساعدي، وأغلق فمي بيده، وهمس في أذني: (ارجع إلى سورية فوراً، دون تأخير). ثم أفلتني وعاد أدراجه بخفة إلى الشارع. كان شاباً طويل القامة يلبس حطة وعقالاً، ووجهه شديد السمرة، هذا ما لمحته منه قبل أن يبتلعه الزحام.

علق فاضل على الحادثة التي لم تستغرق سوى بضع ثوانٍ:

«لو كان يريد خطفك لما هددك، الأميركان يريدونك أن ترحل من دون إبطاء».

في الفندق، كان الميجور قد ترك لي رسالة صغيرة، سيعرج صباحاً باكراً على الفندق، ويشرب القهوة معي قبل الذهاب إلى عمله.

أدركت أنه سيعتذر للمرة الثالثة، عسى أن أيأس وأطلب العودة، وبذلك يكون التحذير قد أثمر. اتصلت بفاضل قبل أن أنام، قلت له أن يوافيني غداً. قال لي:

«ما الذي جرى؟».

«لن أضيع الوقت، سأسأل عن ابني في المستشفيات».

وتفاديت التطرق إلى المشرحة.

الرسالة الرابعة

(أفكر فيكِ، لقد أخطأت بتحميلك هموماً لا تعنيك.

كان يجب ألا أطلعك عليها، وأن أسافر حاملاً همومي معي.

أخطائي تخصني وحدي، وأنا المسؤول عنها.

متى سأعود؟! ليس كما قدرت، بقائي سيطول.

لم أخطُ خطوة واحدة حتى الآن.

لا أستطيع التخلي عن سامر، إن فعلت فسوف أندم طوال حياتي.

هذه فرصة لي كي أصلح بعض الأمور التي أهملتها،

وأيضاً شيئاً لا أدري ما هو).

□□□

ما هو الشيء الذي لم أدر ما هو؟!

كانت رداً على عبارة وردت في رسالتها، استوقفتني لحظة قراءتي لها، أقلقتني على الفور، تجاوزتها بسرعة، شيء ما عن أمر ينبغي إصلاحه أو استدراكه، تاه عني في اللحظة التالية. عندما فتحت باب الغرفة وخرجت، فوجئت أنني نسيته، رغم أنه ترك في داخلي أثراً ممضاً، تعسر عليّ تحديده. فأردت الرجوع لأقرأ رسالتها ثانية!! بيد أنني كنت قد توجهت نحو المصعد.

ما أثارني، تجنبته من دون قصد، وكأنني عن غير وعي مني أردت تخريبه لا إصلاحه. هذا ما عكّر مزاجي. أنا لا أجهل تصرفات سناء، تكتفي بالتلميح، وتخشى من التصريح. لم أدرك هذا إلا بعد مضي فترة طويلة على علاقتنا.

تعرفت إليها قبل ثلاث سنوات، صادف جلوسي إلى جوارها في باص البولمان، كنا مسافرين إلى حلب، هي لزيارة صديقة، وأنا لأجري مقابلة مع ناشط إسلامي سابق خرج حديثاً من السجن. كانت في السابعة والثلاثين من عمرها، بدت أصغر من عمرها، فيما بدوت أكبر من عمري، وكان من الطبيعي ألا تظن أن إلقائي التحية عليها بهدف التحرش بها.

تبادلنا أحاديث متنوعة ورصينة، تطرقنا فيها إلى الطقس والكتب، تداعت إلى تعليقات كانت بمعظمها حول الأحداث السياسية الدائرة آنئذ، وما استجّرته من تدخل غربي، كان الأميركان قد احتلوا العراق. استعدنا سقوط بغداد قبل أشهر، ولم نكن واثقين مما قيل عن بدايات المقاومة، ظننا أنها مجرد شائعات.

عموماً لم تتفق آراؤنا، لكننا لم نختلف على شيء.

لم تمارس سناء أي عمل، تخرجت من كلية العلوم السياسية، تزوجت قبل أن تبحث عن وظيفة، وانشغلت بالزواج والقراءة والأحلام. ولم تتابع الأخبار السياسية لمشاكل المنطقة والعالم إلا تحت تأثير دراستها. قضينا وقتاً ممتعاً، لم نحس بطوله مع أنه امتد عدة ساعات في الباص، يرافقنا على شاشة صغيرة مثبتة بالعالي في المقدمة، فيلم كوميدي مصري، نلتقط منه مصادفة بعض المشاهد المضحكة. لم نتوقع أن همومنا الشخصية ستقرب بيننا على الرغم من عوالمنا المختلفة، غير السوية والمعقدة فعلاً.

خفف عني تبادل الحديث معها بعضاً مما عانيته مؤخراً من خيارات شاقة؛ كنت قد اتخذت قراراً بالطلاق صارحت به أولادي. وكان الموقف قاسياً بالنسبة لي ولهم. اتُّهمت بتشتيت شمل العائلة، ولم أشأ الدفاع عن نفسي.

عندما وصلنا إلى حلب، كان لدينا متسع من الوقت، فدعوتها إلى فنجان قهوة. قبلت ولم تخف سرورها بالتعرف إليّ. أنا أيضاً ارتحت إليها. بدت قوية الشخصية لا تقيم وزناً للأقاويل، رغم أنها كانت تجتاز مرحلة سيئة من حياتها، مرحلة التحرر مما قد يخلفه زواج فاشل ومقيت، لكنها في أعماقها، لم تستطع التخلص من المرأة الخائفة التي تربض في داخلها. امتد زواجها لسنوات عدة بفعل عطالة العيش اليومي. لم تجرؤ على طلب الطلاق رغم خيانات زوجها المتكررة، المرأة المطلقة لا ينظر إليها الناس باحترام، ويسعى كل من هب ودب إلى اقتناصها، بالإضافة إلى فكرة حمقاء أخرى استولت عليها، وهي التشبث بزواج كان ثمرة

مأثرة غرامية، لا يصح التفريط بها، وكأنها إنجاز يُعتد به. كان تعلقها الشديد به قد آذاها كثيراً.

ولم تدرك إلا بعد وقت طويل، أن هذه المأثرة كانت نتاج مراهقة مضطربة، لا تزيد عن افتتان ساذج وعاصف، لكن بعد أن كلفها الكثير من المنغصات المهينة.

«في ذلك الوقت، أو ذلك العمر، كان الحب مغامرة رائعة يستحق المرء أن يعيش من أجلها، أو يموت من جرائها».

لم تذهب ضحيته، كان مجرد عشق باطل.

ما تخوفتْ منه أجبرت عليه، كان زوجها قد بدأ يتمادى بتصرفاته اللامبالية، بقصد دفعها إلى طلب الطلاق، لم تستوعب إصراره على مناكدتها، غير أنه في النهاية وضعها أمام الأمر الواقع، وخيرها بين احتمالين، ولم يقبل أي نقاش حولهما.

كانت رحلتها هذه، رحلة ما قبل الطلاق، أو القبول بأن تكون الزوجة الأولى إلى جوار زوجة ثانية، كانت هناك امرأة في حياته، وعلى وشك الزواج منها.

كان أكثر ما استلفت اهتمامي بها، حياتها الجوانية، ولم تكن فارغة. كانت تكتب الشعر، ليس تنويعاً على تلك الأوجاع الرومانسية المستهلكة، أو مديحاً لمشاعر مبتلاة بالحساسية، وإنما في تصنيع حياة خيالية، يبتكرها خفرها النزق الكئيب والمتوهج، مع نظرة حادة تخترق ذاك المزيج العجيب، المتخبط والكثيف والمتناقض لعقلها وروحها وأعصابها المتخفية في أعماقها. كانت

قد دفعت بديوانها الأول إلى النشر. قرأتْ عليَّ بعضه، لا أقول إنه كان جميلاً، كان مدهشاً. ربما في تلك اللمسة التي جرحتني في أعماقي المتوحدة، وكانت لا تحتمل من فرط رقتها، امرأة لا تنصاع للألم، بقدر ما تخضع للزمن، تلك كانت أعجوبته ونقطة ضعفه. لم أعبّر عن رأيي، خشيت أن تعتقد أنني أجاملها. شجعتها فقط.

لا بد أن الشيء الذي استوقفني في رسالتها وتجنبته أمر يخص علاقتنا. تردد الخاطر في رأسي وأنا أنتظر المصعد، أردت أن أرجع لأتأكد، غير أن المصعد انفتح بابه، وصرت في داخله، الفضول غلبني، فكرت وكدت أن أرتدّ صاعداً إلى غرفتي، لكن هذه المرة، انفتح باب مصعد الطابق الارضي، لأرى الميجور حسب الموعد ينتظرني في بهو الفندق.

وربما لأنه لم يعد بوسعي الصعود، غضبت من الميجور الذي لم يكن يحمل جديداً، أبديت تبرمي من هذا التأجيل المتواصل بسخرية كانت في محلها:

«هل عثرت على الجاسوس؟».

«الأمر لا يتعلق بجاسوس، بل أسوأ».

«الأسوأ ما يحدث معي، الوقت يضيع في الضجر».

«الضجر!! ثمة إثارة هائلة في المنطقة الخضراء، البعض لم يغادرها منذ ستة أشهر، إلا مرة أو مرتين، يديرون أعمالهم من داخلها. لماذا لا تتسلى مثلهم بالشراء، هناك أسواق أخرى، تحتوي على

كل شيء، مع تنزيلات حقيقية؛ سجائر من نوع «تشرشلز» تجدها بربع الثمن المعروض في أي سوق حرة أوروبية، وسجائر «كوهيباس» بأقل من ثلث تكلفتها، وبضائع ثمينة بأسعار زهيدة».

«لست رائق المزاج لهذه الرفاهية».

«هناك نشاطات أخرى، لو اطلعت على لوحة الإعلانات لوجدت شيئاً يعجبك، هناك قس بروتستانتي يعطي دروساً في التوراة والإنجيل، لماذا لا تستمع إليه؟».

«لا أحتاج إلى دروس، أنا مسلم».

«لقد نسيت، لا يبدو عليك أنك مسلم...».

«ربما لأنه ليس للمسلمين جمجمة تميزهم عن غيرهم».

لم أستطع إخفاء عدوانيتي، وكان جوابه تعليقاً غير موفق عليها:

«أقصد أنك مسالم جداً».

كان قد وقع في زلة أخرى، فاستدرك:

«خطر لي أنك غير مسلم، وأن ابنك اختار الإسلام عندما اختلط مع الإرهابيين. لا تلمني، في أفغانستان قبضوا على شاب أميركي اعتنق الإسلام، كان يقاتل ضد قوات بلده!!».

لم أدعه يكمل، كان يمكن لهذا النقاش العارض أن يمتد إلى ما لانهاية دون فائدة، ما دام يعتقد أننا كآباء متشابهون، أما كبشر فمختلفون.

«هل المطلوب مني مغادرة العراق؟».

فاجأته بسؤالي. دُهش، لم يعرف ما أقصده. فأخبرته بالتحذير الذي تبلغته البارحة في شارع الرشيد:

«ما الذي تريدونه... أن أعود من حيث أتيت؟».

«عندما لا أرغب في وجودك، فلن ألجأ إلى هذه الأساليب البوليسية الملتوية».

أثرت لديه تخمينات غير مطمئنة، مبعثها أنني أصبحت مراقباً، ولم أعد مهمته السرية، وإنما مهمة مكشوفة، هناك من يرغب في إبعادي، لم يستبعد أن يكون هناك في الجانب الأميركي، من يريد عرقلة مهمته، لكن من يعرف بأمري قلة من الضباط الكبار، والأكيد أن لا أحد من شركة «ميترا كورب» الذي هو على خلاف معها، يعلم بوجودي، إلا إذا كان قد تسرب إليهم، وهو احتمال ضعيف.

قلت له، مهما كان المقصود، لن آخذ أوامر من أحد، يهمني أمر واحد، أن نباشر العمل بأقرب وقت، كل دقيقة تأخير تعني إعطاء فرصة لابني كي ينتحر.

عندما لم يجب، لم أجد بداً من مصارحته:

«قد أستغني عن أية مساعدة من طرفكم، وأعمل منفرداً عنكم، ليس عسيراً إيجاد مكان آخر أنتقل إليه في بغداد».

وجدها خطوة جنونية، هتف متسائلاً:

«لماذا لا تثق بي مثلما أثق بك؟».

كان متأثراً أكثر منه غاضباً مني، علل ثقته بي بأنها طبيعية وفي محلها، ومثلما لا يداخله الشك فيَّ، فعلي أنا بالمقابل ألا أجعل من عروبتي أو إسلامي عائقاً بيننا. والآن لن يخفي عني، لقد استدرجني إلى بغداد كي يستغلني لتحقيق تقدم في مطاردة تنظيم القاعدة. ويحق لي الاعتقاد بعدم أخلاقية تصرفه. لكنه لن يمانع بإعادتي إلى بلدي لو غيرت رأيي. ما يجب أن أكون متأكداً منه، هو أن له مصلحة حقيقية في العمل على قضيتي.

كان غضبي قد بدأ يشتعل، قلت له:

«لن أعود إلى دمشق قبل أن أظفر على الأقل بخبرٍ يقين عن سامر، لن أتهور وأبدد فرصتي، لكن إذا توفرت لي فرصة الإقدام على خطوة تزيدني اقتراباً منه، فلا تتصور أنني أتردد».

هل للعسكريين ملامح موحدة؟! هكذا كنت أظن. لكن تلك البارقة أثبتت أنني على خطأ، أحسست لحظتها أنه أسقط تلك الملامح عنه، كانت تمليها عليه الرتبة التي يحملها. وأن هناك ملامح أخرى مختلفة تماماً، كانت ملامحه الحقيقية. أكدت تلك الهشاشة التي استشعرتها من قبل ونحن في الطائرة. كان أشبه بمن يطلب نجدة أو تأييداً، كان بحاجة إليَّ فعلاً، المحيّر أنني لم أعرف كنه هذه الحاجة، لكنه سيفسرها لي:

«لا تتصور الحياة مريحة هنا، أمارس عملي تحت ضغوط هائلة، لا شيء يرضيني، وإذا شعرت أحياناً بالرضا، فلكي أتحايل على عجزي وأكافئ نفسي بمقابل ما. أحسست مراراً بعبث ما أقوم به

من أعمال. ما تمنيت فعله هو الذي جاء بي إلى العراق. لكن ما حصل ويحصل ثبّط من عزيمتي. أكتب إلى زوجتي رسائل تحمل من الحيرة شيئاً لا علاقة له بأي يقين. أريد شخصاً أصارحه بما يقلقني، لا أطيق ما أفعله. تصور أنا أكذب عليها وعلى أولادي، ولا أتجرأ على مصارحة أحد في عملي بما يختلج في صدري».

أدهشني اعترافه، كان بحاجة إلى شخص يثق به كي يقول له إنه يكذب على زوجته وأولاده!! هل كنت بالمصادفة هذا الشخص؟ المصادفة الأخرى، كان كل منا بحاجة للآخر، وهذا ما وثّق الأواصر بيننا على الرغم من خلافاتنا واختلافاتنا، وإذا كان قد فتح لي قلبه، فأنا بالمقابل فتحت له قلبي، قلت له وأنا أشدد على كل كلمة:

«لدي مأساتي أنا أيضاً، إنني راغب في التعويض عن تقصيري حيال ابني».

«ولو كان في البحث عنه قضاء على حياتك؟».

«عندئذٍ سيكون التعويض ملائماً».

أثاره جوابي. وفي الوقت نفسه صفا الجو بيننا. أحسست أننا أصبحنا أصدقاء فعلاً. وبات بالإمكان ألا يخفي أحدنا شيئاً عن الآخر. كنا مأزومين في داخلنا، وإزاء بعضنا مغلوبين على أمرنا. وهذا ما سمح لي بالاسترخاء. وسمح له أيضاً بالكلام، فبثني بعضاً من همومه حول مجريات التحقيق الذي يقوم به:

الاصطدام لم يكن حادثة مرور عادية ولا عرضية، بل حادثة قد

ينجم عنها قضية كبيرة وخطيرة، لا يمكن البت فيها اعتباطياً، لذلك ماطلهم. تبين له خلال التحقيق الذي بدأ قبل يومين، وما زال يتعثر، أن السيارة التي تدهورت على مقربة من مدخل المنطقة الخضراء، كانت تسير بسرعة كبيرة جداً، تقل قائد المجموعة وهو ضابط برتبة كابتن والسائق ومعهم متعاقد مدني برفقتهم عميل عراقي، لم يكونوا مخمورين، كانوا مطاردين من الشرطة العراقية التي أُبلغت عن رجال اقتحموا أحد البيوت الواقعة على أطراف منطقة الضلوعية، فتشوا سكانه ثم أطلقوا النار عليهم وفروا هاربين. الشرطة العراقية ضبطت السيارة وعندما اقتربوا منها اكتشفوا أنها سيارة جيب أميركية طراز هامفي ومعها سيارة أخرى من الطراز نفسه تساندهما مدرعة برادلي تلحق بهما وتحرسهما عن بعد، اتصلوا برئيسهم فقال لهم تابعوهم، إياكم واعتراضهم. سائق عربة الجيب لاحظ أنهم يلاحقونه عن بعد، حاول الإفلات منهم، فزاد السرعة. عندما اقترب من المدخل، فقد السيطرة على السيارة واصطدم بالأعمدة الإسمنتية. فانقلبت الجيب بهم، بينما تجاوزتهم السيارة الثانية والمدرعة البرادلي وتابعتا السير نحو الداخل. حاول رجال الشرطة العراقية إنقاذهم، ساعدوا في نقل المصابين إلى الحاجز، تسلمهم رجال الإسعاف في مستشفى الوحدة الثامنة والعشرين داخل المنطقة الخضراء. مات اثنان؛ المتعاقد المدني والعميل العراقي على الفور، وبقي على قيد الحياة اثنان أحدهما في غيبوبة وهو الكابتن هاري كيتل، والسائق مصاب إصابة بالغة، لم يعش طويلاً، لفظ أنفاسه بعد يومين. عناصر سيارة الهامفي الثانية متعاقدون أمنيون من جنسيات مختلفة، تعدادهم أربعة أشخاص بينما عناصر المدرعة برادلي من الجنود الأميركيين، ، قالوا إنهم لم ينتبهوا لما حدث للجيب، إلا بعد

اجتيازهم المدخل، ظنوا أنه حادث بسيط، وأنكروا علاقتهم بأية مداهمة أو غارة حقيقية، مجرد عملية تدريب على إنذار وهمي. غير أن أقوالهم لم تكن مقنعة.

استعانت الشرطة العراقية بسرية من الجيش، أحاطوا بالمنزل الذي ارتكبت فيه الجريمة، وجرى نقل جثث الضحايا إلى المستشفى. كان عددهم ثمانية، رجلان وامرأة، وثلاثة صبيان أكبرهم في السادسة عشرة من عمره وأصغرهم رضيع، وفتاتان الأولى في الخامسة عشرة من عمرها والثانية تصغرها بسنتين.

من التجاوز القول إنها كانت أجساداً بشرية، كانت من فرط ما عوملت بقسوة، وما أصابها من تنكيل بشع، تثير التقزز والإقياء، وتبعث على الرعب لمجرد التفكير بما تعرضت إليه من تعذيب همجي، كان ظاهراً على الرجلين والمرأة، آثار حروق على الوجه والأعضاء الحساسة. الرجل الأكبر وهو الجد، عجوز تجاوز الثمانين من العمر، مات بعد أن تلقى عدة ضربات متوالية على صدغه بعقب بندقية أطاحت بعينه اليمنى وفتحت فجوة في رأسه كشفت عن نخاع الجمجمة، وكانت القاضية. أما الرجل وزوجته فقد ماتا ذبحاً بعد أن وجهت إليهما في الخاصرة طعنات عميقة بالحربة. الرجل بُقر بطنه، والمرأة جُزَّ ثدياها، والصبيان أعدما رمياً بالرصاص، أما الفتاتان فتم التمثيل بأعضائهن التناسلية بعد قتلهما خنقاً.

أما لماذا ارتكبت هذه الجريمة الشنيعة؟! وما الهدف منها؟! فالأمر مجهول، وليس كما حاولوا الإيحاء به، بما كتب على الجدران بالخط الأسود العريض «اقتل العملاء قبل الأميركان»، الأب الشيخ

ليس في وارد العمالة للاحتلال، بل كان ضده، كما أن العائلة بسيطة ورقيقة الحال لا توحي بأي نشاط غير عادي يثير الشكوك، إذاً لماذا كل هذا التشنيع؟ إذا كان العميل العراقي قد ورط المجموعة بعملية نهب، فالعائلة لم تكن ثرية. وإذا كانت عملية مداهمة، فلماذا لم يحصلوا على إذن، أو يبلغوا عنها؟ بالعكس، ابتدعوا فكرة التدريب، لأنه لا يحق لهم شن غارة إلا بعد الموافقة عليها.

هل ينجم عن عملية تدريب قتل عائلة بكاملها؟!

قطع حديثنا قدوم جوناثان، كان سيرافق الميجور إلى التحقيق، فدعوته إلى فنجان قهوة، جلس إلى جانب ميللر، وكان مهتاجاً، أبلغه بأن ما كان يخشاه قد وقع، حاول الاتصال ثانية ببعض أهالي الأولاد في أحد أحياء مدينة الصدر، فوردته أخبار اليوم بأن أولاداً ثلاثة اختطفوا البارحة من صالة للألعاب يلبسون جينزات ضيقة يُعتقد أنهم شواذ، تعرضوا للتعذيب ونقلوا إلى مستشفى قريب بحالة سيئة يعانون من كسور في الأيدي والأرجل، الأطباء رفضوا معالجتهم خوفاً على أنفسهم، فأسعفوا إلى مستشفى أخرى بعيدة في بغداد. اهتمت لجنة حقوق الإنسان بأمرهم، وكلفت مندوبة تدعى ديمي فريمان بالذهاب إلى المنطقة الخضراء، كان الوقت ليلاً، لم يتمكن من مقابلتها فاتصلت به.

«لم تصدق أننا نريد حمايتهم، قلت لها معلوماتنا ضئيلة ولا تسمح لنا بالتحرك بسرعة، فوعدتني بأن توافيني بمعلومات وافية عنهم، على أن يتم تأمين حماية للمسعفين من الأولاد خلال ساعات».

طوال الليل وهو يحاول الاتصال بمسؤولين في وزارة الداخلية لإرسال قوة إلى المستشفى، وعدوه ولم ينفذوا، لم يعرف هذا إلا قبل قليل عندما اجتمع بالمنتدبة فريمان، كانت تحمل أخباراً جديدة، حراس الشريعة أجهزوا على الأولاد في المستشفى.

«لا بد من تجهيز قوة للبحث عن البقية قبل أن يلاقوا المصير نفسه».

لم يستطع ميللر أن يعطيه وعداً، الفصيل مع المدربين تحت التحقيق، لكنه سيتصل بالكولونيل ضابط الارتباط، ويسأله فيما إذا كانوا جادين حسب زعمهم بإنقاذ الأولاد.

قبل أن يغادر مع معاونه، وعدني الميجور بالقدوم غداً مساء إلى الفندق. لديه مشاغل سينجزها اليوم، أو غداً على أبعد تقدير، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا ببذل جهد كبير. سيبذله ولن يوفره من أجلي.

لحظة خروجهما من المدخل، عثرت على ما استلفت اهتمامي في رسالة سناء، كان إلحاحها على شيء عبرت عنه بشكل مفزع: (العذاب الحقيقي أن يكون لدى المرء المقدرة على أن يهب الحياة، لكن الظروف لا تسمح له سوى بالقتل!!).

ما الذي تقصده بكلماتها هذه؟!

سارعت إلى كتابة رسالة لها، قبل لقائي بفاضل.

الرسالة الخامسة

(أقلقتِني، ما الذي تخفينه عني؟

لم أفهم شيئاً من رسالتك، لا سيما فكرتك عن العذاب الحقيقي!!

رجاءً لا تلميحات.

تعلمين، لا أسرار بيننا.

مهما كان هذا الشيء، أريد مشاركتك به).

□□□

لن أرى الميجور ثانية، قبل أن أعبر إلى الجحيم العراقي.

طوال جولتنا، أنا وفاضل، لم يتميز مستشفى عن آخر إلا بالاسم، تشابهت الردهات والممرات والأطباء والممرضون والممرضات

والموتى والجرحى... وهلع الأهالي ونحيبهم. القاعات تضج بصرخات رجال ونساء نجوا من الموت السريع بالقنابل والصواريخ الأميركية، وهم الآن يعانون من الموت البطيء، جراحهم تنزف دماً وقيحاً. مصابون بترت الشظايا لهم ساقاً أو يداً، وأطفال خلفت لهم حروقاً من الدرجة الأولى والثانية، وثمة أطفال، منهم الموتى، ومنهم من كان غائباً عن الوعي يحتضر بصمت.

تنقلنا بين الأسرّة، شبان أصيبوا إصابات بالغة، جرى إسعافهم بجراحات متعجلة من دون تلقي أي مسكّن للألم، الأجساد والرؤوس ملفوفة بالشاش، المحاقن مزروعة في أيديهم. بعض جرحى الإصابات والكسور غير المميتة افترشوا الأرض لعدم توفر أسرة كافية. الأطفال تحجّر الذعر على وجوههم، نساء عجائز يهذين بشفاه شققها الجفاف، رجال كبار في السن يئنون من الألم... جاؤوا بهم في حالة متردية من سوق أو مطعم أو مركز تطوع، وبعضهم كان في عرس أو جنازة، إثر هجوم أميركي، أو هجمة انتحارية أو تفجير سيارة مفخخة.

أريتهم صورة سامر، وسألت هؤلاء الذين ما زال بإمكانهم أن يحدقوا إلى الفراغ ويتذكروا شيئاً ما من خلال الحرائق والدخان والرماد، هل وقع بصرهم على هذا الشاب؟

«حاولوا أن تتخيلوه بلحية».

ترى هل رأوا شاباً يكشف عن صدره، فإذا به يلف حول خصره حزاماً ناسفاً، يكبس على زر، فيتناثر إلى أشلاء، بينما اشتعل الفضاء بألسنة اللهب؟

لم يتذكروا سوى الطائرات التي انقضّت عليهم، والهلع الذي أطار صوابهم.

الأهالي متجمعون كل ثلاثة أو أربعة يبربرون بأصوات مبحوحة، وجوههم شاحبة وهم يحبسون دموعهم، جاؤوا يبحثون عن أب، أم، أخ، أو ولد، إن كانوا أحياء، أو أمواتاً قبل نقلهم إلى المشرحة، يتفحصون الجثث المشوهة، عسى يعثرون فيها على شيء يشبه ما تبقى من ملامح وجه فقيدهم، أو جسده، ربما عين، شارب، أسنان، أذن، مرفق، ركبة، خنصر أو إبهام، أو علامة فارقة على ساعد أو صدر، أو عانة.

توقفنا مع طبيب، كان صديق فاضل. انسحب لتوه من تجمع لأقرباء يواسون أباً وأماً برفقة ولديهما المشوهين، كانت أطرافهما محروقة وقد تفحم الجلد، جراء غارة بالطائرات، وأصيبوا بطريق الخطأ وهم يعملون في الحقل.

«لن ينقضي اليوم حتى يفارقا الحياة».

دارى الطبيب وجهه عنهم وهو يقولها هامساً، وطلب من الممرض إبلاغهم بالرحيل اليوم:

«أن يموتوا في بيوتهم أفضل».

شبان يتشاورون فيما بينهم، اشتبهوا بجثة على أنها لأخيهم الأكبر، فقدوه في تفجير فرن، لم يبق منها سوى الجذع والساق، الجذع يكاد يكون له، أما الساق فلا!! استوقفوا الطبيب وسألوه. قال لهم، ربما التوت أو التصق بها شيء من جثة أخرى. نصحهم

أن يأخذوا الجثة معهم ويدفنوها حتى لو لم تكن لأخيهم. قبل أشهر، أخذت أم جثة ولدها، ولم تكن تزيد على كتلة من اللحم المحروق، تراءى لها أنه ابنها البالغ من العمر أربعة عشرة عاماً. كانت غير متأكدة فيما إذا كان ابنها. قالت، على الأقل تصبح لدي شاهد قبر أبكي عندها.

«تعلمنا من هذه الأم، ونصحنا الكثيرين هذه النصيحة ونجحت مع بعضهم».

طفل في حوالي العاشرة من عمره يده مقطوعة، كان يسأل أمه وأباه وأخوته عنها، كانوا حول سريره يمنعون أنفسهم عن البكاء، لا أحد منهم يتجرأ على إخباره بأن ذراعه المقطوعة كانت إلى جواره ملفوفة بالشاش في داخل كيس. طفل يزحف على الأرض، جاؤوا به مع امرأة قتيلة من ساحة سوق الخضار إثر انفجار قبل عشرة أيام، لم يطالب به أحد حتى الآن؛ تقاسمت الممرضات إطعامه والعناية به، المسكين ما زال يبحث عن أمه. إلى الجدار استندت امرأة صغيرة لا يزيد عمرها على عشرين عاماً، تبكي وإلى جوارها شاب يبكي هو الآخر، كانت قد وضعت في شهرها السابع صبياً خديجاً. الكهرباء انقطعت، لم يعمل مولد الكهرباء أكثر من نصف ساعة ثم تعطل، فمات وليدها في الحاضنة.

«كل شيء معطل، جهاز الصدمة الكهربائية، جهاز التنفس الصناعي، ولا معدات لنقل الدم، أو أجهزة لقياس الضغط».

لا شيء في المستشفى نظيف. روائح الدم والقيء والبراز والوخم تعبق في الدهاليز، لا تفلح الأبواب والنوافذ المفتوحة في طردها. أغطية الأسرة متسخة، اختلط بياضها الكالح بالوحل والهباب،

الأرضيات قذرة ملطخة بالسخام، المراحيض فائضة بمياه المجاري. رفوف الصيدلية خاوية.

«لا أدوية ولا أدوات معقمة، أو محاقن للأدرينالين».

في غرفة الطوارئ، بضع نقالات مضمخة بدماء متخثرة، لونها ضارب إلى السواد. غرف العمليات تفتقر إلى الأدوات الجراحية. والجثث مخزّنة من دون تبريد.

«طالبنا بزيادة عدد غرف التبريد ثلاثة أضعاف بعدما اضطررنا إلى تكديس ٢٥ جثة في كل غرفة، بينما هي تتسع لعشر».

كانت حرب الجثث قد تفاقمت منذ أربعة أشهر.

في الليل تغرق بغداد في الظلام ومنع التجول، لا تتحرك فيها سوى دوريات الأمن بشكل محدود ومن دون جدوى. فرق الموت تستبيحها، تشاركها ميليشيات مسلحة يرتدي عناصرها لباس مغاوير الداخلية ويعتمرون الكوفية السوداء، يرتكبون جرائمهم بالزي الرسمي حرصاً على الشرعية. بينما الميليشيات الإسلامية الأصولية تنقّب عن ضحايا جدد، ولا يخلو الليل من شبان يسعون للانتقام لأخ أو أب، وآخرين للترويع، أو لتصفية حسابات قديمة...

تجمع الشرطة الجثث المنتشلة من الأنهار والمستنقعات والساحات البعيدة، من تحت الجسور المهجورة ومكبات القمامة، ، أو تبرز صباحاً من بين أكياس الزبالة والنفايات وتنقل إلى مشرحة بغداد؛ ضباط سابقون في الجيش، أساتذة جامعات، علماء، أطباء

اختصاصيون، مشايخ دين، عمال نظافة... التمثيل بالجثث والقتل يراوح بين الذبح والخنق والسحل واستخدام المثقاب الكهربائي.

«اليوم جلبوا إلينا أربعة شبان، عثروا على جثثهم طافية في نهر دجلة، تعرضوا للضرب المبرح، كُوي بعضهم بالمكواة الكهربائية، ثم أُجهز عليهم برصاصات في الرأس. اُختُطفوا البارحة مساء من حي أبو دشير الشعبي حوالي الساعة العاشرة، واقتيدوا مع عشرة شبان إلى مكان مجهول، لم يعترضهم أحد مع أنهم مروا أمام سيطرة تابعة لشرطة الحكومة الانتقالية، ربما كانوا بحمايتها. بقية الشبان لم يعرف مصيرهم بعد».

لا يستأثر حي معين بالقتل على الهوية.

«يمكن العثور على الجثث في الأعظمية والكاظمية، أو في منطقة الشعلة والصدر والزعفرانية وجسر ديالى والدورة. بقية المناطق أيضاً ترفدنا بالكثير من الجثث».

حسب دورات العنف ومواسم الغليان المذهبي.

وفي النهار يتصيدون مترجمين لجيوش التحالف والشركات الأجنبية، سائقين، وعمالاً وأناساً وجدوا بمحض المصادفة في المكان الخطأ.

«منظمة القاعدة مصرة على استهداف المتطوعين في أجهزة الأمن من أي طائفة كانوا. وميليشيات الأحزاب الحاكمة أخذت على عاتقها مهمة اجتثاث البعث، تقوم باختطاف البعثيين السابقين من بيوتهم ومن الدوائر الحكومية والمؤسسات والمدارس والجامعات،

وإعدامهم سواء كانوا من المسؤولين الكبار أو الصغار سابقاً في الحزب».

لم يكن في نيتي الذهاب إلى أبعد، ولا أن أعرف أكثر. ومع هذا عندما قال فاضل سنتابع طريقنا إلى مشرحة بغداد، لم أمانع.

طالعتنا قبل أن ندخل أكوام الجثث في الخلاء خارج المشرحة، مغطاة بأغطية زرقاء، تتفسخ تحت الشمس. الى جوارها توقفت شاحنة مكشوفة الصندوق، تحمل ضحايا انفجارات محطة النهضة الذين لم يتعرف إليهم أحد البارحة، تجمّع حولها بعض الأشخاص، اعتلاها أحدهم ثم نزل مخطوف اللون متعثراً، كان يبحث عن أمه وأخته، لم يفلح، جميع الجثث عبارة عن جذوع سوداء يصعب التعرف إليها.

أمام الباب خيم اللغط والذهول والحيرة، الحرّ تمدد وأصبح كتلة ضخمة من لهيب حارق، يرزح تحتها الأهالي المتجمعون كأنهم في فرن حار، رطب ودبق، محتقني الملامح، يشكون لبعضهم بعضاً مصائبهم، تواسيهم شراكتهم بفجيعة لا راد لها مقبلة، يتبادلون الهوان وقد تملكهم إحساس بالتآزر، يُعززه النشيج والنهنهات والزفرات، يلتقطون أنفاسهم، يكفكفون دموعهم، ويستعينون على القضاء والقدر، بالله جل جلاله، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والإمام علي رضي الله عنه.

«ألا إلى الله تصير الأمور. صدق الله العظيم». غمغم رجل عجوز أقعى على الأرض، يرمق الحشد بعينين غائرتين.

امرأة تلفعت بالسواد حزناً على زوجها وولديها، كانوا في سيارتهم

الخاصة خلال عودتهم من متجرهم في شارع الرشيد، قتلوا عند حاجز أميركي، وجدت السيارة إلى جانب الطريق ممتلئة بالثقوب، لكن لا أثر لهم. منذ ثلاثة أيام وهي تجلس أمام المشرحة منذ الصباح الباكر حتى الساعات الأولى من المساء بانتظار تسلّم جثثهم بعد أن استدلّ عليها موظف وفق العلامات التي حددتها له، لكن تزايد أعداد القتلى عرقل عملية التسليم. وأخرى قُتلت ابنتها وزوجها ولم تنجح في العثور على جثتيهما رغم مرور أسابيع على وقوع الحادث. إلى جوارها رجل قتل شقيقاه في منطقة الدورة عندما اعترضت جماعة مسلحة حافلة كانت تقلهما إلى الجامعة وأعدمت جميع من فيها. شاب لم يعثر على جسد أبيه، عثر على رأسه، ضمه إلى صدره وأخذ يبكي، خلع قميصه ولفه به، سيدفنه بلا جسد.

فجأة، تعالى صوت نواح هيستيري، غلبت فورة الحزن عجوزاً برفقة ولديها تسلمت للتو ابنها وقد تهشمت جمجمته، فصرخت بقلب انفطر من الألم، تطالب أخويه بالثأر له. نظر الواقفون إلى العجوز بحسد، لقد وجدت ابنها.

يتوارد يومياً المئات من الرجال والنساء من أهالي بغداد والمحافظات الأخرى، إلى المشرحة المركزية لتسلم جثة قريب لهم، إذا كان معلوم الهوية؛ يحملونها معهم عائدين بها لإقامة العزاء. وآخرون لا يجدون أقرباءهم، فيعودون بلا جثة، بعض القتلة يتلذذون بحرمان ذوي القتلى حتى من جثثهم.

غالبية الواقفين ينتظرون الحصول على إذن بالبحث بين الجثث في زوايا وممرات بناية صغيرة، تدعى «الثلاجة» رغم أنها شبه مبردة،

تسكنها رائحة الجثث المنتفخة والمتفسخة. الجثث مرصوفة كيفما اتفق، يحتضن بعضها بعضاً بوئام طائفي وحزبي وديني، الشيعي والسني والمسيحي والبعثي والملحد، لا أفضلية ولا تمييز، دون أي فرز على الهوية أو المذهب، كلهم في الموت سواسية.

وجدت لي مكاناً أمام شباك من الحديد مع كثيرين من المتجمهرين اللحوحين، يتأملون الصور الملتقطة لضحايا مجهولي الهوية، يتصفحون ما تبقى من شقيق أو أب أو ابن، يعرضها موظف مرهق الملامح على جهاز كومبيوتر. أغلب الضحايا من الشبان والرجال الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٥ و٣٥ سنة.

صرخ شاب صغير السن، وضرب جبينه، عندما رأى صورة أخيه مقلوع العينين، وأخذ يقفز كالمجنون من على الأرض وهو يلطم وجهه بيديه:

«حامد، ويلي عليك».

ثم انتحى إلى جوار الحائط يبكي ويضرب صدره بقبضتيه. نهره شاب بجواره:

«انتقم له بدل أن تبكي عليه».

في فسحة الانتظار، دارت أحاديث الشبان حول الأساليب التي اتبعوها لتفويت الفرصة على الميليشيات في إخفاء ملامح الضحايا وتشويهها، بعضهم عمدوا إلى وشم أسمائهم وأرقام هواتف أهلهم وأقربائهم على أجسادهم ليتمكنوا من التعرف إليهم في حالة قتلوا، لن تعتبر جثثهم مجهولة الهوية، فتدفن في مقابر الغرباء.

في الطرف المقابل، جماعة من الرجال يخرجون الجثث من الثلاجة بسبب قدوم أخرى، لا يُسمح للجثث المجهولة الهوية بالإقامة طويلاً، الليلة التالية ستحمل المزيد. فتعطى كل جثة رقماً، وتوضع في أكياس خضراء، تكدس بعضها فوق بعض في شاحنة كبيرة، لتنطلق بهم إلى مقبرة النجف.

حارس بوابة ثلاجة الموتى يسلم الجثث، بعدما صنفها حسب الطريقة التي قتلت بها، فهذا أبو الدريل وذاك المشنوق وآخر المحروق أو مفقوء العين. أو جماعياً: جماعة المفخخة وجماعة الكيا وجماعة أبو غريب...

رجل بدين وقصير ذو رأس كبير، يتسلم الجثث، يحملها ويرفعها إلى الشاحنة، يتناولها منه رجل عريض الكتفين مقرفص في المؤخرة، ويضعها إلى جانب أو فوق من سبقها. سقطت يد من حمولة الرجل ذي الرأس الكبير، فأزاحها بقدمه ريثما رفع الجثة، ثم انحنى على الأرض تناول اليد وقذفها داخل الشاحنة.

لجنة من المتطوعين من الوقفين السني والشيعي أخذت على عاتقها مهمة تسلم الجثث ونقلها ودفنها. لا يبتغون سوى الأجر والثواب بصرف النظر عن هويتها، تُدفن في مقبرة خصصت للغرباء في النجف بين آلاف القبور المتشابهة لا تحمل سوى أرقام خطت على شواخص طينية حتى يتمكن ذووها من العثور عليها.

سواء الذين حالفهم الحظ ووجدوا جثث أقربائهم، أو أولئك الذين لم يحالفهم، لا شيء يُنسي الأم ابنها، ولا الأخ أخاه، لكن تكسر قلوبهم تلك البلادة التي يعامل بها أحبابهم، وتواسيهم مأساة تفوق

مأساتهم، وفجيعة لا تماثلها فجيعتهم، مبذولة في المشرحة لا تخفي تنكيلاً وأحقاداً لا يمكن غفرانها: جثث مقطوعة الرأس، رؤوس محفورة، وأخرى مشوهة، وثالثة لم يتبق من معالمها شيء واضح. بالأمس فقط رأوا جثة شاب بلا رأس ومنفوخ البطن، كان الرأس قد قُطع ووضع داخل البطن؛ وفتاة عارية اقتلعوا عينيها وثبتوا حدقتيها في راحتي يديها بالبراغي وشوهوا جسدها بالحروق.

صار التمثيل بالجثث مجالاً للتفنن في تشويهها، تتنافس عليه الجماعات المتقاتلة.

الرسالة السادسة

(قمت بجولة مروعة في المستشفيات والأسوأ في المشرحة، بحثاً عن سامر.

لن أخبرك بما رأيته.

الموت العادي لم يصادفني،

أصبح نعمة يصعب الظفر بها.

لا تسأليني لماذا تابعت هذه الجولة.

يستحيل تخيل مقدار الجنون اللازم لفعل هذا الشر الهائل.

القسوة البشرية لا حدود لها.

هذه الجولة، كانت ضرورية، كي أنقم على نفسي.

وأرى إلى أي حد أنا مسؤول عما يجري.

حمدت الله على أن أحداً لم يتعرف إلى صورة سامر. وإن تصورت ما يمكن أن يقوم به، وما قد يخلفه وراءه من أشباه هؤلاء الضحايا.

ومع هذا تمنيت في أكثر من لحظة، تجاوزت فيها أبوتي، أن أعثر عليه، ميتاً ومشوهاً؛ وأن يكون القتيل لا القاتل.

تصوري إلى أي حد آذاني هذا الذي رأيته.

كم أنا قانط).

□□□

هل كانت هذه الرسالة هي الصادقة الوحيدة التي أرسلتها حتى الآن؟ نعم.

قضيت النهار في غرفتي مغموماً ومشلولاً، وغادرتها مساء عندما اقترب موعدي مع ميللر. كنت بحاجة إلى الترويح عن نفسي. اقترحت عليه التنزه في ممرات حدائق فندق الرشيد الجميلة والفسيحة، هذا ما سمعته عنها. لكن ما رأيته كان ما تبقى منها، نوافير المياه لا تعمل، الأحواض فارغة، شجيرات الآس يابسة، الجداول المبطنة بالحجر الأسود اللامع جافة، أما التمثال الكاحت للصياد وعروس البحر، فبدا وكأنه على كتف قرية فقيرة على شاطئ كالح.

لم نتكلم، كانت نزهة بائسة.

جلسنا في الصالة، الإضاءة خافتة، وبعضها معطل بسبب ترشيد الطاقة الكهربائية. اضطررنا إلى تغيير الكراسي، كانت مخلعة. على الجدار ترك الأميركان بصمتهم «المارينز مروا من هنا»، بينما على الإفريز العلوي للصالة، قرأت كلمات من قصيدة سطرت بالسيراميك **«ليت هنداً انجزتنا ما تعد»**؛ حروفها بهت لونها.

كل ما حولنا يوحي بالدعة والهدوء، لا يعكره سوى لغط موسيقى تأتي من بعيد، تسللت ربما من ملهى الفندق، قال الميجور ولم يكن على ما يرام:

«إنها موسيقى الكاريوكي، هل تعجبك؟».

«لا».

«وأنا أيضاً».

سألني عن جولتي البارحة، فقلت له، كانت سيئة.

الخبر السار هو أنه حصل على تكليف بالعمل على قضيتي، حسب شروطه، ستكون حكراً عليه، دون الآخرين، وفي حال استعانته بأي جهاز فسوف يعمل تحت إمرته؛ امتياز لم يحصل عليه سابقاً في قضايا أخرى. من قبل عانى من جراء تعدد الأوامر والتعليمات، غالباً يحصل تضارب بين الأجهزة، ومثلما يتنازعون على النجاح، يتنصلون من الفشل. وهو الآن في سبيله إلى إعداد خطة للاتصال مع تنظيم القاعدة وتسريب خبر إليهم عن وجودي في بغداد، لتدبير لقاء بيني وبين سامر. الخطة ستأخذ زمناً لا بأس به، لكي تنضج تماماً. وعلى الرغم من هذه البشارة والتطمينات

اضطر آسفاً إلى تأجيل العمل عليها قليلاً من الوقت!! ولم يكن غافلاً عن أن الامتياز والتسهيلات التي حصل عليها من أجل قضيتي، كانت عبارة عن رشوة للتعجيل في إنهاء التحقيق العالق بين يديه، لذا لا بد أن يُحسن المناورة.

لقد أصبحت لدية أدلة قاطعة، مكتب الدخول في المنطقة الخضراء، سجل خروج سيارتي الجيب وعربة البرادلي على عدة أيام متوالية، قبل منتصف الليل وعودتهم مع الفجر، وكانوا مدججين بالرشاشات طراز M-4 المزودة بمناظير تعمل بأشعة الليزر. وأدلى شهود متفرقون أنهم شاهدوهم منطلقين بسرعة على طريق بغداد الرئيسي ومصابيح سياراتهم مطفأة. وتم إثبات وصولهم إلى القرية من خلال أقوال شهود العيان، ودخول عناصر سيارتي الجيب إلى البيت، وبقائهم حوالي ساعتين، بينما عناصر البرادلي في الخارج يقومون بالحراسة والمراقبة.

حتى الآن لم يعثر على دافع للقتل، ولم يقرّ أحد بالجريمة، وإذا كان الجنود قد اعتصموا بالصمت بحجة أنهم لم يقوموا بأي عمل مناف للقانون، فإن المتعاقدين المدنيين كانوا وقحين، عندما واجههم بأنهم تلقوا قبل أن يلتحقوا بوحدته، تنبيهات شديدة اللهجة تحذرهم من اللجوء إلى استعمال القوة المفرطة، حسب معلومات تفيد بأنهم تسببوا بقتل عراقيين لمجرد أن أسلحتهم ملقمة، وهدموا بيوت عائلات مشتبه بانتساب أحد أفرادها إلى المقاومة. دافعوا عن أنفسهم بفظاظة، إذا كنتم حريصين على حياة العراقيين، فاستعيضوا عنا بقوات الأمم المتحدة لحفظ السلام، وإذا أردتم أن تشفقوا عليهم فعليكم بالإرساليات المسيحية. أما هدم البيوت، فتبعاً لما هو متعارف

عليه في الحروب، كان لحرمان العدو من المأوى. لم يكتفوا بهذا، بل تطاولوا عليه ساخرين:

«ما الذي يروق لك في هؤلاء الحجيين والحجيات؟!».

كان هذا التعبير المفضل والأكثر إهانة الذي اعتاد المرتزقة والمارينز استعماله للإشارة باحتقار إلى العراقيين والعراقيات.

«هل تقصد أنهم غير بشر؟».

«إنهم لايشبهوننا. لايحزنون مثلنا عندما يموت أحدهم».

كان حزن المارينز على صديق يُقتل في الاشتباكات، يعني فتح النار على الأطفال والنساء والشيوخ، وقد يصل الأمر إلى حرق حي أو تدمير بناية بكاملها، وربما قرية.

«لأنكم لا تعطونهم الفرصة كي يحزنوا».

المحير، وقوعه تحت ضغوط من عدة جهات، تحثه على إنهاء التحقيق بأي شكل كان، قبل أن تعلم به الصحافة، ويأخذ حجماً غير مرغوب فيه، لا بأس في مراعاة أصول التحقيق على أن تكون شكلية، موظفو الشركات الأمنية بمنأى عن أية ملاحقة قانونية ولو كانت استعراضية، لتمتعهم بالحصانة ضد الإجراءات القضائية.

اليوم استدعاه الكولونيل مدير مكتب الارتباط مع شركات المتعاقدين الأمنيين في المنطقة الخضراء، وحاول إقناعه بأن عناصر مجموعة شركة ميترا كورب لا يريدون قتل أناس أبرياء، يعرف أنهم ربما كانوا قذرين وذوي ماض سيئ، لكن مهما كان

هذا الماضي، فلن يتسلوا بالقتل، من الممكن مصادفة بضعة أشخاص على هذه الشاكلة، لكن أن يتفق ما يزيد على عشرة أشخاص على قتل عائلة دونما سبب، فهذا مستحيل.

كانت فكرة ميللر عن المجزرة أن الفاعلين أرادوا القيام بعمل ترفيهي، بالتدريب على المداهمات، وربما الحصول على بعض المغانم المادية، لا سيما إذا أقنعهم العميل العراقي بأن الرجل الأب شريك في عمليات تهريب الأسلحة أو يعمل مع المتمردين. إذا كان الأمر قد استدعى القتل، لكن لماذا التعذيب والتشويه؟!

«جريمتهم تتعدى التجاوز في استعمال القوة».

فاستشاط الكولونيل غضباً:

«ميللر، إذا كانت هناك جريمة فقد ارتكبت في العراق، وليس في أميركا. العراق ميدان مفتوح للحرب والأخطاء واردة».

كان المطلوب إنهاء التحقيق فوراً، فطلب مهلة إضافية لا تتجاوز ثلاثة أيام، خلالها يعاين موقع الجريمة شخصياً، قبل المصادقة على التقرير حول الواقعة، بعد ذلك يُفرج عن الجثث التي في البراد، ويجري دفنها في اليوم نفسه، بعد الصلاة عليها حسب العادات الإسلامية. ثم يسلمه النتائج، وينفض يديه من القضية، تاركاً له حرية التصرف.

لم يدهشني أن يبوح لي ميللر بشكوكه، لكنه أدهشني عندما التفت نحوي وقال كأنه يشهدني على ما سيقوم به:

«لن يمنعني شيء، سأمضي في التحقيق إلى النهاية».

وإذا كان قد أطلعني على نتائج تحقيق كان سرياً، غير أنه لا سر يصمد في بغداد أكثر من أيام، ريثما ينكشف ويتداول في الإعلام. أما عزمه على المضي إلى النهاية، فشجاعة واهمة، هل هناك عدالة من أجل العراقيين؟! كان يحاول إقناعي بمهمته كقاض، وأن العدالة تقتص من الجميع من دون تمييز. لا، ليس هناك مجال لتحقيق نزيه، وإذا كان، فالنزاهة ستكون في أدنى درجاتها، وتتوقف عند حد لن تتعداه أبداً. لم أكن مخطئاً في ظنوني، لكنني بالغت بها.

«ريتشارد ما الذي تحاول إقناعي به؟!».

نظر إليّ مستهجناً تساؤلي ولم يعقب. بعد أيام أدركت معنى نظرته، لم يكن في وارد إقناعي، وإن كان من العسير عليّ أن أصدق أن ضابطاً في الجيش الأميركي، يبتغي العدالة للعدالة. عزوت تطرفه المؤقت إلى اشمئزازه من المتعاقدين المدنيين، حسب رأيه كان يقاتل من أجل المبادئ، أما هم فمن أجل المال.

لذلك شعر بالمرارة إزاء تساؤلي، ورد عليّ:

«ماذا تكون هذه الديموقراطية إزاء قتل عائلة ولو كان بطريق الخطأ؟».

- لم يكن ميللر بنظري أكثر من رجل عسكري يؤدي مهماته بأمانة وينفذها بدقة، إلى حد الوسواس، ولم أكن مجانباً الصواب. ولا

أدري إلى أي حد ابتعدت عن الحقيقة، في الاعتقاد بأن ما استحوذ عليه، كان مفاهيم مثالية عن الوطن والشرف والواجب. كما بدا لي، كان العراق بالنسبة إليه، فرصة لإثبات هذه المفاهيم، وكان مخدوعاً في حينها بتصريحات الرئيس الأميركي عن الحرية ونشر الديموقراطية، دون أن يثير في ذهنه هذا اللغو أنه مهما كانت المبررات فهي تتعارض مع قتل الآلاف من البشر، بل وبدت له مهمته القتالية في منتهى الإنسانية، واعتقدَ صادقاً أننا نحن العرب سوف نستفيد من هذه المنحة الكريمة. ولهذا كان شديد الانتقاد لما خالطها من فساد، خاصة أن يباع شرف هذه الحرب العادلة للمرتزقة.

الرسالة السابعة

(هل يجب أن أشعر بالذنب، أم بالغباء لأنني لم أفهم تلميحاتكِ؟

لست في ظرف يسمح لي بتفكيك هذا اللغز.

على كل حال، ما جئت من أجله بات التحرك نحوه لا الوصول إليه ميؤوساً منه. ظهرت عوائق لم تكن بالحسبان.

الوقت لا يساعدني.

إذا قام سامر بخطوة واحدة، أكون خسرت كل شيء.

كل ما أستطيع قوله لكِ، لا تربطي مصيرك بمصيري.

مصيري أنا أجهله).

□□□

لاحت وزارة الدفاع ببنائها الجميل المهيب معتقلة بالأسلاك الشائكة والدبابات والمصفحات الأميركية، كانت نهاية شارع الرشيد، لكنها لم تكن ختام جولتنا التي تكاد أن تكون يومية، الختام كان من المفترض أن يكون على مقربة من سوق المتنبي إلى حيث دعاني فاضل لتناول الغداء في مطعم كبة السرّاي المشهور. غير أن العلاّس وضع حداً لها، بعد خروجنا من المقهى وتوجهنا إلى المطعم.

دفعني فاضل بكتفه فجأة، وشدني من ذراعي نحو الاتجاه المعاكس. سايرته مرغماً وركضت معه وسط البشر غير المبالين. كان ممسكاً بي بخشونة وقوة، اعتقدت أنه يجرني متوقعاً انفجار عبوة ناسفة. تلفّت خلفه، ثم توقف، وكأن هناك من أبطل مفعولها. قبل أن أسأله عن سر هرولتنا، سمعته يقول:

«ألم تلاحظ أننا مراقبان؟».

اعتقدت أن الميجور وضعني تحت المراقبة.

«لا يهم».

«بل يهم، كنتَ مراقباً من العلاس».

لم يكن العلاس سوى مصطلح عراقي شائع يطلق على الواشي الذي يختار هدفاً بشرياً يجمع المعلومات عنه، على أن يكون من الأشخاص المحبذ خطفهم، المستحسن أن يكون أجنبياً، سواء كان عسكرياً، أو مرتزقاً، أو صحافياً، أوعراقياً موالياً للاحتلال، ولا بأس إن كان تاجراً أو أستاذ جامعة، أو ولداً لعائلة غنية أو متوسطة الحال.

يبيع العلاس الهدف لإحدى عصابات الخطف، والسعر يخضع للعرض والطلب، تقرره الكثرة والندرة وصفة المخطوف. تقوم العصابة باختطاف الهدف وتعرضه للبيع على جهة أو عدة جهات، ويصبح من نصيب من يدفع السعر الأعلى سواء كان من جماعات المقاومة الإسلامية، أو القاعدة، أو ميليشيا أحد الأحزاب الشيعية أو السنية، وربما وسيط لجهاز استخبارات أجنبي.

«تبدأ رحلة الهدف من العلاس إلى الخطاف، فجماعة تطالب بالفدية وتهدد بقتله، وتساوم عليه. أما إذا كان حظه سيئاً، فإلى الذباح».

تذكرت الرجل الذي مشى إلى جواري وجارت خطواته خطواتي. خطر لي حينها، أنه لو اقترب مني وحاول أن يهمس في أذني، فسأمسكه ولن أفلته، لكنه التفت برأسه نحوي، نظر إليَّ، ثم تابع سيره، لم ألتفت إليه بعد ذلك؛ كان العلاس.

«لا بد أنه سمع لهجتك، استرعت انتباهه ملامحك وملابسك. لاحظ أنك لست عراقياً. وفي حال كان قد رآك تخرج من المنطقة الخضراء، فقد أيقن أنه عثر على صيد ثمين».

«إذاً ما زال في مرحلة جمع المعلومات عني».

«حاول أن يلتقط صورة لك بجهاز الموبايل، فدفعتك، لا أظن أنني تأخرت، أرجو ألا يكون قد صوّرك».

- إذا نجح العلاس بتصويري، فقد أمسيت عملة متداولة في أسواق الخاطفين، وأصبحت معروضاً للبيع على أكثر من مشتر، يطالبونه

بالمزيد من المعلومات عني. لو أنني أضمن بيعي للقاعدة لما ترددت لحظة في تسليمه نفسي من دون عناء.

«يكفي أن يتصل بهم بالهاتف، ويحدد لهم أين أنت، حتى يسارعوا خلال دقائق إلى انتزاعك من الشارع تحت تهديد السلاح».

لم يكن يمزح، كان الخطف سارياً ويحدث في أي مكان، سوق، مستشفى، وزارة أو دائرة حكومية، مدرسة أو جامعة... قبل أشهر اختُطف ثلاثون عاملاً دفعة واحدة من مبنى الصليب الأحمر.

«بالنسبة إليّ، إذا عاملوني معاملة المترجمين، فطلقة في الرأس».

قبل أن يتركني، اعتذر فاضل، كان مضطراً إلى التغيب يوماً أو يومين، ونصحني بعدم الظهور في الشوارع، لا موجب للمجازفة.

لم أكن بحاجة إلى نصيحة، في الواقع لا أحتاج إلى مرافق ولا إلى دليل. قلت له، سأبقى في بغداد زمناً لا أستطيع تقدير مدته، حركتي ستكون محدودة، لن أغامر، أنا لم آت لأختطف وأقتل مجاناً. سأحرص على حياتي، لدي ما يجب فعله.

اضطر فاضل للتغيب بسبب نزول قريبه الشاب ربيع ضيفاً عليه، وفي الحقيقة التجائه إليه، ريثما يجد لمشكلته حلاً. كان مطلوباً من أهالي القرية لادعائهم مسؤوليته عن مقتل رجلين، أب وابنه. اعتقلت القوات الأميركية ربيع في مظاهرة احتجاج أمام المدرسة التي احتلوها وجعلوها مركزاً لهم. حققوا معه، فاعترف بأن المحرضين على المظاهرة ثلاثة أشخاص، أب وولداه. فقبض

عليهم وأرسلوا إلى سجن أبو غريب. حقق معهم المتعاقدون الأمنيون، واتهموا بأنهم من المقاومة، أشرف على تعذيبهم سيرجنت وثلاثة جنود أحدهم مجندة، تسلوا بهم في ليلة تحت أضواء الشموع، وضعوا على رؤوسهم أكياساً سوداء، ونزعوا عنهم ملابسهم، وأرغموهم على تمثيل أفعال جنسية بذيئة مع المساجين. بلغت التسلية بالجنود إبلاغ الأب أنه ارتكب فعلاً جنسياً مع أولاده، فانتحر في السجن. أصيب الابن الأكبر بالهيستريا، ظنوا أنه يمثل، هددوه بالكلاب، ثم أفلتوهم عليه، فنهشوا أعضاءه التناسلية، بقي تحت النزع عدة ساعات إلى أن مات. الابن العائد بعد سنتين، قال بأن الواشي هو ربيع؛ فهُدر دمه.

أصر والد ربيع على فاضل إبقاء ابنه لديه، ريثما تهدأ الخواطر. أهالي القرية هائجون يطالبون بالثأر. أشار عليه شيخ العشيرة القيام بتسليم ولده إلى أهل القتيلين ليقتصوا منه، أو سيقتلون عائلته بكاملها. الأب يقوم الآن ببذل الوساطات ريثما يقبلون بدية.

لم نتفق على موعد لاحق. شدَّ على يدي:

«اتصلْ بي في حال احتجت إليّ».

□□□

لم أتوقع قدوم ميللر مساء دون موعد. اتصل بي من مكتب الاستقبال، وانتظرني في بهو الفندق، ظننت أن لديه أخباراً تهمني، جلسنا في الصالة، لم يكن لدية شيء مما تكهنت به. كان قد فرغ قبل مجيئه من إعداد القافلة التي سينطلق بها صباح غد إلى الضلوعية.

لا أدري إن كان في هذه الجلسة أو غيرها، في الفندق أو المقطورة، شتّ بنا الحديث. أتذكر أنه كان صافناً، وأنا أفكر في شيء يدعو للتأمل، ويبدو أنني ذهبت بعيداً، أعادني منه سؤاله المفاجئ، أو أنه بدا لي هكذا:

«قرأت أشياء عنكم تخلص إلى أنكم ميالون للموت».

أزعجتني ملاحظته، بدت مقصودة، فأجبت بضيق واستفزازية:

«لا تأخذ بالتفسيرات الدارجة، قد توفر المبررات السهلة، إنها مريحة لكنها الأكثر غباء، ومع هذا لا تعدم من يروجها».

«إذاً، لماذا تنتحرون؟!».

كان يقصد أسلوب العمليات الانتحارية الذي تبناه الإسلاميون المتطرفون في حروبهم ضد العالم، فارتجلت تفسيراً كان الأقرب إلى وجهة نظري.

«أحياناً تبدو آفاق الحياة مسدودة تماماً، ولا تشجع على العيش، يخضع فيها الإنسان إلى إذلال يومي لا يطاله وحده فحسب، بل عائلته ولقمة عيشه. حياة الحفاظ عليها مدعاة للاحتقار، بحيث تغدو تضحية المرء بها، دفاعاً عن الكرامة والحياة نفسها. لا أدري إذا كان هناك خلاف بيننا حول مفهوم الوطن، بالنسبة إلى شعوبنا يستحق أن نموت من أجله. أعتقد أنه خيار عقلاني لا بديل عنه، ولو كان انفعالياً، على الرغم من سوداويته».

ظهرت الحيرة على ملامحه، قال لا أقصد أن العمل الانتحاري

غير مفهوم، وإنما غير معقول، خاصة عندما يضحي المرء بحياته من أجل أن يقتل الآخر، هل عظمة حياته تتجلى في استخدامها كسلاح؟ مهما كانت القضية التي يعتنقها، هل هي أهم من حياته؟.

لم أكن الطرف الملائم ولا المهيأ لخوض هذا النقاش، برأيي لا توجد قضية في العالم تستحق أن يموت الإنسان من أجلها، لقد أضعنا حياتنا بسبب قضايا حقيقية، وكان ما أصابها أسوأ من الهزيمة، بخيانة أصحابها لها. المؤلم أن أعظم القضايا لا ينالها الموت فقط أو الاندثار، الأدهى أنها تصبح عرضة للسخرية والتندر.

«كل إنسان حر بحياته».

«ماذا عن حياة الآخرين؟».

«لا يمكنني القول سوى أنها مصادفة مميتة، لا يمكن الدفاع عنها إلا بأنها عبثية، كالحياة نفسها، دون معنى، إلا إذا شئنا أن نستدعي الألم أو الإيمان».

«لكن الانتحار ممنوع في ديانتكم، بينما أنتم تدعونه جهاداً».

«الأمر دقيق بعض الشيء، الشهادة أيضاً في سبيل الله فريضة دينية، لكن توافر شروطها يدور حوله خلاف كبير».

«أظن أن دينكم أكثر إقناعاً من غيره ولديه براهين أقوى على وجود الله، ولهذا ينتحرون مطمئنين إلى حياة أخرى، لا سيما عندما تكون الحياة الأخرى هي الجنة».

حاولت أن أشرح له أن في هذا التفسير استهتاراً بالعقل والإيمان والجنون معاً، وكنت أعده نوعاً من العناوين المثيرة التي تحجب أول ما تحجب الحقيقة، رغم أنني أدرك بأن بعض من يفجرون أنفسهم يساقون إلى الموت تحت هذا الوازع. والأصح هو نوع من أنواع الترغيب؛ لن يذهب إلى العدم، وإنما إلى حياة أخرى، سيكافأ فيها.

«لا ، ليس الجنة، إنه الظلم. إن قدراً معقولاً من العدالة، ربما تلك العدالة البسيطة التي يعيها البشر وبالإمكان تحقيقها، تجعل الحياة أكثر احتمالاً، وربما جميلة أيضاً».

فكر قليلاً، لم يعلق على كلامي، عاد إلى موضوع الانتحار:

«لا أظن أن شعباً آخر متديناً يفكر على هذا المنوال».

«الشعوب الأخرى لم يمارس عليها كل هذا الطغيان في الداخل ومن الخارج. وتذكر شيئاً، إذا كان انتحاراً فهو ليس اختراعاً إسلامياً».

جاء جوناثان، كان عائداً من اجتماعه مع ديمي فريمان مندوبة لجنة حقوق الإنسان، وافته بآخر ما توصلت إليه، استطاعت الاتصال بأحد الشبان المثليين، وأقنعته بالقدوم معها إلى المنطقة الخضراء، غداً ستأتي به ويحصلون منه على أسماء الشبان أصدقائه الباقين المهددين بالقتل وأماكن إقامتهم. كانت تريد من جوناثان معرفة كيف سيكون أسلوب تعامل سلطة التحالف مع مشكلتهم.

«هل نستطيع مساعدتهم؟»

هز ميللر رأسه، الكولونيل وعد بتأمين الموافقة على حمايتهم.

الجو رائع على الرغم من الحر الشديد والرطوبة، هل هذا ما يقال عنه ليلاً بغدادياً؟! كان ميللر سارحاً في هذا الليل، في حين دار الحديث بيني وبين جوناثان، ذكرت له مغامرتي الصغيرة مع العلاس في السوق. فحذرني من التجول في بغداد حاملاً جواز سفر أميركياً، ورده تقرير مؤخراً قدّر متوسط عمليات الخطف بـ١٥ عملية يومياً، أغلبها تنتهي بدفع الفدية وقتل المخطوف، الأجانب في بورصة الخطف تجارة تدر أثماناً مرتفعة.

لم يخف عني مخاوفه، لا يغادر المنطقة الخضراء إلا نادراً. تمنى أن تكون قضية الأولاد المثليين آخر مهمة له في بغداد. لا يريد أن يموت في هذا المكان الموحش، ما يجعله قادراً على الاستمرار في العمل، معرفته أنه سيغادر قريباً.

«لسنا موضع ترحيب، كل ما أقنعونا به، كان خطباً كاذبة عن أسلحة التدمير الشامل والديموقراطية والحرية. إنها حرب من أجل الحصول على نفط رخيص».

تجاهل ميللر مغادرة جوناثان غاضباً، بدا معتاداً على شكواه. وإن تظاهر بأنه لم يسمعه، لكنه أظهر ضجره، قائلاً لي: أنا لست من أنصار انتقاد الحرب التي تقتل جنودنا.

لم أعرف لماذا جاء ميللر بلا موعد، إلا عندما مال عليّ فجأة، وأخرج من جيبه ورقة دست البارحة من تحت باب المقطورة. انظر ما أرسلوه إليّ!!

كانت ورقة مطبوعة على الطابعة الإلكترونية.

بدت منشوراً دعائياً، يعمل على شد عزيمة الجنود ورفع معنوياتهم في أرض المعركة. بعد بضعة أسطر، توضح فحواها، كان على شاكلة المنشورات الدعائية التي يوزعها المهووسون المتدينون في أميركا، ومما يروج له في بعض المواقع الإلكترونية التبشيرية، وبما أنه كتب في العراق، لم تنقصه البذاءات الحانقة المتداولة في المهاجع والاستراحات والحواجز، يُروح بها الجنود عن نقمتهم فيطلقون السباب على العراقيين الحجاج الذين لا يستحقون ما يُقدم لهم من مساعدات سواء ترميم المدارس، أو توفير مضخات المياه وفتح عيادات ومستوصفات... شعب بحاجة إلى طاغية لا إلى حرية؛ ينبغي أن نطرحهم أرضاً ونوسعهم ضرباً، وقتل أكبر عدد منهم.

المفاجأة، احتواء المنشور على تنبيه موجه إلى ميللر شخصياً، مع تحذير شديد اللهجة، يسبغ على الحرب أوصافاً دينية، حرب أميركا المسيحية ضد العرب والمسلمين!!

«... إن العناية الإلهية هي التي رسمت خطة هذه الحرب لتتفق مع دورة خطة كونية، وهي التي اختارتك واختارتنا لهذه المهمة المقدسة. نحن جزء من هذه المعركة، وهي فرصة لنكون فاعلين فيها لا على هامشها.

ليس النزاع على أرض، ولا على النفط، ولا على إعادة تشكيل الشرق الأوسط، أو إحلال الديموقراطية... بل على شيء لا يمكن التفاهم ولا التفاوض حوله؛ إنه القضاء على الشر، بالتخلص من المسلمين، عهدنا مع الرب يخولنا إفناءهم، عهد لن ننكث عنه، ما دام الله معنا.

حرب صليبية لا تظن أن دورك ضئيل فيها، أنت مدعو لإنقاذ إخوانك جنود الرب الذين كرسوا حياتهم لهذه المعركة. لقد تطوعوا لمحاربة جيوش الشيطان، فلا تعاكسهم، لئلا تكون من قوى الدجال وأنت لا تدري، فكفّ عما تحاول أن تلصقه بهم من اتهامات، لقد قاموا بواجبهم أمام الله في حرب الحياة والموت، حرب لن تتوقف إلا بتدمير مدن الإسلام.

نحن لم نهجر بلادنا وبيوتنا، ونترك زوجاتنا وأولادنا، وأسلوب عيشنا الرغيد، ونتكبد عناء قطع آلاف الأميال وعبور المحيطات للوصول إلى هذه الصحارى الشاسعة والبشر المتخلفين الغلاظ الذين يكرهوننا، ولا يتورعون عن سفك دمائنا، إلا لنقدم لهم الموت؛ قتلهم تنفيذ لقضاء الله».

علق ميللر: يبدو أن الجماعات الأصولية المتطرفة الأميركية وجدت لها منفذاً عبر بعض الجنود إلى العراق، وأصبح لها ممثلون وأعوان في بغداد، ناشطون في المنطقة الخضراء وغيرها، لكن لا أحد يهتم بهم. إذا لم يكن صاحب المنشور من المشاركين في جريمة الضلوعية، فلا بد أنهم استعانوا به للتأثير عليه في إنهاء التحقيق.

قلت له، ماذا لو كانوا يعتقدون...

قاطعني ميللر، ماذا تكون غير هذيان ديني؟

قلت له، ومع هذا لو وجد هناك في واشنطن من يؤمن به، وسعى إلى دعمه بالقوة العسكرية، فهذه الحرب، حرب بلا نهاية.

قال، لا تنجرف مع هذه التهيؤات، إن تداعياتها مخيفة.

لكنها جعلتني أعود إلى نفسي، وأعيد النظر في علاقتي بميللر، لا ينبغي أن تكون وثيقة، وإنما حذرة، كما هي في الواقع. أنا لست على الجبهة نفسها، ولا الطرف ذاته، أنا في الحقيقة ضد سياسات بلده. عندما كنت في الجامعة، لم أخف عدائي للأميركان، شاركت في مظاهرات ووزعت منشورات ضد انقلاباتهم المدبرة، وقواعدهم العسكرية، ودعمهم لحكامنا الفاسدين... اليوم ما الذي تغير؟ لا شيء، بل وزاد علينا أنهم جيش احتلال. قلت له:

«الأفكار لم تعد تهمني، لا الاشتراكية ولا الرأسمالية، وإنما الإنسانية بصورتها العادية، مجرد الحق في العيش. هل من الإنسانية تدمير بلد بأكمله، وقتل مئات الآلاف من العراقيين؟! ترى من أجل ماذا؟! لا أحد يدري!! صدقني، إذا قلت لك إنني مستاء لطلبي مساعدتكم».

وكأنه أصيب بصدمة من ردة فعلي غير المتوقعة، تابعت من دون توقف:

«مهما كانت توجهاتي، فإنني ضد وجودكم هنا».

بدا عليه الأسف، فأبديت أسفي بالمقابل:

«ريتشارد، لا يمكنني إلا أن أكون في حالة حرب معكم، وإذا كانت غير معلنة، فلأنه ليس بوسعي فعل شيء. أرجوك افهمني، إن ضميري ضدكم».

لم يعد مفاجأً. نهض بعد حين قائلاً:

«أنا لديَّ ضمير أيضاً».

ربت على كتفي وذهب.

□□□

قبل أن أنام اطّلعت على بريدي، وصلتني رسالة من سناء. أخيراً، كتبت لي ما تكتمت عنه. كانت حاملاً في شهرها الأول!!

لم يكن لديّ أدنى استعداد لهذا الخبر الصاعق، ولا يمكن أن يخطر لي، أفقدني اتزاني. فكتبت رداً تجاهلت فيه رسالتها مع تلميح لم يكن غامضاً، لن تخطئ مغزاه.

الرسالة الثامنة

(من يوم لآخر، أموري تتعقد.

أخشى أنني سأخفق، لكن عسى عنادي أن يفلح.

أعرف أنني خيارِكِ الوحيد

لكن فكري بخيارات أخرى.

أنا لا أهذي، إنها الحقيقة).

□□□

أردت قطع أي أمل ترتجيه سناء من عودتي، لأنني لم أعد أرتجي الكثير مما جئت من أجله، كل شيء يعاكسني، فأردت نقل عدواه إليها، رداً على رسالتها التي منحتني فيها أملاً على طريقة النساء؛ جنين بدأ يتكون في رحمها وقلبها، بل وأعلمتني بقرارها

الذي اتخذته: لن تجهض، وتحرم طفلها من الحياة. انتظرت سناء زمناً حتى تأكدت، وزمناً حتى تجرأت على إبلاغي.

في الفترة الأخيرة سهونا عن اتخاذ احتياطات منع الحمل. كان الإنجاب مؤجلاً لما بعد الزواج، رغم أننا لم نتكلم عنه. أزعجني أنها كتبت عن الطفل بفرح غامر وكأنه على وشك القدوم، تريد تحميلي مسؤوليته: الطفل بحاجة إلى أب، طفلك بحاجة إليك.

... وكأنه بقدومه سيغنيني عن سامر، ويعزّيني بما فقدته أو سأفقده. هذا لم تقله، أنا أحسست به وأزعجني.

وأيضاً كأن الله الذي أخذ سامر أو سيأخذه، سيعطيني غيره.

يأتيني منظر حماتي والدة نهى، عندما انفلتت من غرفة الولادة، هرعت نحوي وبشرتني قبل الممرضة؛ مبروك صبي!! نظرتُ من زيق الباب إلى الداخل، وتغيرت صورة العالم، أصبح بحجم لفافة من الشاش الأبيض بداخلها طفل أعشى الضوء عينيه، يأخذ أنفاسه الأولى. زلزلتني هذه اللحظة، كانت خارقة، ثمة من دخل للتو إلى العالم، تراجعتُ خطوتين إلى الخلف، وكأنني أفسح له الطريق.

المنظر الذي لا أنساه؛ الظلام يحتل النافذة العريضة في الطرف الثاني من نهاية الممر الغارق في الصمت والعابق برائحة المعقمات، نهى تشهق وتصرخ، بينما خرجت الطبيبة تحمل بين يديها ابني الوليد، ابتسمت في وجهي، وقبل أن ترتد إلى غرفة العمليات، ناولتني إياه، كأنها تعطيني جوهرة مشعة.

تأملت ملامحه الدقيقة، الصغيرة والمنمنمة، واجتاحني شعور

غريب نحوه، كان مزيجاً من الإحساس بأنني تقدمت في العمر، وأن حياتي بدأت ثانية على نحو مبشر. لمجرد أنني أصبحت أباً لطفل لا يزيد عمره على ثلاث دقائق، بحاجة إلى كل شيء حتى الهواء. كنت طموحاً لفعل أشياء كثيرة من أجله، أقلها أن أمنحه عالماً مثالياً، رائعاً وجميلاً.

أصبحت أباً وأنا شاب في الثلاثين من عمري، شاب يلهو بالنظريات والمبادئ؛ اكتشف قبل سنوات مآثر الطبقة العاملة الصاعدة نحو المستقبل، وما لحقها من غبن تاريخي، والبرجوازية الصفيقة المستغلة في أيامها الأخيرة. شاب يطيل شعره، ويسهر حتى الصباح، مؤمناً بحتمية انتصار الثورة، ويشرح بنزق الفارق بين التناقضات التناحرية والتناقضات غير التناحرية. وصديقتي في التنظيم التي أصبحت زوجتي ترافقني منتفخة البطن، من اجتماع إلى مقهى، ومن شلة إلى أخرى، كأنها لم تكن حاملاً في أشهرها الأخيرة، وإنما فتاة نهمة للطعام وللجدل، تشكو من السمنة والغثيان، وتنحاز للجماهير الكادحة ضد الرأسمالية الشرسة، وتهدد الأعداء بدكتاتورية البروليتاريا... وتستدرك مُطَمئنة الفتيات المبهورات بحماستها: نعم دكتاتورية، لكنها ديموقراطية شعبية لا نظير لها. إلى أن جاء الوقت الذي حطمت فيه ثورات زوجتي العارمة والسخيفة ثقتي بأي ثورة في العالم تشارك بها امرأة، ولو حملت السلاح واسترجلت.

وكان للمنظر تتمة يستحيل عليَّ نسيانها:

- نظراتي الحالمة، استوقفت العاملة في المستشفى، كانت تمسح أرضية الممر، أبعدت سطل الماء جانباً وأسندت عصا الممسحة

إلى الحائط. وقالت بأسى:

«الأطفال جرح لا يندمل».

التفتّ نحوها، هل كانت تتكلم مع نفسها؟ لا كانت تحدثني وترثي لي، نظراتها مشفقة عليَّ، كأنني أراها الآن:

«فقدانهم بلاء ووجودهم بلاء».

تابعت وهي تهز رأسها قائلة:

«يتعذب الآباء والأمهات في سبيل أولادهم، ولا يلقون منهم سوى الجحود مكافأة على ما بذلوه من تعب، وما تكبدوه في سبيل تنشئتهم من آلام. الأولاد لا يُقدرون ما نعانيه من شقاء لكي نوفر لهم ما يحتاجونه، وعندما يكبرون نخسرهم».

كانت تشكو همومها لي كي لا آمل كثيراً، وها أنا بعد زمن طويل، لا أسمعها فقط، بل أكرر كلماتها، أعاني ما تعانيه، ألم أخسر ولدي؟

لم تكن مسؤوليتي تجاهه سوى وهم دام بضعة أيام. بعدها أمسى بكاؤه ورضاعته ومناغاته، وتعلمه الكلام والمشي، من اللوازم البيتية الطريفة. كان أشبه بلعبة تسلينا بها يوماً بعد يوم حتى بعد دخوله الحضانة والمدرسة، ولم نقتنع بأنه أصبح شاباً إلا بعدما حصل على البكالوريا، وعندما لم يساعده مجموع علاماته على الانتساب إلى جامعة دمشق، تسجل في الجامعة العربية في بيروت.

هذه المسؤولية المتوهمة، لم تجمع بيني وبين نهى قدر ما فرقت

بيننا، كانت تربيته والعناية به محل نزاع إضافي بيننا، وإن حاولنا عندما أصبح يافعاً، ألا نشركه بخلافاتنا الشخصية، كانت لا تعنيه، لم يكن هو السبب. لكن ما قاسيته وتحملته منها كان من أجله. كنت مرغماً على البقاء أسير زواج بات علة كربي.

لماذا أتذكر، بعد كل هذا الفوات؟! ولماذا أرجع إلى زمن، كنت فيه شخصاً آخر؟ وكأنني استعدته لأكونه ثانية.

لا مهرب من الأمل، ولا من الكذب. كتبت لها رسالة أخرى.

الرسالة التاسعة

«فاجأني الخبر وأسعدني.

لحظات السعادة باتت عصية المنال، ما دام هناك خيبات تقتل أية فرحة.

اعذريني، لا بد لي من بعض الوقت، لأستوعب أنني سأصبح أباً هرماً لوليد سيأتي إلى العالم بعد ثمانية أشهر.

إحساس رائع، مهما كان مربكاً، الشعور بحياة أسهمتُ فيها تستمر من بعدي، ولو كان في داخل هذا الخراب.

لا تقلقي، سأنجز إجراءات الزواج فور عودتي إلى دمشق.

أدرك مدى حاجتك وحاجته إليَّ. لكن سامر يحتاجني أكثر.

ألا توافقينني؟

أريد أن أستعيده هو بالذات. لا أحد يحل محله. ولا أرغب ببديل عنه، ولو كان ولداً من لحمي ودمي.

لن أدع سامر لهم).

□□□

عاد ميللر من الضلوعية مثلما ذهب، تحت الحراسة المشددة، في سيارة هامفي، رافقته سرية مشاة وثلاث عربات برادلي مدرعة، وطائرتا هيلوكوبتر، ظلتا تحلقان في السماء طوال مدة وجود ميللر في بيت العائلة المنكوبة، ولولا موقع المزرعة على أطراف الضلوعية، لاحتاج ذهابه إلى هناك لدعم فوج من قوات المارينز.

كانت منطقة الضلوعية من أخطر المناطق، منذ تم الإعلان عن أنها أصبحت جزءاً من إمارة إسلامية تابعة لولاية صلاح الدين، باتت منظمة القاعدة الحاكمة المهيمنة، واتخذت عدة إجراءات؛ استولت على السيارات العائدة للدولة، وصادرت أسلحة العاملين في المؤسسات الحكومية، وأقرت بعدم جواز عقد قران رجال الشرطة حتى يعلنوا البراءة من عملهم، ومنعت بيع وشراء الكحول والسجائر، وأصدرت فتوى بقطع أصابع المدخنين. وسيرت عزبة جوالة للمحكمة الشرعية لدولة العراق الإسلامية مهمتها تأمين إقامة الحدود وأحكام التعزير على المخالفين، وتنفيذ أحكام الإعدام بمن يثبت انتسابه إلى الحكومة العميلة المارقة. ولم يسلم أهالي المدينة من التصفية الجسدية بتهمة التكفير والردة والتجسس لصالح القوات الأميركية أو العراقية. كما قامت لجنة دُعيت بهيئة الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، بالتجول في الأحياء، وزع عناصرها الخمار على طالبات مدارس البنات، وحذروا النساء من الكشف عن وجوههن، وهددوهن بالموت إذا ارتكبن فعلاً فاحشاً.

«هل يعتبر شعر رأس المرأة عاراً!! كلما التقوا بامرأة لا تغطي رأسها، يأمرونها بأن تستره، وإلا ستروا عارها بالموت. هل يجوز في دينكم مساواة شعر رأس المرأة بفرجها؟!».

لا أدري أحياناً إلى أين يقودني الدفاع عن الإسلام، كيف أقول له إن ما يرفضه العقل، ترفضه الشريعة الإسلامية أيضاً؟

«هذه تفسيرات متشددة، بل وإذا أردنا المزيد من التشدد، فهناك من يعتبر أن صوت المرأة عورة، الغالبية لا تأخذ بهذه التفسيرات، عموماً، لا يبلغ الأمر حد القتل، وإنما الوعيد والتهديد».

«لقد انتزعوا فتاتين سافرتين من الشارع، أعيدتا إلى منزلهما بعد ساعات حليقتي الرأس، وزعوا على أثرها منشورات تنبه إلى أن حلق شعر السافرات حكم مخفف، لكن القتل سيكون مصيرهن بعدها».

أما بخصوص العائلة التي قتلت، فالأمر الموثوق منه أن أية عصابة لن تتجرأ على القيام بعمل كهذا، لأن الرجل القتيل هو الشيخ عبد الرحيم الضلوعي، شيخ ذو مكانة، على علاقة حسنة بمنظمة القاعدة، صحيح أنه لم يُظهر تأييده لها، لكنه لم يعارضها. لعب دوراً مهدئاً بين القاعدة والأهالي، ولم يتوان عن إعادة بعض المخطوفين، أو إنقاذ شبان محتجزين بدفعهم إلى إعلان التوبة والولاء للقاعدة. وكان له الفضل مع شيوخ آخرين في التفاوض

مع الزرقاوي وإصداره قراراً بعدم التعدي على شرطة الضلوعية.

عاين ميللر موقع الجريمة، البيت قد انقلب رأساً على عقب، وبُعثرت في أرجائه، كل ما يحتويه من أغراض وملابس وأثاث ومؤونة، الأبواب والنوافذ والخزائن محطمة، الدماء التي جفت على الجدران والأرض، لطخت أيضاً الأدوات المعدنية الموجودة من فؤوس ومجارف وقضبان حديدية وسكاكين مطبخ؛ عمليات الذبح والقتل تبدو وكأنها نفذت بواسطتها.

هذه المجزرة ليست الوحيدة، كانت حلقة من سلسلة، سبقتها اثنتان على يومين متوالين، الأولى في بغداد منطقة الدورة دهموا بيتاً على أطراف حي آسيا، المعتبر معقلاً من معاقل القاعدة. بقوا فيه قرابة ساعتين تركوا بعدها ثلاث جثث في البيت معلقة بالسقف وأربع جثث على قارعة الطريق، قطعوا رؤوسهم وأطرافهم، ولفوا أمعاءهم حول أجسادهم، ربطت على شكل هدية، وثبتوا قلوبهم عند العقدة!! والثانية على مقربة من الفلوجة، اقتحموا مزرعة قتلوا صاحبها مع ثمانية عمال، ثم أشعلوا النار فيها، بعد أن مكثوا فيها قرابة أربع ساعات. لم يبق منهم سوى جثث متفحمة.

نفذت الجريمتان بشكل يوحي أن من قام بها فرقُ الموت، أو مغاوير الداخلية. أما الثالثة في الضلوعية، فلم يستطيعوا إخفاء النزعة الانتقامية التي رافقت عمليتهم، فارتكبوا خطأ جسيماً، أكثر منها زلة فاضحة، تدعو إلى اليقين بأن من ارتكبها لم يكن لأسباب طائفية، ولا عصابة من اللصوص القتلة يعتمدون السلب، فحتى لو فتشوا المنزل ونهبوه، وسرقوا المصاغ والمدخرات

النقدية، لن يبلغ الأمر بهم حدَّ التشفي بتمزيق القرآن وبعثرة أوراقه. هذا العمل لا يرتكبه سوى أجانب أهانوا الشيخ بالهزء من معتقداته.

الجرائم جميعها، على الرغم من اختلافها في التفاصيل، كانت تحمل توقيعاً واحداً، تجلى في تمزيق الضحايا بكميات غزيرة من الرصاص، وفي طريقة قطع الرقاب، والأسلوب المتشابه في القتل وتشويه الجثث. لا يتركون وراءهم سوى الطلقات الفارغة للرشاشات M4 وآثار إطارات الجيب وسلاسل عربة البرادلي، ولا شهود يجرؤون على التبليغ عن الفاعلين لئلا يكون مصيرهم الموت. مصدر معلوماتنا الشرطة العراقية، لكنهم خائفون مثل غيرهم، لا يأمنون على أنفسهم الانتقام من جميع الأطراف.

العمليات الثلاث نفذت على التتابع خلال ثلاثة أيام، أوقفها تدهور السيارة الجيب، أي إذا كانت هناك مهمة ، فهي ما زالت قائمة لم تنجز بعد. ماذا تكون هذه المهمة؟!

لا بد من شاهد واحد، شاهد واحد على هذه الجريمة!!

ولقد ظهر رجل، وإن لم يكن شاهداً، ظهر على الهاتف:

«ميجور ميللر، ما رأيك ليلة الخميس في زيارة ملهى الرشيد؟ أعلم أن التسلية في هذه الأماكن لا تروق لك، لكن الأمر يهمك، له علاقة بالتحقيق الذي تقوم به، لا تأت وحدك كي لا تلفت الأنظار. سأجلس بالقرب منك، تظاهر بأنك تتحدث مع جليسك».

على الهاتف، قال إنه حصل على بعض المعلومات، واختار عدم التبليغ عنها، لئلا يطرد من المنطقة الخضراء. حالياً ليس لديه الكثير من المعلومات، لكنها فرصة لتبادل الرأي.

طلب مني ميللر تقديم خدمة إليه بمرافقته إلى المرقص، جوناثان مشغول بقضية المثليين. حاولت الاعتذار بأنه لا يجوز أن أكون طرفاً في المقابلة، لا سيما أني سوري وابني يعمل مع القاعدة. فأصر على حضوري: لن يكون وجودك أكثر من غطاء، لن يكشف عن هذا الاجتماع، حماية للطرف الآخر، هو أيضاً لا يريد أن يكون معلوماً، وجودك طبيعي، ألست مقيماً في الفندق؟

على الرغم من الأنوار الملونة الصغيرة المتمايلة، كان الملهى غارقاً في شبه عتمة. الجو متخم بالموسيقا عالية الصوت، لم تكن ضاجة، بل هادئة وحالمة. الرواد من المستخدمين في المنطقة الخضراء، جنود ومتعاقدون مدنيون، وعاملون في سلطة الائتلاف يرقصون على نجمة حزب البعث المنحوتة على الأرضية، ومنهم نساء يلبسن بلوزات قصيرة لا تخفي السرة، وجينزات مثيرة تكشف عن أفخاذ سمينة، وينتعلن الأحذية الرياضية. من النادر رؤية مجندة أو متطوعة جذابة، النساء الجميلات لا يمكن رؤيتهن إلا في الأفلام الأميركية. أجساد الراقصين منتصبة، الحركات متصلبة، متباطئة قليلاً، والنظرات متوترة وملتهبة. الرجال ضخمون، طوال القامة، بعضهم أقرب إلى البدانة، والنساء محظوظات، امرأة واحدة لكل عشرة رجال.

اخترنا طاولة بعيدة عن باحة الرقص، تسليت بتصفح وجوه الجالسين، لم تظهر واضحة، الدخان عابق، سرعان ما ترك شاب

كان يتحدث.مع البارمان مكانه، اقترب منا على مهل وهو يحمل بيده كأساً من الويسكي، وجلس إلى جوارنا. كان نحيلاً متوسط الطول في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره. بدا عصبياً، مظهره عادي أبيض البشرة، ومثل غيره لوحت الشمس وجهه. لم يكن متين البنية، فاستبعدت أن يكون جندياً أميركياً أو مرتزقاً. تكلم بلا مبالاة ودون أن ينظر إلينا. وقد ثبت عينيه على الراقصين. قال إنه يسكن ويعمل في المنطقة الخضراء، وحذر ميللر من البحث عنه، وأن يدعوه بجيمي لا أكثر. فيما بعد إذا احتاج الأمر، سوف يقول له من هو، على أن يبقى سراً بينهما.

«كي لا تضيع وقتك، اسأل القسيس المتعاقد مع شركة ميترا كورب، يدعى توماس باركلي، لا بد يعلم شيئاً، سيبدو لك قسيساً حقيقياً، لا تأخذه على محمل الجد ولا الإيمان، إنه مرتزق مثلهم».

«هذا الذي يلقي دروساً في التوراة والإنجيل؟».

«كان يبارك مجموعة الإغارة قبل انطلاقهم في مهماتهم».

لم أميز، هل كان يهزأ من ميللر أو منهم؟! تساءل ميللر ساخراً:

«ألم يبارك الدليل العراقي؟».

لم يكتم جيمي ضحكته:

«لا أستبعد أن يكون أقدم على تنصيره، ومات مسيحياً».

ثم استرد ملامحه، ولم يتخلّ عن لامبالاته:

«لا تستغرب، إنه مشعوذ دجال من جماعات الحمّى الألفية المتنبئين كل فترة باقتراب نهاية العالم. لن يستجيب لك بسهولة. لقد وعدوه بمبلغ كبير... مليون دولار، قال إنه سيتبرع به للأبرشية، ثم اختلف معهم وطلب مضاعفة المبلغ، أي أن حصة الواحد منهم لا تقل عن هذا المبلغ، إن لم تكن أكثر».

«مهما كان بحوزة العائلات التي دُهمت من مال ومصاغ، فلن تكون كافية لجمع مليون دولار، وإذا استمروا على هذا المنوال، فسوف تستغرق عملياتهم عشرات السنين».

«إنهم لا يعتمدون على السلب».

«إلا إذا كانوا يبحثون عن كنز مدفون في الصحراء».

«قد لا يقل عن كنز».

«من أين أتيت بمعلوماتك؟».

«كانوا يتباهون بما يفعلونه بعد الغارات، وما سوف تدره عليهم من مال، مع أنهم يعودون منها بالقليل من المنهوبات».

«هل تعرف عدد الغارات التي قاموا بها؟».

«حسب علمي خمس غارات».

«أعرف ثلاثاً».

«في الفترة الأخيرة تلاحقت عملياتهم».

«اهتمامك بهم، لأمر شخصي؟».

«ليس شخصياً، لكنه يعنيني».

«هذا لا يكفي. ولنتكلم بصراحة، لا أريد التعامل مع شخص يتكتم على هويته، هذه السرية يرفضها عملي، ما دمت أنقب عما حدث فعلاً، فلا ينبغي أن يكون أحد مصادري مجهولاً، هذا يجعلني لا أثق بما تزودني به. اسمع أنا جاد في التحقيق حتى النهاية».

«سيضعون لك حداً قبل النهاية. على كل حال، أنا مراسل صحافي، صحيفتي لا تقبل روايتي من دون شهود موثوقين. مبدئياً لنقل إنني أريد أن أحقق سبقاً صحافياً، هذا من الجانب العملي، مع أن هذا ليس هدفي تماماً. سأعقد معك اتفاقاً واضحاً: أقدم لك كل ما أحصل عليه من معلومات دون المخاطرة بالكشف عن مصدري، لئلا أسيء إليه، كما لن يظهر اسمي في التحقيقات، وبالمقابل سأكون أول من ينشر عن الجريمة في الصحافة».

«هل تريد إدانتهم؟».

«نعم ولدي أسبابي، لا مبرر لقولها، حتى لا تظن أني متحامل عليهم».

«تهمني هذه الأسباب بالذات، لأتأكد إلى أي حد نحن متفقان، ولن نختلف في المستقبل».

«بوسعك القول إنني أقف في صف الضحايا، إذا كان يهمك أمرهم فسوف أساعدك، إن لم يكن، فسوف ألجأ إلى شخص غيرك. عليك الآن أن تختار أين تقف».

قال ميللر دون تردد:

«في صف الحقيقة».

«شكراً للمصادفة، إذ أجد في هذا المكان شخصاً يهتم بالحقيقة، عادة في الحروب، نسمع عنها ولا نعثر عليها».

قالها جيمي ونهض واقفاً، تابع الكلام:

«سأتصل بك ثانية إذا علمت بجديد».

شق طريقه بين الراقصين والمتزاحمين أمام البار، ومضى بخفة بين الأنوار المتمايلة الملونة وغاب في عتمة الباب.

كان الاحتمال الأقرب الذي خالجنا، أن المال الذي يبحثون عنه، حقائب تحتوي على ملايين الدولارات خُبئت عشية احتلال بغداد لتمويل أعمال المقاومة، يعرف بها بعض أركان حكم صدام الهاربين، سرها تسرب، وهم في أثرها.

خرج ميللر عن صمته قائلاً:

«القس باركلي هو صاحب المنشور الذي وصلني أول البارحة».

□□□

في الليلة نفسها، اتصل جيمي بميللر، وابتدأ التعاون بينهما، أعطاه بعض المعلومات الإضافية عن القسيس باركلي: قبل أكثر من عقد، أي في أوائل التسعينيات، كان باركلي من الشباب الذين أعيد تنصيرهم؛ تعمد وولد ثانية في الإيمان، دفعته ميوله التدينية إلى الانتساب لجامعة «ليبرتي»، درس فيها اللاهوت، وتخرج منها واعظاً، عمل في عدة كنائس في ولاية فرجينيا. شارك في الحملات الصليبية الهادفة إلى معاودة تنصير أميركا من تحت. كان يجاهر بآرائه، وهي تدور دائماً حول الفكرة نفسها، لكن تنصير أميركا من فوق، داعياً إلى عدم ترك قيادتها لأقلية من الرجال والنساء لا إله لهم. علق ميللر:

«يبدو أن باركلي اختارني لمهمة مقدسة».

«هل اتصل بك؟».

«أرسل لي منشوراً يدعوني فيه إلى إنقاذ جنود الرب والتطوع لمحاربة جيوش الشيطان».

الرسالة العاشرة

(أدرك مخاوفكِ دون أن تفصحي عنها.

نعم قد لا أعود.

كتبت لصديقنا حسان أن ابناً لي سيولد بعد ثمانية أشهر ونصف. ولكي أخفف عنك مواجهة هذا الحرج فيما بعد، سألته عما يمكنني القيام به من ترتيبات، وأنا هنا في بغداد، كي يعرف طفلي أباه في قادم الأيام.

أجابني، لو كان لدينا سفارة في العراق، لنصحتك بإعداد وكالة باسمي، تسمح لي بعقد زواجك رسمياً في دمشق.

ما الذي سيحدث؟! لا أدري... لكنني متفائل).

□□□

لا، لم أكن متفائلاً، في العراق لا يحق لك التفاؤل ما دمتَ تواجه الكوابيس.

بعد انقطاع فاضل عني مدة يومين، اتصل بي. كان آسفاً، صوته الأجش يتلجلج بالاعتذار. خمنت سبب اتصاله كي لا يراودني الظن أنه يتهرب مني. هذا الظن لم يخطر لي. كان البارحة قد أنهى ما شغله؛ لقد جاء أبو ربيع وأخذ ابنه معه إلى القرية، بعد أن توصلوا إلى حل، سيدفعون دية وينتهي الأمر. عدا هذا لديه شيء بخصوصي، لن يقوله على الهاتف. سنذهب معاً للاجتماع بأحد الأشخاص، ربما ساعدني.

توقعت أنه وجد حلاً لي، يوفر عليّ انتظار ميللر الغارق في التحقيق.

بذل فاضل جهده قبل أيام، وتمكن من الاتصال بالمقاومة البعثية عن طريق أصدقاء قدماء، وشرح لهم سبب وجودي في العراق. البارحة أبلغوه بأن قيادة فرع الحزب السرية في بغداد أوكلت الأمر إلى مسؤول حزبي سيبحث في طلبي. لم يطل الوقت، اتصل المسؤول بفاضل وعين له الزمان والمكان.

ظهراً، كنتُ على موعد مع مسؤول بعثي حدد فندق السدير نوفوتيل الواقع في ساحة الأندلس للقاء به.

لم أطمئن لاختيار الفندق مكاناً لاجتماعنا، خاصة بعدما علمت من فاضل أن ساحة الأندلس تعرضت لعدة اعتداءات سابقة، نظراً لوجود مقر الحزب الشيوعي ووزارة الري على مقربة منها. وقبل أيام دهم المنطقة مسلحون مجهولون يستقلّون سيارات بيك آب

مطلية بألوان سيارات وزارة الداخلية، يرتدون زي المغاوير التابعين لها، اقتحموا في عز النهار مقرين متجاورين تابعين لوزارة التعليم العالي، واختطفوا أكثر من ١٣٥ شخصاً بينهم عدد من المراجعين، أعادوا الكثيرين منهم، واحتفظوا بأساتذة الجامعة وحملة الشهادات العالية، إذا لم يعودوا خلال أيام، فالأرجح جرت تصفيتهم.

ومع هذا كان الفندق حسب قوله، أكثر أماناً من أي مكان آخر، العاملون في إحدى شركات الحماية العاملة مع القوات الأميركية استأجروا طابقاً فيه، ويديرون أعمالهم من داخله. كان محصناً، الاستحكامات الإسمنتية تحكم الحصار حول مداخله، مع حراسة مكثفة بالعناصر المسلحة لابسي الخوذ المعدنية والسترات الواقية ضد الرصاص، ومدججين بالرشاشات. فاضل أيضاً كان مسلحاً، كشف سترته الصيفية الخفيفة، فظهر حول خصره مسدس. لم أعرف فيما إذا كان يطمئنني حقاً أم يمزح وهو يعقب، في حال اقتُحم الفندق، بوسعك الهرب ريثما أتبادل مع المهاجمين إطلاق الرصاص!!

أحسست بالقلق، بالإضافة إلى الخطر المجهول الذي قد يأتي من خارج الفندق ويقتحم الباب، كان من الباب نفسه سيدخل رجل يعمل لحساب حزب مطلوب اجتثاثه، ومطارد من جماعات كثيرة تواقة للانتقام منه.

كان شعوري أنني أخطأت بمجيئي، ولم أخف عن فاضل أن تعاملي مع فلول النظام السابق، سيجلب لي المتاعب ويحيطني بالشكوك دونما فائدة. إنهم ولأقلها بصراحة، بحاجة للمساعدة

والتخفي أكثر مني.

فاضل كذّب ظنوني حولهم، استناداً إلى ما يسمعه عنهم، إنهم من أكبر جماعات المقاومة، كانوا يعملون بالتعاون مع بعض الإسلاميين تحت لافتات مختلفة مثل الجيش الإسلامي السري، والجيش العراقي الإسلامي... وأيضاً جيش محمد. لا يقومون بعمليات إرهابية، بل عمليات عسكرية ضد القوات الأميركية. تضم الجماعات في داخلها عناصر من الجيش العراقي المنحلّ من قادة وضباط عسكريين وأخصائيين في التصنيع الحربي، قوى ضاربة ومدربة جيداً ذات مؤهلات تكنولوجية عالية المستوى، ومخابرات كفؤة متقدمة على مخابرات قوات التحالف، تزود باقي فصائل المقاومة بالأسلحة والتقنيات الحربية والمخابراتية، كما أنها تنسق معهم وتخطط لهم.

ظهر المسؤول الذي نحن في انتظاره، يرافقه رجلان مسلحان ابتعدا عنه قليلاً، توقف مع أحد نزلاء الفندق وتبادل الحديث معه وهو يرمينا بنظراته. كان في حوالي الخامسة الأربعين من عمره، يلبس بذلة أنيقة رصاصية اللون، لحية خفيفة تحيط بوجهه، عينان نفاذتان وحاجبان كثان، وشاربان عريضان، نظراته ثاقبة مع عبوس يخالطه توجس.

«بعثي في الباطن، وفي الظاهر قيادي في حزب إسلامي».

أنهى فاضل توصيفه السريع للرجل قبل أن ينضم إلينا. التوصيف لم يكن وافياً، وإن كان مبشراً. توقعت أنه سيتكلم بثقة زائدة، كأنه ما زال على رأس مناصبه الحزبية يأمر ويُنهي، لكنه تكلم بمنتهى اللطف، وأصغى إليّ بمنتهى التهذيب.

طرقت موضوعي مباشرة. قلت له: ما أريده منكم، الاتصال بالقاعدة، لديهم شاب سوري يدعى سامر يعمل معهم، وهو ابني، وإخباره أنني في بغداد والسعي لتدبير لقاء بيننا، وإذا كان هذا عسيراً، فأنا لا أريد سوى أن تدلوني على المنطقة الموجود فيها، وسوف أذهب لرؤيته مهما كلفني هذا الأمر.

«إنه ليس عسيراً، بل مستحيل، لن تصل إليه حياً».

كان هذا رده الفوري، أما جوابه على طلبي، فكان سلبياً تماماً، المقاومة ليست على وفاق مع القاعدة، غالباً الحالة معهم متوترة. القاعدة تحاول سرقة الساحة الإعلامية بعملياتها الانتحارية الطائفية الدموية.

«مخططاتهم جنونية، تضرنا أكثر مما تنفعنا، وتؤذي فكرة المقاومة. ما نعرفه عنهم كثير، وما نجهله عنهم أكثر، أحياناً لا نعرف عنهم سوى ما تبثه وسائل الإعلام، أين هم موجودون؟ ليس بوسعك أن تكون متأكداً، ولا أن تتكهن، يبرزون فجأة، يسيطرون على بعض المناطق، مناطق غير ثابتة، يستولون عليها ليلاً وينسحبون منها نهاراً، عدا أن تحالفاتهم متبدلة. هل يفيدك هذا؟ لا أظن أنه يفيدك بشيء».

وإذ لاحظ خيبتي، أردف قائلاً:

«سنساعدك، ولن نتخلى عنك. ليس لأنك قصدتنا أو بسبب مأساتك الشخصية، كنا على وشك البحث عن طريقة للاتصال بك، جاءتنا معلومات من سورية، سألتنا الاهتمام بقضيتك. أرجو أن تثق بما أقوله لك، نحن لا نرغب في إعطائك آمالاً كاذبة.

عمن سنبحث؟! إنه ابنك، حسناً لكنه شاب لا وجود له، إلا إذا عرفنا على الأقل اسمه الحركي، في حال حصلنا عليه، فقد نستطيع الاتصال به».

«هل ستكون الوسيط؟»

«هناك من هم أقرب منا إليهم، إنهم يشكّون بنا، ولا يثقون بأحد، بصراحة لا يمكن إخفاء بعثيتنا، في العراق كل شيء مفضوح، نحن مضطرون في المقاومة للتغاضي عن الكثير من التجاوزات، الظرف لا يتسع لفتح عدة جبهات في آن واحد».

نهض، صافحني منهياً المقابلة:

«على كل حال، سنحاول من خلال سلسلة من الوسطاء الاتصال بهم، هناك تعاون بين بعض الجماعات الإسلامية العراقية المتطرفة والقاعدة، سأطلب منهم معلومات عن ابنك، ستصلني خلال يومين أو ثلاثة».

لم أتوقع الكثير، بل أقل من القليل.

الرسالة الحادية عشرة

(أطرق أكثر من باب، ثمة وعود.

كل يوم يمضي يجلب معه فرصة، تضيق مع الوقت.

أتعيش على نزر يسير من الأمل ولو كان ضئيلاً.

على الرغم من الإحباط، لن أستسلم قبل أن أستنفد الوسائل كلها).

□ □ □

طلبت سناء مني المحافظة على حياتي، مع أنني لم أتخلّ عن حذري، ولم أقْدم على ما قد يضعني أمام خطر فعلي. لا أريد تكهن دوافعها، تزعم أنه الحب، وأزعم أنه التشبث ببقائي حياً من أجل الجنين... لمجرد أن يكون له أب. لن أغالي في تخميناتي،

ولا أرغب في معرفة حقيقة موقفها. لم أكن مهيأً لإصدار حكم أطمئن إلى سلامته. ليتني أتمكن من تحييد سامر وإبعاد سناء عن خاطري، وأفكر في الجنين فقط، هل يمنع وجودي هنا في العراق حق الجنين في الحياة؟

توخيت ألا اتسرع بإجابة كانت متشائمة، حضرت في ذهني وبقوة، ما الذي سنوفره لطفلنا سوى هذا الدمار الذي لن يستثني المنطقة كلها في المستقبل، لماذا نورطه بالعيش، في حين الأفضل حرمانه منه؟ لم يكن لهذا أن يخطر لي، لو أن الحياة لا يُفرَطُ بها في كل لحظة، بكل قسوة وبلا مبرر ولأتفه الأسباب، ولمحض مصادفة عابرة. لماذا الإبقاء عليها إذا كان لا يمكن الدفاع عنها؟

ما خطر لي ردني إلى سناء، الجواب لا يخصني وحدي، بل يخصنا معاً، كانت تريد طفلاً، زواجها السابق لم يمنحها إياه. فرصة تهيأت الآن، ولن تتنازل عنها، أو تدعها لمشيئتي. لكن الأمر ليس خاضعاً لمشيئتها، وإن بدا كذلك، إلا إذا أرادت طفلاً من دون أب!!

□ □ □

عاد ميللر حانقاً من اجتماعه مع الكولونيل ضابط الارتباط، لم يأخذ بشكوكه، صبره نفد منه، وأراد إنهاء التحقيق حتى دون أدلة. طلب ميللر المزيد من الوقت، فلم يمهله الكولونيل سوى يومين. حجته أن اجتماعه مع مديري ميترا كورب كان كارثة، التذمر بدأ يسري في مطالباتهم وتوعدوا بإيصال شكاواهم إلى البنتاغون والبيت الأبيض. رفضوا الرد على أسئلته، وكانوا غاضبين.

قالوا إن رجالهم يعملون في مجال التدريب، وإذا قاتلوا، فلن يمثلوا بالموتى، ومهما كانت الأخطاء التي تحدث، فالحرب لا ترحم.

لم يكتف الكولونيل بالضغط على ميللر، بل ووبخه على إهمال قضية الشبان الشواذ، مع أن اللفتنانت جوناثان كان يتابعها يومياً. أصر عليه متابعتها شخصياً، متجاهلاً أن ميللر أوكل هذه القضية وبعلمه إلى معاونه، بعد أن صارحه بأسبابه، وكانت شخصية بحتة؛ عدم ارتياحه للتعامل مع المثليين، كان راغباً في مساعدتهم، لكنه يتقزز منهم.

كان في إشعاره بالتقصير ضغط إضافي عليه. خاصة أن القضية بدأت تتخذ أبعاداً جديدة، بعدما تبين أن التهديدات بالقتل كانت بناء على فتاوى صادرة عن رجال دين شيعة، الخبر وصل إلى البيت الأبيض والخارجية البريطانية، وتلقت قيادة قوات الائتلاف البارحة تعليمات عاجلة تطالبهم بالتحري السريع عنها لاتخاذ الإجراءات الفورية اللازمة.

لم يكن متأكداً فيما إذا كان الكولونيل أعطى قضية الشواذ الأولوية بناء على تعليمات واشنطن أم تضييقاً عليه. أبلغ ميللر مساعده جوناثان بالطلبات الواردة، فرد عليه بأنه على علم بها، أما الإجراءات اللازمة التي يجب اتخاذهما لحمايتهم، فلكي لا تشط به التوقعات الحسنة، فهي غير فورية ولا مستعجلة. المطلوب فعلاً، معالجة قضيتهم بتكتم شديد دون استفزاز السلطات العراقية، الجميع يخشون من استغلال رجال الدين لها. التعليمات اللاحقة التي تسلمها اليوم، تؤكد على خطوات ينبغي أن تتخذ بالخفاء

بالاشتراك مع مندوبة لجنة حقوق الإنسان، بهدف إسكاتها، قبل وصول الأمر إلى مراسلي القنوات التلفزيونية الغربية، لئلا تعمل منها قصة وعناوين كبيرة. أما الأولوية المطلوبة، فتضييع الوقت بحركات إنقاذ استعراضية.

«لكنني نكاية بهم ستكون فعلية».

قالها جوناثان مازحاً، غير أن ملامحه كانت جادة. التفت نحوي قائلاً:

«لا بد أنني واحد من الطابور الخامس العامل في الجيش الأميركي بالعراق».

لم يخف جوناثان أن لديه مدونة على الإنترنت يستخدم فيها اسماً مستعاراً، ينشر فيها أخباراً عما يجري، تحفل بما يسمعه من الجنود، الإذلال الذي يمارسونه عند حواجز التفتيش، مداهمة المنازل وتهديمها، العقوبات الجماعية، اقتحام المساجد، تفتيش الجنود للنساء، اعتقال الأزواج وإهانتهم أمام أولادهم وزوجاتهم، سرقة المصاغ والمدخرات.

«قبل يومين أطلق جنود النار في الهواء على متظاهرين، فهرب أكثرهم، لم يبق سوى عشرة، فقتلوهم جميعاً، ثم جاءت سيارة مسرعة، فقتلوا السائق، وعندما خرج منها رجل رافعاً يديه إلى الأعلى أردوه قتيلاً، ثم أطلقوا النار على سيارة أخرى فقتلوا الركاب جميعاً، وكان من بينهم امرأة وطفلان. قال لهم قائدهم، أحسنتم، يوم رائع، كان الصيد وفيراً، سبعة عشر مدنياً في يوم واحد».

أعلن جوناثان، عندما يعود إلى أميركا سيطالب بتسريحه، وينشط من أجل السلام، ويقود المظاهرات ضد الحرب.

ليلاً، تم ترحيل جثث ضحايا الضلوعية من المستشفى إلى المشرحة العامة، على أنهم قتلى صدامات طائفية عُثر عليهم في منطقة مهجورة من المثلث السني. وضعوا في أكياس، أعطيت علامات وأرقاماً، ثم أرسلت للدفن في مقابر الغرباء. التعليمات كانت، عدم الإقرار بها أو الكشف عنها إلا بعد الحصول على إذن بذلك، لئلا تثير هياجاً في الشارع وتحرض على المزيد من المنازعات الطائفية.

□ □ □

كنا جالسين في المقطورة، ميللر حانق، الحرارة عالية، التبريد لا يفلح في تبريد أعصابه الفائرة، لم ينجز شيئاً، الجنود عناصر مجموعة البرادلي الذين شاركوا في الإغارة، أصروا على أقوالهم، ولم يؤدّ تشديد الحصار عليهم إلى نتيجة.

عندئذ دخل علينا جيمي!!

غامر الصحافي بالظهور علناً عند باب المقطورة، اضطر إلى المجيء في هذه الظهيرة الخانقة. لديه ما لا يجوز قوله على الهاتف، أو تأجيله لجلسة يتفق عليها، والأهم، أنه يتطلب المناقشة وجهاً لوجه، لكن ليس قبل توضيح ما يجري، ولم يكن من قبيل المصادفة أن ما جاء من أجله كان يشغل بال ميللر الحانق.

«الجنود تلقوا أوامر بالثبات على أقوالهم، مع التعهد لهم بأن

التحقيق لن يطالهم، القضية سوف تقفل بعد يومين على الأكثر».

الواضح أن جيمي يستقي معلوماته من صديق له داخل المجموعة، يسرّب إليه أخبارهم. وكان رأيه ألا يعاود ميللر التحقيق معهم قبل الحصول على معلومات جديدة يواجههم بها.

عقب ميللر وقد تفاقم حنقه، المعلومات الجديدة لا تهمه، القديمة التي بحوزته كافية. وأصر على معرفة من يكون صديقه. فرفض جيمي، لن يخسر مصدر معلوماته.

اشتعل غضب ميللر، وسأله ساخراً:

«هل ما زلت وراء الحقيقة؟».

«لكي أكون صريحاً معك، لن أتذرع بالحقيقة كثيراً، وإذا كنت أريدها، فلأحصل على خبطة كبيرة».

أنهى ميللر النقاش بحدة:

«أنت تريد الحقيقة لتكتب عن فضائح الحرب، أما أنا فأريد الاقتصاص من الفاعلين، ليس بوسعي الانتظار، لو تأخرت أو تمهلت، فقد ينجون بجرائمهم. بالنسبة لك، تستطيع نفض يديك من هذه القضية».

لم يقل هذا الكلام إلا لأنه كان عازماً على طرد جيمي من المقطورة. نهض من مكانه وأشار بإصبعه إلى الباب. قال جيمي:

«إذا خرجت من هنا، فلن أتصل بك ثانية».

تردد ميللر، تابع جيمي الذي انتهز الموقف قائلاً:

«تمسكي بمصدر معلوماتي مهما كانت أسبابه، لا يسيء إلى الحقيقة».

تجمد ميللر، ما زالت إصبعه تشير نحو الباب، كان قد عزم على عدم التراجع.

كانا قد وصلا إلى طريق مسدود ولن يتفقا على شيء. صمت جيمي كان قد انهزم. فكر قليلاً، ثم قال كأنه يلقي بكلماته الأخيرة قبل أن يخرج:

«أحذرك، لا ينبغي المبالغة، الحقيقة قد تكون سيئة جداً وتهددنا نحن الذين نسعى إليها، حتى أننا قد نضطر إلى صرف النظر عنها نهائياً. لقد خسرت قضية كبيرة لأنني بحت باسم من سرب إليّ المعلومات. تمكنوا منه، وجعلوه ينكر أقواله كلها».

فأنزل ميللر يده، عاد إلى مكانه، وترك جيمي يتكلم.

في العام الفائت، صادفته قضية تصلح للبيع إلى الجرائد، أطفال لا تتجاوز أعمارهم العاشرة، خضعوا للتعذيب لإجبار أمهاتهم وأخواتهم على الإدلاء بمعلومات تخص أزواجهن وأشقاءهن من الذين يُشك في عملهم مع المتمردين. بعض الضباط من الذين وصلهم الخبر، احتجوا على تعذيب الأطفال، كان الرد أن الأطفال غير أبرياء، بل ويعرفون أشياء خطيرة من الممكن الحصول عليها بسهولة وبقليل من الترهيب، بدعوى أن الأطفال ينهارون مثل أمهاتهم، فيبوحون بما يساعد على القبض على

أقاربهم من المطلوبين الفارّين، فصدرت التعليمات بالموافقة، على أن يقتصر التعذيب على تخويفهم فحسب.

إثر بعض التجاوزات التي أدت إلى تقدم في التحقيقات، سُمح للمحققين بإهانتهم بالكلام الجارح مع توجيه بعض الصفعات غير المؤذية. ما تحقق من نجاح أثبت فاعليتها، فطالبوا بزيادة العيار، فصدرت الأوامر بتعذيبهم بشكل طفيف دون إحداث عاهة، جرى تجاوزها أيضاً خلال التحقيق إلى تعذيبهم... لكن ليس حتى الموت. تصور أطفالاً محروقي الأصابع، مخلّعي الأكتاف، مهشمي الأسنان، مقلوعي الأظافر، تعرضوا إلى صدمات كهربائية... هل لولد في السادسة أو السابعة أو الثامنة من عمره، القدرة على تحمل هذه الآلام المبرحة؟ رأيت طفلاً صار معتوهاً من فرط التعذيب، وآخر يعاني من الذهول، لم يفهم حتى بعد مرور أشهر على إطلاق سراحه، لماذا كانوا يصرخون في وجهه ويضربونه!! هذان الطفلان لم يكن بحوزتهما معلومات كي يبوحا بها، وحتى إذا افترضنا ذلك، أفلن تتساءل، ترى ما هذه المعلومات الخطيرة التي يخفيانها؟! ثم تصور الأمهات اللواتي يرين أولادهن يضربون بهذه الوحشية والبرود، ألن يقعن فريسة الجنون؟ طبعاً هذا غير مهم، ما دمن سيبحن بما يعرفنه.

ما حصل أدى إلى موت عدد من الأطفال، فتكتموا على موتهم بإخفاء الجثث عن أهاليهم، الأمهات رفضن مبارحة السجن إلا مع أطفالهن، فاضطرت سلطات التحقيق إلى دفن الأطفال في الصحراء بحضورهن. كان المشهد فظيعاً، مناحة لا يمكن تصورها، شيء يفوق الهيستريا، بكاء وإغماءات ولطم وشد شعر... ومنهن من أشرفن على الموت لولا إسعافهن، منظر لم

يحتمله حتى القتلة الذين أمروا بتعذيبهن وتعذيب أطفالهن!! بعد ذلك إسكاتاً للأمهات، صدر أمر بإيقاف الإجراءات ضدهن، بشرط ألا يتكلمن، طبعاً مع التهديد بإعادتهن إلى السجن مع ما تبقى من العائلة مهما كانت أعمارهم، ولو كانوا رضعاً.

«عندما علموا أنني في إثر هذه القضية، اختُطفت من الفندق، واحتُجزت في ثكنة عسكرية».

شنوا بعدها حملة معاكسة، أشرف عليها خبراء. المثير للاشمئزاز، أننا لا نفتقر إلى خبراء في كل شيء؛ التعذيب، القتل، الكذب، التهويل... سربوا إلى الجرائد شهادة لجندي كان ضمن مجموعة تحرس قافلة شاحنات تنقل الوقود، واجه أطفالاً مسلحين في اشتباك كان من أعنف الاشتباكات العسكرية، حصيلته قتل جنديين وستة سائقين. قال، إنه تميز أطفالاً بين أفراد عصابات المتمردين الذين هاجموه، الأول في العاشرة من عمره يحمل كلاشنكوفاً، والثاني في السابعة ويحمل رشاشاً، اضطر إلى قتل أحدهم دفاعاً عن النفس. أي أن الأطفال يشاركون في القتال، ومن الطبيعي وقوع خسائر بينهم.

استمرت الحملة المعاكسة وتنوعت، فجرى التركيز على عرض شرائط مصورة تظهر أطفالاً يقرأون القرآن وينشدون القصائد الدينية، كخطوة لا بد منها تؤهلهم للاشتراك بتنفيذ عمليات انتحارية دموية. ولكي تكون الرسالة أكثر وضوحاً، ألح الخبراء على موضوع تجنيد الأطفال من خلال عرض أفلام لأولاد في تنظيم يدعى «فتيان الجنة»، يقومون بتدريبات عسكرية على أسلحة حقيقية. ما ادّعوه لم يناف الحقيقة كثيراً، هذا التنظيم تابع

للقاعدة التي اعتمدت على استمالة أيتام الحرب ممن قتل أهاليهم في عمليات القصف العشوائية، أو اعتقل آباؤهم وأخوتهم، أو كانوا من ضحايا الاقتتال الطائفي، مستغلّين يتمهم وفقرهم ورغبتهم في الانتقام، على أمل الاستفادة منهم في تنفيذ ما يوكل إليهم من مهمات لا تتعدى المراقبة أو نقل الرسائل. عادة الأطفال لا يثيرون الشكوك عند اقترابهم من نقاط التفتيش أو بعض المقرات الحساسة، لكن أحياناً تبلغ الحماسة ببعضهم حد المشاركة في العمليات القتالية. بعد حين تبين أن الأطفال لم يكونوا أطفالاً، بل أولاداً أقرب إلى سن اليفاعة في حوالي الخامسة عشرة من عمرهم. حاول الخبراء الاستعانة بتنظيم آخر تابع للقاعدة أو لبعض جماعات المقاومة الإسلامية، كان مجهولاً وليس لديهم معلومات موثوقة عنه، أطلق عليه «عصافير الجنة»، كان لرعاية الأطفال الصغار الفقراء الأيتام، ومنهم ما زالوا في القماط، لتأمين الطعام لهم وتعليمهم، ولا يستبعد أن يكون الهدف منه بعد سنوات طويلة تدريبهم على القتال، لكن هذا يبقى غير مؤكد. روّجوا عنه أنه يضم مقاتلين وانتحاريين صغاراً في السن، كي يغطوا عمليات قتل أطفال لم يتجاوزوا الثامنة من عمرهم، قتلوا بالخطأ أو تحت التعذيب. فارتدّت الاتهامات على الأهالي، بأنهم يتبرعون بأطفالهم لمنظمة القاعدة، كي تستعملهم قنابل بشرية. الشخص الذي سرب إلي هذه المعلومات، اختفى بعد أن تراجع عنها.

«منعت عني الاتصالات، وقيدت حركتي، فعلياً صرت تحت المحاكمة. وجرى إعداد لائحة اتهامات ضدي، تشمل عدم الوطنية، وإضعاف المجهود الحربي، وربما الخيانة، في هذه الأيام، لا تدري بما قد تتهم، أقلها بالنسبة للصحافيين: ترويج أنباء كاذبة».

غير أن أطرافاً عديدة تدخلت لإلغاء المحاكمة، وإبقائه في العراق، حتى لا يثير القضية في الصحافة.

«على كل حال، سواء كنت في وارد الحقيقة أم لا، هناك دافع إضافي، لا أريد لجهدي أن يكون بلا مقابل، ومهما يكن فهو ليس بالعمل القذر».

لم يفه ميللر بكلمة. أخذ جيمي نفساً وتابع:

«هل تريد نصحيتي؟ لا تدع القسيس باركلي يفلت منك، سارع باستجوابه، دون أن تعمل أي حساب لتدينه، ضع في ذهنك أنه رجل محتال. عندما كان واعظاً، تورط في اختلاسات مالية، وقضايا أخلاقية شائنة».

«هل لديه صحيفة سوابق؟».

«صحيفته نظيفة، مع أنه قبل سنوات استغلّ منصبه الكهنوتي وقام بمشروع خيري انتهى إلى الإفلاس، وتبخر ما جمعه من هبات، المثير للسخرية أن المتبرعين سكتوا عن سرقاته، لأن مواعظه أراحت نفوسهم وطمأنتهم إلى خلاصهم في الآخرة».

«أخشى أن باركلي كان مخدوعاً، لا يدري أين كانوا يذهبون، ولا ماذا يفعلون. استعملوه لتبدو عملياتهم مشروعة، أو ليخفف عنهم تأنيب الضمير».

- «لا تظنه رجل محبة وسلام، إنه داعية حرب وكراهية. يشجع المارينز الدمويين والمرتزقة الأقحاح على القتل، ويكره العراقيين

دون استثناء ولا تمييز، يجاهر بأن التخلص منهم أجدى من حياتهم، هذا ما يعلنه صراحة في منشوراته ومحاضراته».

بات لا بد من مقابلة القسيس باركلي.

الرسالة الثانية عشرة

(لا أدري إلى أي حد أتورط كل يوم في العراق.

البشر هنا قصص متحركة، كل قصة لا تقلّ قسوة عن الأخرى.

أخاف أن أحرز قصة شبيهة.

أحس بكآبة شديدة.

الصورة التي تطالعني قاتمة جداً.

تجاوزتُ الحزن، مشاعري تبلدت.

أخشى أنني أقاوم على حسابك أنتِ).

□□□

- يقيم القسيس باركلي في غرفة متصلة بقاعة متوسطة الحجم، في البناء الذي استأجرت الشركة فيه مكاتبها، يلقي في القاعة دروسه

وعظاته على الجنود الراغبين في نفحة تدين من الذين تذكروا الله بين النيران، أو الذين يريدون أن يسمعوا شيئاً يطمئنهم، عما إذا كانوا يقدمون تضحية على مذبح حروب الرب، أم هي خدمة خالصة للوطن لا تشملها اعتبارات الخلاص المسيحية؟ وماذا لو ماتوا فوق أرض بلد يكرهونه؟ كان هذا موضوع بعض الكراريس الموضوعة على طاولة بجوار الباب.

القاعة تتسع لعدة صفوف من الكراسي، تبدو كأنها فرع لكنيسة، أو حجرة داخلية في دير مع قدر لا بأس به من الحداثة والجاهزية القتالية، فإلى جانب الصليب والمسيح بإكليله الدامي، والعذراء الباكية، شاشة للعرض كبيرة معلقة على الحائط، بالإضافة إلى شاشة تلفزيون صغيرة مفتوحة دون توقف وبلا صوت على قناة «فوكس» الفضائية، ثم كرسي ومنضدة عليها جهاز كومبيوتر وطابعة. وإلى الحائط، أسندت بندقية كلاشنكوف من أحدث طراز، على رف بجوارها ستة مخازن ذخيرة، ومسدس غلوك ومعه ثلاثة مخازن ذخيرة. ثم قنبلتان يدويتان عاديتان.

كان باركلي يلقي درساً حول النبوءات المقدسة، وكأدوات إيضاح علق على الحائط الجانبي بعض الصور والمخططات. دخل ميللر إلى القاعة في الوقت الذي وصل فيه القس الأربعيني الحليق الذقن والشائب الشعر، إلى موقف مسرحي يستلزم الإلقاء بصوت جهوري وبلهجة مظفرة:

«قد سقطت، قد سقطت بابل، وجميع تماثيلها قد طُوح بها أرضاً وتحطمت».

وأشار بيده إلى صورة معلقة جرى تكبيرها عدة مرات؛ ساحة

الفردوس في بغداد وتمثال صدام حسين المحطم. كان التشبيه جلياً، بغداد هي بابل الوثنية التي بشر بها سفر قزحيا في العهد القديم، أما التمثال المنطرح على الأرض، فيمثل كبير آلهتها.

دخول الميجور إلى القاعة لم يلفت اهتمام القسيس، وبما أنه لم يره من قبل، ظن أن الفضول دفعه للاستطلاع. حياه بنظرة من بعيد، وارتدّ إلى درسه، كان قد أنهى استطراده في ملاحقة فكرة جانبية، تعقيباً على تساؤل لأحد الحضور. وتابع حديثاً سبق أن بدأه، مشيراً بعصاه إلى مخطط أشبه ببرنامج يحتوي على فقرات مبوبة، عنوانه: «خطة الله للدهر».

كان قد وصل إلى أواخر العصر السادس من الخطة، أراد التركيز عليها لأنها الفترة التي نعيشها اليوم، ونحن الآن في انتظار حدثها الرئيسي الأول: «الارتقاء»، حيث سيظهر المسيح في الغيوم وسط هالة من نور، ليأخذ المؤمنين إلى السماء بدءاً من الأموات فالأحياء. هذا الارتقاء سيحدث فجأة في كل أنحاء العالم، تختفي على أثره أعداد كبيرة من الناس، خاصة الأطفال دون سبب ظاهر.

وعرض كوسيلة إيضاح إضافية، فيلم فيديو على الشاشة، تظهر فيه ناطحات سحاب وأبنية عالية، حقول فسيحة وشوارع عريضة، أشجار خضراء، وسيارات حديثة، وشاحنات كبيرة... ومقابر، وفي العالي المسيح بين الغيوم، باسطاً يديه لاستقبال المؤمنين. في الشوارع تخرج السيارات والشاحنات عن الطرقات، تنقلب وتندلع فيها النيران، الطائرات تصطدم بناطحات السحاب، ومن المقابر تخرج الأجساد البشرية وتأخذ بالارتفاع، يرتقون إلى السماء، تلحق بها أجساد الأحياء.

الحدث الرئيسي الثاني هو: «المحنة الكبرى»، تمتد سبع سنوات، يحكم أثناءها المسيح الدجال العالم من الهيكل في القدس، تحدث خلالها معاناة ومآسٍ رهيبة. في نهايتها يأتي المسيح بمجده وجلاله، يقود جيوش القديسين والمؤمنين ويهزم جيوش المسيح الدجال في معركة مجيدو قرب حيفا.

بانتصار قوى الخير على قوى الشر، تبدأ الفترة الألفية السعيدة، يحكم المسيح ابن الله العالم، وهو جالس على عرشه في الهيكل، ويسود السلام والعدل والسعادة.

هذه هي خطة الله للكون من الأزل إلى الأبد.

سأل جندي من المارينز القسيس باركلي بعض الأسئلة عن الجيوش المتحاربة. فقال له إن جيوش الخير ستضم الأميركان والأوروبيين والإسرائيليين، أما جيوش الشر، فهم العرب والروس والصينيون.

«والغلبة ستكون لجيوش الله».

شكا جندي من جنود المشاة، جالس إلى جوار ميللر، من شعوره بالذنب لأنه قتل مدنيين عزّلاً، رجل وامرأته وطفلهما، تجاوزوا الحاجز العسكري عن جهل. الأوامر العسكرية كانت إطلاق النار على السيارات المسرعة، للأسف لم تكن السرعة كبيرة، لكن أصبعه كانت على الزناد سريعة. كان المنظر مرعباً وهم يخرجون الجثث الثلاث من السيارة، قبل قليل كانوا أحياء!! المؤلم، أنهم ليسوا إرهابيين. منذ ذلك اليوم لازمه الأرق.

«لا للشعور بالذنب، إنها إرادة الله. اقتلهم جميعاً، قم بعملك، لا توفر أحداً منهم، ودع تصنيفهم لله».

أثار جوابه همهمات خافتة من عدم الاستحسان، بسط يديه يهدّئهم وعقّب بأن حوادث إطلاق النار كثيراً ما تقع، تحت تأثير التوتر والخوف والارتباك، أو لمجرد الاشتباه، بعض الجنود اضطروا خلال الاشتباكات إلى قتل نساء وأطفال. لا ينبغي أن يشعروا بأنهم مجرمون، هذا يحدث عن غير قصد.

«أقول لهم، لقد قمتم بفعل صحيح، لا تُؤاخذون عليه، هذا عمل الله».

اعترض جندي:

«هناك من يقتل بداعي التسلية».

ابتسم باركلي وغمغم بإجابة غير واضحة، بدا من خلالها أنْ لا مشكلة دينية؛ الله على استعداد للغفران، المشكلة مع القانون، لكن هناك أسباب تخفيفية.

واحد من المتعاقدين المدنيين، ضخم الجثة من فريق حماية الشخصيات المهمة، سأله عن مكانة هذه الحرب في العراق في الخطة.

«إنها المقدمة لتحقيق النبوءة عن دمشق، هذه المدينة ستدمر قريباً. كن على ثقة، ستصبح كومة من ركام».

المحاضرة لم تعجب كابورالاً زنجياً. وقف قائلاً، إن ما يعرفه عن

الإسلام أنه دين مثل المسيحية واليهودية، المسلمون يعبدون الرب نفسه، ويصلّون مثل الآخرين، ودينهم يردعهم عن الأعمال السيئة!!

«إذا كان الإسلام ديناً، فهو من أخبث الأديان، زعيمهم محمد إرهابي، قتل المسيحيين واليهود بحد السيف، رجل شره للنساء، مزواج لم يوفر حتى صغيرات السن اللواتي لم يبلغن بعد، كان يغتصبهن.. هل هناك نبي وفاسق؟!».

لوّح الكابورال برأسه غير مصدّق وقال:

«أنت لا تقول الحقيقة، وأنا لا معلومات لدي».

وانسحب من القاعة بعد أن أحدث غير قليل من الهرج.

أنهى القسيس المحاضرة، فنهض الحاضرون وبدأوا بالخروج. تلكأ ميللر ريثما فرغت القاعة، اقترب منه، وقدم نفسه إليه.

اربدّ وجه باركلي، زمّ شفتيه وتحفّز، ورحب به ببرود، ونبهه بجفاء، ألا يطيل وجوده، لا يستطيع إعطاءه إلا القليل من الوقت، لديه مشاغل كثيرة، روحانية تماماً، يريد التهيؤ لها، قبل أن يخلو إلى نفسه.

واجهه ميللر دون مقدمات بما ارتكبته المجموعة التي يرعاها من جرائم، وطلب منه تفسيراً، ومعلومات عما كانوا يفعلونه؟

«لا أعلم أكثر من غيري، المهمة الموكولة إليهم كانت القبض على المتمردين مفجري المركبات الذين يقتلون جنودنا. وما قدمته

لهم لا يزيد عن تلاوة صلاة قصيرة قبل أن ينطلقوا إلى مهماتهم، كنت أباركهم ثم يرددون ورائي الدعاء: يا رب، هناك أشخاص أشرار، ساعدنا على العثور عليهم، وسامحنا إذا قتلناهم».

«يبدو أنهم عثروا عليهم».

«الرب ساعدهم».

«هل تعتقد أنه سيسامحهم؟ شركاؤك ارتكبوا عدة مجازر».

«شركائي في الإيمان».

«قتلوا رجالاً ونساء وأطفالاً أبرياء. كان عليك أن تردعهم لا أن تباركهم».

«لقد أديت واجبي الديني نحوهم».

«ما الذي كانوا يبحثون عنه؟!».

«لم أسألهم».

أجاب القسيس عن أسئلته بامتعاض وحدّة، معبّراً عن انزعاجه من طرحها، كانت لا تستوجب التساؤل. قال ميللر:

«إذا كنت تعلم بغاراتهم الليلية، فأنت لا تجهل بأنهم لم يحصلوا على إذن بالقيام بها. أجبني بصراحة، لا تكذب، أعرف عنك الكثير».

«أنا لا أكذب، لا تنس أنك تتكلم مع قسيس».

«وأعرف عن الحصة التي وعدوك بها، مليون دولار، مكافأة عن ماذا؟».

باركلي الذي اهتز للحظة، سرعان ما تماسك:

«مليون دولار؟! هل تظنهم سيعثرون على منجم ذهب؟».

وكأنه جاء دور القسيس ليعبث به، كان يبتسم بلؤم ساخراً منه. كان ميللر قد فشل في تضييق الخناق عليه.

«لا أمزح معك، لدي معلومات عن تورطك معهم».

«أنت تتهم رجل دين مسيحياً أبيض وأميركي، انتبه لا سلطة للجيش الأميركي عليَّ، ولا لأحد، سوى الله».

لم يتحمل مراوغته، بلغ به الانزعاج أشده، لم يعد باركلي يكذب عليه بل يتلاعب به، ويستعين بالله عليه!! أيقن جازماً أنه أمام قسيس محتال فعلاً، جاء مع مرتزقة شركة ميترا، مرتزق مثلهم، ما الذي يمنعه من استغلال الدين المسيحي وتوريط الجنود بالقتل تحت راية يسوع؟! غير أنه فقد صوابه عندما استمرأ باركلي مقدرته على التخويف.

«انتبه، هذا نداء الرب، لا تعترض وإلا يقضى عليك بنار جهنم».

كان يهدده بالذات!! أليس جنوناً أن يعتقد قسيس مزيف أن صوته نداء الرب، أو بإمكانه أن يرسله إلى الجحيم؟ لكنه لم يفقد اتزانه إلا عندما لمح تلك الابتسامة الساخرة تزداد لؤماً، وباركلي يتصرف باستعلاء كأن تأثيره لا يقاوم، ولا يستطيع أحد أن يطاله

بجرم أو شبهة.

أمسكه من ياقته وشده نحوه بعنف.

«أنت الذي أرسلت إليَّ المنشور».

فوجئ باركلي بحركته، والأكثر بعينيّ ميللر، كانتا تغليان بالغضب، فيما قبضته تشتد حول عنقه. خرجت الكلمات متحشرجة من بين أسنان باركلي، فهم منها ميللر أن الحرب دينية.

«بل من أجل الديموقراطية».

ودفعه بعيداً عنه بكلتا يديه، فاصطدم باركلي بالكرسي وانقلب به. ارتفع بجذعه، وهناك من موضعه على الأرض، هتف وهو يرغي ويزبد:

«أيها الأحمق، إنها فرصة للكاثوليك والإنجيليين للقضاء على عصابات المسلمين. لا تشفق عليهم هؤلاء العراقيين، إنهم عرب مسلمون أوغاد، كفار بالولادة، يعتنقون دين الإرهاب، لا يحرفون تعاليم كِتابهم، وإنما يطبقونها كما وردت فيه، دينهم يأمرهم بقتل المسيحيين حيثما وجدوا وأن يكونوا لهم بالمرصاد».

تمتم ميللر حانقاً، إن لهم حقاً بالحياة.

«لا تقلها، هؤلاء الذين تدافع عنهم غير جديرين بالعيش، إنهم ينحدرون من سلالة أقل مكانة منا، حيوانات ينبغي الصراخ فيهم. وإذا أردت أنت وغيرك، تحريرهم ومنحهم الديموقراطية، فهم لا

يستحقون هذا الخير، إنهم سائرون على طريق الشر. أما نحن، فعلى صواب».

«سأبذل جهدي كي أسجنك».

«أتدرك ما الذي حققناه هنا؟ لقد أجبرناهم على السجود لنا وتحت أقدامنا، هؤلاء الذين يتباهون بأنهم لا يسجدون إلا لربهم».

«لا تستعجلني، قد أقتلك».

«أحذرك، أنت لا ترى بعيداً، خطة الكون هي التقدير الإلهي لجميع العصور منذ بدء الخليقة وحتى الأبد».

انتهت المقابلة العاصفة بوعد من ميللر للقسيس أنه سيقبض عليه ويوقفه عن عمله.

انطلق ميللر من فوره وقابل الكولونيل، وأطلعه على حقيقة تستر شركة ميترا كورب على قسيس محتال ذي ماض قذر. وطلب الإذن كي يودعه في السجن ريثما يحقق معه. استمع الكولونيل إليه، ورفع حاجبيه، لم يكن مدهوشاً، كان مغتاظاً، ما قال شيئاً. نهض من وراء مكتبه وأخذ يتمشى بعصبية جيئة وذهاباً، تمشى كي يكبح غضبه. ثم توقف فجأة واستدار نحوه.

اسمع ميللر، نحن لا نهتم بماضي الأشخاص الذين نتعامل معهم، إن أغلبهم ذوو ماض مبهم، لو أخذنا بالحسبان سجلهم المهني أو وضعنا شروطاً أخلاقية على استخدامهم، فلن يأتي أحد إلى العراق.

هل تريد فكرة عن الأُشخاص الذين نتعاقد معهم؟ عسكريون تشيليون ينتمون لفترة حكم الجنرال بينوشيه، هؤلاء قتلوا وعذبوا معارضين سياسيين حتى الموت، وبلادهم لم تحاكمهم. ضباط سابقون من جنوب أفريقيا متورطون بالعديد من الاغتيالات في مرحلة نظام الفصل العنصري، ومنهم أعضاء في الشرطة السرية متخصصون بمكافحة التمرد، لم يتورعوا عن وسيلة لإخماد أي بادرة احتجاج شعبية. وهناك فرنسيون وبلجيكيون من رجال المظلات السابقين من ذوي السمعة السيئة جداً، وأيضاً محاربون روس قدامى عملوا في الشيشان، بلغت بهم القسوة أنهم كانوا يفجرون أسراهم، بالإضافة إلى مجرمين نزلاء سجون لانتهاكهم حقوق الإنسان، وإسرائيليون يعرفون العربية لديهم سجل حافل بقتل الأطفال والنساء في انتفاضات الشوارع، وعسكريون أميركيون متقاعدون شاركوا إن لم يكونوا قد صنعوا انقلابات أميركا اللاتينية... لائحة طويلة، وهناك المزيد، جميعهم رجال ذوو خبرة، وعلى درجة عالية من الاحتراف، يتمتعون بشجاعة نادرة مع روح المبادرة واتخاذ القرار، الحرب مهنتهم، لا يشكل لهم دوي القنابل والتفجيرات وقذائف الهاون ولعلعة الرصاص سوى موسيقى حماسية مرافقة لا بد منها لتجديد نشاطهم، فلا تتوقع محاسبتهم أو مقاضاتهم.

لا أريد أن أسمع منك شيئاً عنهم.

في اليوم نفسه، وجه القسيس باركلي ضربتين متواليتين إلى ميللر، الأولى قاصمة. تقدم بشكوى إلى شركة ميترا كورب، زعم أن الميجور اعتدى عليه في غرفته، ضربه وطرحه أرضاً، وهدد باعتقاله... أما الثانية فموجعة، إذ غفر له فعلته. ولم يطلب شيئاً

لنفسه، أليس الميجور جندياً في جيش الرب، جيش الولايات المتحدة الأميركية؟

أخفق ميللر في استصدار أمر بتوقيف باركلي، واعتُبر كلام القسيس عن الخطط الكونية لغواً دينياً، لا موجب للتعليق عليه، ومن الأفضل عدم الإشارة إليه من قريب أو بعيد. كانت سلطات الاحتلال جادة في استبعاد هاجس بغنى عنه.

سألني ميللر، هل لدى المسلمين شيء شبيه بهذه المعتقدات؟

قلت له، ما أعرفه، أننا نحن المسلمين نعتقد أن الله لم يطلع أحداً على خططه.

الرسالة الثالثة عشرة

(أنتِ لا تلومينني... لا أنكر هذا. أنا ألوم نفسي.

لقد خلَّفت ورائي مشكلة كبيرة.

أنتِ في ورطة، آسف لأنني لست قريباً منك لأخلصك منها.

أسيء دائماً إلى الذين أحبهم.

لو أمعنتُ النظر في حياتي، لهالني ما اقترفته من أخطاء.

أنا عالق في واحدة منها، أسوأها على الإطلاق.

لا تدعيني أعتقد أنني ارتكبت معك خطأ لا يمكن إصلاحه إلا بإهمال ما أنا جادّ في سبيله.

نعم أنا بحاجة إلى دعم منك أنتِ بالذات

سؤالي، هل تدافعين عن علاقتنا، أم عن الجنين؟).

□□□

لا تخيّرني بينكما، أريدكما معاً. كان هذا ردها.

ومع هذا يحق لي طلب مساندتها، سناء مدينة لي مثلما أنا مدين لها.

كانت في أشد الحاجة إليّ، في وقت لم تعد فيه تحتمل مشاعر الوحدة، ولا معاناة عزلة ضاقت بأوهامها ووساوسها، خلّفا في داخلها إحساساً بالتشتت والضياع، واليأس من مستقبل بدا في منتهى الإجحاف. وكادت أن تنهار وتقبل بعرض زوجها، وتكون زوجة أولى قديمة إلى جانب ثانية جديدة.

شجعتها أحاديثي معها على عدم التراجع. ولقد احتاجت إلى جرأة كبيرة كي ترفض عرضه، لم تتوفر لولاي. في ذلك الوقت اعتبرتني، مازحة، مرشدها الروحي، لم أحاول لعب أي دور آخر، كان فارق العمر بيننا نحو عشرين سنة.

بعد حصولها على الطلاق، لم أتركها نهباً لحرية الفراغ، ولا لندم المطلقات، وكان وارداً بعد زواج طويل سبقته سنوات حب عديدة. ومع هذا حرك الانفصال النهائي أحاسيس أخرى بالإضافة إلى القديمة، كان أكثرها إرهاقاً إحساسها المتكامل بالغبن الشديد، تلك كانت محنتها الثانية، وكانت جلية في اعترافها لي، بأنها لم تكسب شيئاً لنفسها من زواج حصدت وحدها خسائره الكبيرة. أضاعت سنوات شبابها اليافع، وتنازلت عن حقوقها

المادية، ولم ترزق بولد يمنحها دافعاً جميلاً للحياة؛ ولقد فاقم شعورها بالإهمال، أنوثتها المهددة باليباس، هكذا تخيلت، وكادت كي تعيد الاعتبار لجسدها أن تنجرف في علاقات تافهة وعابرة.

كان البدء من جديد بعد حياة زوجية اعتادت عليها، رغم كل عللها، مشكوكاً به. بل وكاد اندفاعها نحو بداية أخرى، أن يورطها بزواج مرتجل. ظهر رجل في حياتها، جاء من الماضي، كان زميلاً لها في الجامعة قبل الزواج، لم يثر لديها في ذلك الزمن شيئاً، فجأة أصبح فارس أحلامها الذي سيحقق كل آمالها.

كان أكثر ما تخشاه أن تتحسر على فرصة ستفوتها إن لم تنتهزها.

قلت لها، لا ينبغي للعمر أن يجبرك على التورط بعلاقة دائمة كالزواج.

قالت، العمر يسرقني.

كان إحساسها طاغياً بأنها تقترب من سن اليأس.

قلت لها، ليس هناك سن لليأس.

الحياة تبدأ ثانية في أية لحظة نحن نختارها.

ولم أكن مؤمناً بهذه الفكرة. أحياناً لا أدري ماذا تعني الحياة بالنسبة لي، بعدما تخليت عن آمالي، لكنها لم تتخلَّ عني، منحتني مبرراً غامضاً للاستمرار، وأكثر من دافع للخلاص، دون أن تهبني أي يقين، كان في سلوكي طريق الحيرة والتردد، خيار أقل

وطأة على الضمير، وأفضل من الانصياع لأزمنة النفاق.

بالنسبة إليها، كانت حظوظها أفضل مني، كان الخلاص في الشعر تعويضاً ملائماً في هذه المرحلة الفاصلة، حرضتها على مواصلة الكتابة لتسبر غور حياة يجب التبصر فيها، لا أن تعاش كيفما اتفق، بالتعلق بوهم آخر، أو التعلل بأمل زائف. كان لديها الكثير مما تفعله، ولا سيما أنها بدأت تشق طريقها بالفعل في هذا العالم الفسيح، ما ساعدها على التأمل والكثير من التروّي والتفكير، حتى أنه حثها على التراجع عن الزواج، لتخرج بقرار نهائي، أملاه الشعر عليها: لا لتجربة زواج ثانية؛ وكأن الشعر حرية.

في الحقيقة، قرأت نفسها في شعرها.

هي أيضاً، ولا أنكر، كان لوجودها تأثير خفف من تبعات انفصالي عن زوجتي، والمرور بأزمة ما بعد الطلاق بقدر معقول من العناء. نجحنا في تضميد جراح بعضنا بعضاً، تجلى في هذا الدعم المتبادل، دون التفكير من ناحيتي بالزواج بها أو بغيرها، كان الشعور بأنني تقدمت في السن مسيطراً عليَّ، رغم أن علاقتنا بعثت فيَّ حيوية لم تكن كافية؛ كان الماضي متحكماً بقرارتي، أودت بي هزيمتي في السياسة والمبادئ إلى اعتزال الحياة معهما، وعلى الرغم من ذاك المبرر الغامض للاستمرار، كنت أشبه بأنني لا أعيش.

استمرت صداقتنا دونما هدف، ما جعل لقاءاتنا تتخذ مساراً متقطعاً وهادئاً، لم يتسارع أو ينتظم، فلم نتقدم خطوة أخرى ملموسة. كنا حذرين تجاه أية مشاعر متطرفة تدفعنا إلى الوقوع ثانية في شباك ما نجونا منه، شئنا ألا تتكرر علاقتنا على نمط

مشابه، في الماضي كانت مبررة بفعل الحب الأعمى، أما الآن فما الذي يبررها؟ كنا مبصرين وعاقلين أكثر مما يلزم.

كنا مرضى بالبصيرة والعقل.

هذا التجاذب الرصين، أشاع في داخلي الثقة بأنني كنت متحرراً من العواطف، وغير متحمس لأي رباط مقدس أو غير مقدس. فيما كنت، من غير أن أدري، أستهل أولى خطواتي في علاقة كانت على الرغم من محاولتي الحفاظ على مسافة بيننا لا أتجاوزها، تتقلص مع الوقت، سمحت لي بتقارب وئيد ذي طابع غرامي.

صحيح أنني لم أظهر مشاعري، لكنها باتت تؤرقني. فخشيت الوقوع في أسر ما يحمله الواحد منا من احترام للآخر، وأستمرئ حالة من الرفقة الخجولة لا أتعداها. ولأنني أنا الرجل كانت المبادرة مطلوبة مني. صارحتها بكثير من المودة عن شدة إعجابي بها، وعن أملي بأن تستمر علاقتنا على نحو أعمق، واقترحتُ رفع وتيرة لقاءاتنا، كي نتعرف إلى بعضنا بشكل أفضل. لم تمانع، راقتها الفكرة. بدا تفعيل علاقتنا بشكل متدرج أسلم سبيلاً، فأعطيت لنفسي أكثر من مهلة، لأستوعب فكرة رباط لم يستهوني في البداية، لكنه فيما بعد استأثر بي.

أدركت، وإن متأخراً، أنني أخوض قصة حب محترمة من النوع البرجوازي... وأنيقة جداً، مرسومة ومحسوبة بكل تحفظ، على الضد من يساريتي القديمة. كنت قد ابتدعت من هذه الموانع الحقيقية وغير الحقيقية حاجزاً بيننا، ولم يكن اجتيازها بالأمر السهل.

كان الزواج ضرباً من حياة تخطيتها، ولا بد من فرصة أختبر فيها احتمالاً نقيضاً مشجعاً لأسلكه ثانية. اعتقدت أنه طالما استبعدت تباريح العشق المعتادة في مثل هذه المواقف، فإن العاطفة لن تؤثر فيّ إلا بقدر محدود. كنت أقرب إلى الحكمة لا الحنكة، لم أشعر أنني أسير في اتجاه مغاير إلا عندما بدأت أعاني من أعراض الحب، لواعج وأشواق، وتداعياتها إلى حالات على نمط السهاد والأرق، إن لم يكن هما بالذات، ولم أكن في عمر يجذبه هذا المزيج من البطر الغرامي المتعب والغامض.

قررت الانسحاب، لكنني لم أنسحب، ترى هل أخطأت؟

لن أجهد تفكيري ولا ذاكرتي، فلأتوقف قليلاً.

ها أنا وصلت متأخراً إلى فندق المنصور ميليا. كان المسؤول البعثي قد اختار للمرة الثانية الاجتماع في فندق، وللسبب نفسه؛ محصن جيداً. كان جالساً باسترخاء يمسد شاربه الضخم ولحيته الخفيفة، ومرافقوه المتحفزون يقفون بجانب منصة الاستقبال، وإلى جواره فاضل يستمع إليه، بينما ظننت أنه يتبادل الحديث معه.

كان يسترجع ذكرياته، خصوصاً تلك الذكرى الأليمة، عندما شهد من هذا الفندق بالذات، الغروب المتوتر، الصاخب والدامي، للمشاهد الأخيرة التي سبقت سقوط بغداد ودخول القوات الأميركية، يسردها كأنها تتخايل أمامه على صقال الزجاج:

الموقف لم يكن ميؤوساً منه ولا سيئاً، الأخبار تتوارد تباعاً؛ المعركة ما تزال في بدايتها، القصر الجمهوري تعرض صباحاً

لهجوم أميركي. خارج الفندق يتصاعد الدخان في الفضاء، ورائحة البارود تنتشر. قوات المتطوعين غير النظامية تجمعت على تقاطعات ومفارق الطرق المؤدية إلى القصر، وعلى ضفة نهر دجلة، في الجادة الواسعة التي يقع على أحد جانبيها مبنى وزارة الخارجية. مقاتلون مدنيون يرتدون أزياء مختلفة الألوان، اعتمروا كوفيات حمراء، خوذات، بيريهات، أو حاسري الرؤوس، مع عناصر من القوات الخاصة بزيها المرقط، وجنود باللباس العسكري الأخضر وبعضهم بسراويل جينز، يهرولون في كل الاتجاهات، في حين تحصن بعضهم في مواقعهم، وصوبوا أسلحتهم باتجاه القصر. فيما أخذت عاصفة رملية تجتاح المشهد وتحجب الرؤية.

انكشف الموقف بعد حين عن جثة على الأرض لأحد عناصر الميليشيا مضرجاً بالدماء، لم يتمكنوا من سحبه. ثلاثة من رفاقه على مقربة منه يحتمون بساتر عند مدخل الجسر، يشيرون بأيديهم للسيارات كي تعود أدراجها من حيث أتت. تبادل إطلاق النيران محتدم بالأسلحة الرشاشة حول القصرالجمهوري، عشرات المقاومين كمنوا متزنرين بأحزمة من الذخائر خلف الأسوار والأشجار. بينما أغلقت الشوارع المؤدية إلى المجمع الرئاسي الضخم الممتد على عدة هكتارات بالحجارة والكراسي ودواليب السيارات، واحتمى آخرون وراء المتاريس وجدران المباني، حمل بعضهم بنادق كلاشنكوف وآخرون راجمات صواريخ وذخائر على ظهورهم، في حين استلقى الباقون وراء رشاشاتهم الثقيلة.

الحركة لم تفتر مساء، شاحنات مغطاة بالوحل تنقل المقاتلين إلى وجهة غير معلومة. وفي الصباح اتخذت دبابتان أميركيتان موقعين على الجسر، بينما طائرة أميركية أخذت تقصف المجمع ومنطقة

وزارة التخطيط على علو منخفض جداً. حصل تبادل إطلاق نار مع الجنود الأميركيين، واستمرت المعارك عنيفة ما يزيد على ثلاث ساعات.

«لم يخطر لي حتى في أسوأ كوابيسي رؤية دبابات برامز وعربات برادلي تتقدم فوق جسر الجمهورية، توقعت أن ينفجر الجسر بها وتتهاوى في دجلة. لا أنسى عندما توقفت عربات البرادلي، وصوبت مدافعها باتجاه الفندق وأطلقت قذائفها، ثم استدارت وسددت على مبنى وزارة الدفاع القديم».

بينما كانت المجنزرة الأميركية تعبر ساحة الفردوس على شاشة التلفزيون كان العراق قد سقط. أما إسقاط تمثال صدام حسين، فكان الانهيار الأكيد.

«وجرى الانسحاب تبعاً لخطط وضعت مسبقاً لإعادة تجمع المقاومة في الداخل».

في صالة الفندق وسط ما تبقى من أثاث فخم بحاجة إلى تجديد، كانت الموسيقا تضرب رأسي وتتسارع على وقعها العمليات الحربية؛ موج صاخب، يتعالى وينخفض، يعيد بثَّ ذلك الشريط الخليط من سلاسل الدبابات وحمم القذائف.

لم يخطر لي شيء سوى أنه لا يعول على هذا الرجل. كان أحد الذين أضاعوا بلداً ودولة، رغم أنهم ببطشهم وجبروتهم حافظوا عليهما بالحديد والنار والإعدامات والمشانق. ليس بوسعه فعل شيء، ولا يرتجى منه شيء. لم يشكل له سقوط بغداد أكثر من مشهد حربي، لم يشارك به، وكأنما كان حاضراً لا ليقاتل، بل ليرويه فحسب.

كان ينتظر من المقاومين البعثيين والمتطوعين العرب أن يعيدوه بدمائهم إلى مناصبه.

لم أسأله عما جرى بشأن الاتصال بالقاعدة. بحثت عن شيء أتكلم حوله فلم أجد سوى بشاعة ما يجري من تصفيات دموية. وذكرت على سبيل المثال حادثة الضلوعية. وتساءلت هل هي القاعدة؟ ومن الغرابة أنه كان على علم بتفاصيلها!!

«سيستغل الأميركان ما يشاع عن العلاقة السيئة بين الشيخ عبد الرحيم والقاعدة، ويلصقونها بالإسلاميين، كانت له فتاوى مضادة للقاعدة، عارضهم في تكفير الشيعة، وأجار الكثيرين منهم، وانتقد قطع الرؤوس، ولم يوفر جهداً لاستعادة مخطوفين أبرياء... جربوا استرضاءه، فأرسلوا إليه شيخاً ناظره، واختلفا كثيراً، وانتهت المناظرة باتفاق على أن لكم دينكم ولي ديني، وقبل الجميع بما ارتآه الشيخان».

قلت له إن العملية تحمل بصمات القاعدة.

«ليس صحيحاً، القاعدة لم تحاول إيذاءه، وإلا خسرت أحد ملاجئها. الاتفاق بينهما كان واضحاً، لا نعترضك ولا تعترضنا. وعدهم بألا يؤلب عليهم أهالي المنطقة، ولا يرفع سلاحاً ضدهم، ومثلما أجار الشيعة، أجار مقاتلي القاعدة، وكان له تأثير على الزرقاوي».

قاطعته، لم أتوقع أن يردد المسؤول البعثي اسم الزرقاوي على أنه حقيقة مفروغ منها.

«ما أعرفه أن الزرقاوي شائعة أميركية، ألم يقتلوه قبل سنوات؟».

«عادوا وأكدوا وجوده، روجوا له صورة الإرهابي الشبح، والقاتل الذباح... استفادوا منه حياً أكثر منه ميتاً، وصار ذريعة لتطهير المناطق المشتبه بها. فإذا أرادوا تأديب مدينة، يعلنون عن وجوده فيها، فتدك الأحياء بما فيها من أهالي وما تحتويه من مباني، مسجداً كان أو مستشفى. وإذا أرادوا تمشيط قرية، يجري اجتياحها وتهديم بيوتها فوق رؤوس ساكنيها».

حسب معلوماته، الزرقاوي ناشط في مناطق المثلث السني، ربما كان شبحاً، أو حقيقة، ورغم أنه يشك بوجوده لكنه لا ينفيه، هناك أشخاص يقال إنهم رأوه بل وقابلوه. عموماً الكثيرون يستغلّونه على الوجهين.

«أما حادثة الضلوعية، فعلى الأغلب، فوض الأميركان شركة ميترا كورب بإشعال معركة، ينجم عنها طرد الأهالي للقاعدة من منطقتهم، طبعاً بمساعدتهم».

فوجئت بمعرفته ملابسات ما يجري على الطرف الآخر، مع أن الأميركان تخفوا على الجريمة والشركة وحادث الاصطدام. لاحظ دهشتي.

«لا تستغرب، إنها مقاولة، الأميركان طلبوا، والشركة تعهدت بالتنفيذ لقاء المال، هذا إذا أردت تفسيراً سريعاً».

لم يكن يلقي الكلام في الهواء، كان يعرف الكثير. لكن هذا الكثير بلا دليل، كان البعثيون يحيلون كل شيء إلى مؤامرة وراءها

الأميركان، وهذا ما جعلني أعود صاغراً إلى قضيتي، وأسأله عما جرى بشأن الاتصال بالقاعدة.

كنتُ محقاً، جاء كي يعتذر مني، جميع محاولات الحزب فشلت، لم أسأله حزب البعث أم الحزب الإسلامي.

«الجماعة الإسلامية التي توسطناها، تتعاون معهم ميدانياً؛ بشكل محدود وعملياتي. القاعدة لا تكشف أوراقها لأحد. إنهم حريصون جداً. الجماعة حاولت، لكن دون فائدة».

أشعل سيجاراً، أشحت بوجهي عنه، لم تعد لدي رغبة في الكلام. تدخل فاضل:

«قد تنجح محاولة ثانية مع جماعة أخرى».

«الحسابات الطائفية والسياسية تتجاوز هذه الأمور الصغيرة. ما الذي يعنيه ابنك بالنسبة إليهم؟ إنه مجرد شاب ينتظر دوره للانضمام إلى قافلة الشهداء. لن يتورطوا من أجله، هناك الكثيرون من أمثاله».

رن هاتفه المحمول، تكلم قليلاً، نهض من كرسيه، اعتذر، لديه موعد آخر.

«على كل حال، سأحاول، أراكم غداً في هذا المكان».

تقدم خطوتين نحو الباب، ثم تذكر شيئاً، عاد وانحنى عليّ قائلاً:

«لن أخدعك، لا شيء مضمون».

كان يطلب مني عدم التعلق بأي أمل، وبذلك يتحرر من أي وعد نحوي بمجرد خروجه من الباب، بعدها لن يهمه أمري أبداً.

وافقني فاضل:

«هذا أمر فوق طاقته».

الرسالة الرابعة عشرة

(جهودي لم تفلح، والوعود جميعها لم تجدِ.

لا أفعل شيئاً.

أتابع قضية أخرى، لا تخصني، علّها تنتهي.

لم تجلب لي اليأس فقط، بل وأتعبتني.

إذا لم يحالفني الحظ، فسوف أعود قريباً، لكن ليس قبل أن أبذل كل طاقتي.

أنا مشتاق إليكِ، هذا أقل ما يمكن أن أشعر به نحوك، هذا إذا بقيت لدي مشاعر إنسانية).

□□□

تفاقم وضع ميللر حرجاً، مع أن الكولونيل وافق على تمديد فترة التحقيق بيومين إضافيين، فقد وضع له العراقيل؛ وبات يواجه الأسوأ.

منذ بدأ يمارس عمله في المنطقة الخضراء، لم يتعرض ميللر إلى مثل هذا التشكيك، رؤساؤه في الإدارة يستعجلونه نادمين على أنهم أوكلوا إليه التحقيق، وأنه غير مناسب للقيام به. الانتقادات تحيط به، ما يصله منها يقلقه، بعد أن حاز طوال فترة عمله معهم على تقديرهم. نشاطه السابق لاقى استحساناً على جميع المستويات، بينما الآن ألقيت ظلال قاتمة على كل ما أنجزه من قبل، وعُوملت بخفة انتقاداته الشديدة على إهمال المتعاقدين التقيد بوتيرة سير العمل في وحدات التدريب. من قبل عندما هدد بالاستقالة، استرضوه بتوجيه اللوم إلى ميترا كورب وتوعدوهم بفسخ العقد معهم. كانوا معجبين به، ولفتت جهوده نظر الجنرال قائد قوات التحالف، فأوكل إليه قيادة الوحدة السرية لملاحقة الإرهابيين المطاردين، وطلب ترقيته في إجراء غير عادي، دون انتظار دوره. لكن طلب الترقية أوقف، مذ بدأوا يتذمرون من تباطئه في التحقيق ولمحوا له عن استعدادهم لقبول استقالته وإعادته إلى أميركا وترضيته بوسام. كان برأيهم يسهم في تعقيد الأمور، وإعاقة العمل بوساوسه. وعندما شكا لهم معاناته الإرهاق العصبي والتوتر الدائم وقلّة النوم من جراء تدخلاتهم السلبية، طلب منه الكولونيل مراجعة الطبيب النفسي في الوحدة، لكنه رفض، ما يشكو منه معروف، وهم سببه، إنهم يعرقلون جهوده ولا يتجاوبون معه.

كان يظن بأنه يتحرك ضمن نطاق من السرية، ولا يعرف أنهم

أفرجوا عن جانب من التحقيق وأطلقوه إلى العلن مع شائعات تُضعف صدقيته، ما دفعني إلى مصارحته بأن مسؤولاً بعثياً سابقاً على علم به، جريمة الضلوعية أصبحت معروفة جداً، وكل منهم يعطيها أبعاداً ويفسرها كما يشاء، يبدو أنه الغافل الوحيد غير المتأكد من الذي ارتكبها، وما يزال يناقش من يكون وراءها:

«ألا تريد أن تعرف من؟ إنهم جماعتك الأميركان، لن يدعوك تتابعها، هذه إحدى المهام التي يطلبون من الشركات تنفيذها».

«لا تقل لي، إنهم أجروا مناقصة رست على ميترا كورب!!».

ومع هذا، بناء على معلوماتي، فاتح ميللر رئيسه، وقال له، هل هذا هو السبب الذي يدفعكم لإبعادي عن التحقيق، إذا كنتم أنتم، فلن أعفيكم من المسؤولية، سأوجه اتهامي إليكم من خلال أية وسيلة كانت.

ثارت ثائرة الكولونيل وقال له: إذا كان لدينا خطة فلن تكون سوى استمرار التقاتل بين السنة والشيعة، هذا الأمر الوحيد الذي يخفف عنا، مع أننا لا نشجعه، وحتى إذا كان، فهو أمر لن نكلف به أحد سوانا، خطورة العملية تحتم علينا التصرف بمنتهى السرية. وبالنسبة للضلوعية وغيرها، تأكد أننا لن نتورط بجرائم على هذا القدر من البشاعة.

لم يصغ إلى أحد ممن كانوا يستحثونه على إغلاق ملف القضية، لكنه أصغى إلى جيمي الذي طلب منه الإسراع، كان الصحافي يخشى من انكشاف الشخص الذي يسرب إليه المعلومات، لئلا يخاف وينكر ما قاله.

«إذا كان ضميره قد استيقظ، فضميره قد يأخذ غفوة. هذا الجندي مرتبط مع رفاقه بقسم على ألا يفتح فمه بكلمة حول الغارات الليلية، ماذا لو عرفوا بخيانته؟!».

النقطة المهمة، التي لم يفصح عنها الجندي حتى الآن هي، عما كانوا يبحثون، أو ماذا كان الهدف من غاراتهم؟! قال جيمي، لو أفصح عنها، فسوف يعرفون بحدوث تسريب من داخل جماعتهم بالذات، وهذا ما سيفضحه. عندئذٍ يتخلصون منه.

بعد اليأس واللاجدوى، والحصار من الداخل والخارج، ستأتيه بارقة الأمل من مستشفى ابن سينا في المنطقة الخضراء الذي أصبح مستشفى الوحدة الثامنة والعشرين الأميركي، أبلغوه أن الكابتن هاري كيتل استيقظ من غيبوبته، لكن حالته لم تستقر بعد، إنه يهذي. سارعَ إلى المستشفى، ليقول له الطبيب ساخراً:

«يبدو أنه في مكان ما يصدر أوامره بالقتل والحرق والذبح».

«ما زال في الضلوعية».

«لا تأمل كثيراً، لا يؤخذ بأقوال رجل يهذي، مهما كانت اعترافاته خطيرة».

لم تقدم بطولات هاري الملتاثة شيئاً ذا بال، كانت أقل وقعاً من الواقع، لا تزيد عن مغامرة مرعبة، حافلة بالصراخ مع جعجعة لفظية لا تطاق، والمروع أنها حقيقية، ومخالفة لأي منطق إنساني، ربما لأنها تستعر حامية الوطيس بين جدران لامعة ونوافذ مصقولة وأرضية نظيفة على تضاد مع زمجراته المتشنجة، التي لا

تفعل شيئاً سوى أنها تلوث البياض الناصع المحيط به، وزجاج شفاف بلا لون، ومنظر سماء صافية بلا غيوم، وفضاء خالٍ من غبار الصحراء الناعم المتسلل إلى الفم والحلق والآذان والعيون. بينما جعيره الهادر يقوض الاحتياطات الإسعافية والآلات في الغرفة المعقمة من الجراثيم والفيروسات داخل مستشفى حديث الطراز، مزود بأجهزة الحياة من التنفس الصناعي، وشاشات مراقبة يتحكم بها الحاسوب، إلى جهاز لإجراء المسح المقطعي.

الأطباء المختصون والجراحون ومعهم أطباء غرف الطوارئ واقفون على أهبة الاستعداد لإعادته من رحلة هذيان لا تخلو من اتهامات لهم. لا أحد منهم يرغب، أو يريد أن يسمع أكثر، كانوا يرغبون في أن يصمت إلى الأبد، أو إرساله إلى أبعد، إلى حيث لا تقوم له قائمة، لم يكن بمقدورهم تجاهل ما يمكن أن تعنيه شتائمه الوسخة والبذيئة، ولا أوامره وتعليماته وتفتفات بصاقه، ما دامت تعني شيئاً واحداً: الرعب والتعذيب والتمثيل بالضحايا حتى الموت... وما بعد الموت.

اقترح جيمي أن يوجه الميجور تحرياته نحو العراقي الميت إبراهيم الجربولي، هذا الشخص كان دليل المجموعة طوال الغارات الخمس، قد يقوده إلى حيث قاد المجموعة في غزواتهم المظفرة.

«لا بد ستجد شيئاً ما بخصوصه».

كانت الفكرة جيدة.

- ظهرت جدواها عندما أجابه مركز التحقيقات التابع لسجن أبو غريب بأنه مرَّ في زنزاناتهم مع لائحة سوابق مثيرة، تغطي عدة

سنوات من الحكم البائد، كان جندياً شارك في حروب صدام، تعلم فن القتل ومارسه بلا قيود على جبهات القتال مع إيران وفي الكويت، تشاجر مع آمره المباشر، وأوسعه ضرباً، ثم سدد له رفسة أصابت نصفه الأسفل وهرب مخلفاً له عنانة دائمة، قبض عليه بعد سنوات وحكم بالموت. كان ينتظر دوره لارتقاء منصة الشنق، عندما أُفرج عنه بموجب العفو العام الذي أصدره الرئيس عشية الغزو. خرج إلى الحياة المدنية معدماً، بلا مال ولا عمل. بعد الاحتلال، شكل عصابة من قاطعي الطرق تعرف إليهم في السجن وأُطلق سراحهم معه، تغذوا في البداية على أعمال السلب والنهب لمؤسسات الدولة، ثم أخذوا يعترضون سائقي السيارات الخاصة عند مفارق الشوارع المزدحمة، يستولون على السيارة، ويطردون صاحبها بعد ضربه وتشليحه مما يحمله من مال. لم يكن هناك ما يوقفهم، الشرطة غير متوافرة في الشوارع، إما فروا إلى بيوتهم وقراهم، أو انضموا إلى موجة النهب، وما تبقى منهم لا يحملون أكثر من مسدس، بينما كانوا مسلحين ببنادق أي كيه ٤٧. تطورت أعمالهم بسرعة وتشعبت، فأصبحوا يختطفون رجال الأعمال ويحتفظون بهم رهائن حتى تفتديهم عائلاتهم بالمال.

بعد سنتين عاد إلى السجن مقبوضاً عليه، إثر حادثة اختطاف طالب مدرسة ابن ثري معروف. طالبه إبراهيم بفدية نصف مليون دولار، ثم رضي بمائة ألف بعدما تأكد أن الثري لم يعد ثرياً، حتى أنه اضطر إلى بيع بيته ليسدد قيمة الفدية.

خلال التحقيقات في سجن أبو غريب، اعترف بأنه باع بعض المخطوفين إلى ميليشيات إسلامية وجماعات من المقاومة. توقع المحققون من المتعاقدين الأمنيين أن يستفيدوا مما لديه من

معلومات، ويدلهم على بعض المطلوبين، فعقدوا معه صفقة أن يعمل معهم لقاء الإفراج عنه. فأطلقوا سراحه.

هذه الصفقة لم تتحقق، لأنه لم يعمل معهم بعدما فقدوه في بغداد، وضاعت آثاره بعدها، هذا ما بدا، أو هذا ما ادعوه. إذ لم يختف بل ظهر كأحد عملاء ميترا كورب. كانت الصفقة قد جُيرت لصالحها، بعد أن دفعت الشركة لقاءه مبلغاً مجزياً لمحققي أبو غريب، وتعاقدت معه تحت صفة مترجم. الشركة لم توفره، جهدت في استغلاله إلى الحد الأقصى، وبالمقابل استغلها، وبدأ يعمل لحسابه بعد أن تعرف إلى خوسيه روتا العسكري التشيلي السابق، والرقيب مجهول الجنسية فراكتوس سالينا، والجنوب أفريقي ديلون فانس العضو المتقاعد في الشرطة السرية. كانوا ضمن تشكيلة مجموعة ميللر، أسهمت بهم شركة ميترا كورب، وأصبحوا تحت قيادة الكابتن هاري، وكان إبراهيم دليلهم في بغداد.

من العسير معرفة من أفسد الآخر، لا ينبغي المبالغة، كانوا جميعهم قتلة من العيار الثقيل ولصوصاً من الدرجة الأولى.

لدى مداهمة مزرعة إبراهيم عثروا فيها على عشرات الأسلحة المتنوعة، وقنابل يدوية تطلق بواسطة قاذفات، ومدافع هاون، وهويات مزورة، وآلة لتزييف النقود اشتراها أو استولى عليها من إحدى العصابات، كانت كلها من بقايا عمله الأول، احتفظ بها للمستقبل. كما اكتشفوا تحت الأرض سجناً، كان يحتجز فيه المخطوفين ريثما يتم تسليمهم، ويبدو أن التعذيب مورس فيه بكثرة، الدماء الجافة لطخت الأرض، حبال ثخينة تستعمل للشنق

وللتعليق بالسقف، بينما الجدران زينت بصور لمتعريات أسهم بها أصدقاؤه الأميركان أُلصقت نكاية بالمعتقلين، ترى ما الذي ابتكروه، وكيف استخدموها لتعذيبهم؟ هذا يحتاج إلى خيال يتكر شيئاً ما على علاقة بالرعب والجنس وصور لنساء فاتنات لا يستر أجسادهن شيء. استُغلّ القبو كسجن حتى فترة قريبة، أي إلى ما قبل شهر، منذ بدأت على وجه التقريب حملاتهم الليلية.

ربح ميللر ورقة قوية يساوم عليها، ساعدته في تنفيذ هجوم معاكس على الإدارة، فمنحه الكولونيل مهلة أخرى؛ يوماً إضافياً، استجابة لاقتراحه بإعطائه فرصة معقولة، كانت قابلة للزيادة، لكن ليس قبل قيام ميللر نفسه بإقناع جماعة ميترا كورب بأن ما لديه من معلومات يخلي مسؤوليتهم، ويؤكد أن إبراهيم هو المسؤول الأول عن هذه الجرائم، استغل مركزه كدليل ومترجم، واستخدم مجموعتهم وورطهم بعمليات كاذبة.

لم يكن عسيراً على ميللر إقناعهم أن التحقيق اختط مساراً مختلفاً، يفيد في إبعاد الشبهة عن الشركة نفسها وإلصاقها بإبراهيم، صحيفة سوابقه كفيلة بتغطية ذيول القضية كلها، وما دام ميتاً فلن يستطيع الدفاع عن نفسه، لكن لا بد من مواصلة التحقيق، للحصول على أدلة كافية. ولمّح لهم، إن لم أستطع العثور عليها، ينبغي إيجادها. ومع هذا نبهه رئيسه الكولونيل، إن أي اتهام يوجه إلى عناصر شركة ميترا كورب لن ينعكس عليها فقط، بل على جميع الشركات الأمنية العاملة في العراق، إن تعريضهم للمساءلة القانونية، يعني الإخلال بشروط التعاقد معهم، مما سيدفعهم إلى اختلاق عقبات قانونية ومطالبات قضائية بملايين الدولارات، عدا أنهم سيحزمون حقائبهم ويرحلون. افهم،

لا لعب في هذا الأمر، نحن بحاجة إليهم.

لم يكن ميللر سعيداً بما يدبره، كان مجبراً على استعمال أساليبهم القذرة نفسها، لم يتركوا له سبيلاً آخر:

«هل خسرت روحي؟».

كان متأكداً أنه خسر شيئاً من روحه لا يمكن تعويضه، مع أن قراره المضمر كان الانقلاب عليهم.

قلت له بأنه لم يخسرها إلا لوقت معلوم وبشكل مؤقت. وهونت عليه:

«لا تبتئس، أنا أيضاً علي اللجوء إلى مثل هذه الأساليب».

جوابي لم يثر استغرابه، ظن أنني أوافقه. لكنني كنت أفكر مثله، في يوم قريب قادم لن أتورع عن استعمال أي أسلوب حتى لو فرطت بصداقته.

الرسالة الخامسة عشرة

(اتخذت قراراً جنونياً لا مفر منه.

ليس هناك غيره.

ولا خيار آخر.

لن أطيل عليكِ. أنا مشوش جداً،

ما يدعو إلى التفاؤل، أنني لم أيأس بعد).

□□□

خطرت لي فكرة لم تنضج في رأسي بعد، بعثت في داخلي التفاؤل، عسى أن يصادفني الحظ. لم أحزم أمري، فلم آمل كثيراً. الفكرة كانت إيجاد وسيلة أذهب بها إلى المثلث السني الواقع تحت هيمنة الجماعات الإسلامية. تركتها لتختمر، على أن

أعرضها على فاضل، وأسمع رأيه فيها غداً.

توجهت مساء إلى المقطورة لأروح عن نفسي، وجدت جوناثان ومعه ديمي مندوبة منظمة حقوق الإنسان ومعهما شاب صغير السن، في نحو السابعة عشرة من عمره، توقعت أن له علاقة بالقضية التي يتابعها. لم أخطئ، كانت قضية المثليين إياها، آخذة بالتراجع نحو الأسوأ، البيت الأبيض والخارجية البريطانية تضاءل اهتمامهما بها، ورفضتا التنديد بما يتعرض له الشبان من تهديدات لئلا تثار حفيظة الطوائف، المتوقع أن تقوم قيامة الشيعة والسنة معاً، وتستجر اضطرابات كان الأميركان بغنى عنها، وتستغل بشكل سلبي، بدعوى أن الاحتلال يتدخل في نواهي الشريعة الإسلامية، باعتبار الشذوذ من صلب المحرمات الدينية. والمعروف أن الشيعة لو تراخوا، فالسنة سوف يتشددون حيالها، ويحصل سباق بينهما حول انتزاعها كل طرف من الآخر. المطلوب عدم إظهار القضية إلى العلن.

حرصاً على حياة الشبان، تم الاتفاق على إنهاء القضية بمنتهى الكتمان، وأن تحصر إدارتها بين جوناثان والمندوبة ديمي، بالعمل للحصول على معلومات إضافية حول عدد الشبان المهددين بالقتل، ليجري إعداد حملة لإنقاذهم. استطاعت ديمي أن تقنع شاباً منهم يدعى سلمان بالقدوم معها، قالت عنه إنه شاب جميل فعلاً، واعترفت ضاحكة بأنها وقعت في غرامه، لكن... يا خسارة.

ها هو سلمان جالس معنا، نجحت ديمي في تهريبه من الحي الذي يسكن فيه، وتأمين وصوله إلى المنطقة الخضراء، وتعهدت

بإعادته سالماً إلى بيته، بعد أن يزودها بمعلومات عن الشبان أصدقائه الذين وصلت لأهاليهم رسائل تهديد، وعن طرائق الاتصال بهم. واستطاعت أن تضمن لهم بالاتفاق مع جوناثان مكاناً للمنامة، ريثما يجري قبول لجوئهم إلى إحدى الدول الأوروبية.

كان سلمان متنكراً بتسريحة شعر مشعثة، يرتدي ملابس واسعة مترهلة على جسد نحيل ممتلئ قليلاً عند الصدر، الملابس المهلهلة لم تخف قوامه الممشوق ولا عينيه المبطنتين، ولفتاته التي لا تخلو من رقة وإغراء، أسلوبه لطيف في الكلام على الرغم من الخوف المتلامح على وجهه. لم يستطع السيطرة على ارتعاشة يديه الناعمتين. عذرتُ ديمي، كان الشاب ساحراً وإن بدا مذعوراً، يريد أن يعيش. التمس منها:

«ديمي دعيني أبقى هنا، سأنام على الأرض».

قالت ديمي لجوناثان، دعه ينام الليلة في المقطورة. جوناثان أصر على عودته، ليتمكن من إبلاغ أصدقائه الشبان عن اللقاء غداً في مسجد يقع في حي بعيد عن أماكن سكناهم. ظهراً سيجدون بانتظارهم مصفحة مع قوة نارية مساعدة وشاحنة لنقلهم فوراً إلى مكان آمن في المنطقة الخضراء، القوة سوف تدهم الجامع، وتعاملهم بقسوة ليبدو الأمر وكأنه اعتقال تعسفي لمشتبه بهم.

لم أطمئن للخطة، قلت لجوناثان:

«لماذا لا تذهب القوات وتلملمهم من بيوتهم».

«مستحيل، سوف ينتقمون من أسرهم، بينما في هذه الحالة ما على الأهالي سوى التقدم بشكاوى يعلنون فيها عن اختفاء أبنائهم».

عندما عرف سلمان أنني سوري، استأنس بي وجلس إلى جواري. تبادلنا الحديث معاً، وعرف أنني أبحث عن ابني. قال لي إنه مضطر للاختفاء، وهذا لم يكن بوده، ما سيخفف عنه أن صديقه سيكون برفقته. قلت له، هذا أفضل، ستوفر الكثير من الحرج على أهلك، لا بد أن حالتك تضايقهم. فقال، بالعكس أبي وأمي وأخوتي قلقون من أجلي. قلت مستغرباً، ظننت أنه يسعدهم التخلص منك. قال، أخوتي لا يريدونني أن أغادر. تعجبت، لم أتصور أن أهله غير مستائين من تصرفاته. قال، أمي وأبي قانعون بما قسمه الله لهما من أولاد، لقد أخطاؤوا الطلب من الله، أبي كان يريد صبياً وأمي تمنت بنتاً، الله أرضاهما كليهما، أبي يعاملني على أنني صبي، وأمي ربتني على أنني بنت.

أدرك من صمتي بما كنت أفكر، قال لي بحزن: تخيل أنني ابنك، ما الذي تفعله؟ هل تتخلى عني؟ لم أفكر إلا قليلاً، قلت له، لقد جئت إلى العراق من أجله.

لأول مرة بعثت المصفحة والقوة النارية الأمل، ستنقذ الأولاد، بعد أن صور لي تشاؤمي نهاية مفجعة للشبان المثليين.

الأمل دفعني إلى الاستسلام صباحاً لفكرتي، وأصبحت قراري النهائي، وإن ترددت قليلاً. وحزمت أمري قبل اجتماعنا بصديقنا البعثي، وفاتحت فاضل بما عزمت عليه:

«سأعرض عليه تسليمي رهينةً لأية جماعة تأخذ العملية على عاتقها، وبذلك يطمئنون إلى أنها ليست كميناً».

لم يكن فاضل على ما يرام، فرفض الفكرة نهائياً، وعندما حاولت أن أشرح له الفكرة، انفجر صائحاً في وجهي: أنت مجنون، ستسلم نفسك إلى مجرمين وقتلة، ليتاجروا بك. ثم صمت فجأة، تنبه إلى أنه تجاوز حدوده معي.

كان التشنج بادياً على ملامحه، أما عيناه فلا تثبتان على شيء، لاحظت أنه يرغب في الكلام، وفي الوقت نفسه، على وشك الاختناق. عزوت انفعاله إلى أنه مهموم بشيء ما. لم يصبر طويلاً، انفجر ثانية:

«ربيع قُتل».

لم أستوعب تماماً ما قاله. قبل يومين فقط، جاء أبو ربيع وأخذ ابنه بعدما وافق أهل القتيلين على تسوية الأمر بينهما بالدية. هممت مستفهماً، فسمعته يقول:

«أبوه قتله».

ظننت أنني أخطأت السمع، وأن أهل القتيلين نكلوا عن الاتفاق وقتلوه.

لا، لم أخطئ السمع، أبو ربيع قتل ابنه، كان يكذب، لم يكن هناك اتفاق على دية أو تعويض، لم تقبل العشيرة إلا بإهدار دمه، ومثلما استدرجه أبوه من بيت فاضل، استدرجه بعد وصوله للقرية

إلى الحقل، اشترط على أهل القتيلين أن يقوم بالتنفيذ. أشفق على ربيع ولم يُعلمه، لئلا يبكي ويرجوه أو يتضرع إليه، فيشفق عليه ولا يقتله، طلب منه أن يسبقه ثم لحق به، مشى وراء ابنه بخطوات، القش يخشخش تحت أقدامهما، والعرق يتصبب منهما. على الدرب شجرة ساكنة صفراء، نباتات صفراء، أوراق صفراء. تابع ربيع صعوده إلى التل، من الخلف أطلق أبوه عليه النار بيد مرتجفة وعين تدمع، ارتجفت يده بعد الطلقة الأولى، تلكأ وهو يرى ربيع بعد تلقيه الرصاصة، يلتفت إليه، ظن الابن أن هناك من يريد قتلهما، فاندفع نحو أبيه كي يحميه، فرآه يطلق عليه الرصاصة الثانية وهو يجهش بالبكاء. فسقط صريعاً فوق تراب أصفر، وارتمى أبوه فوقه، يحتضنه.

كفّنه كما هو بدمائه، وحمله بين ذراعيه وسجاه في ساحة القرية. في اليوم التالي صلى على ابنه ظهراً ودفنه دون تقبل أي عزاء. مساء أطلق النار في فمه من البندقية نفسها.

«هل حدث مرة أن أجبر أب على إعدام ابنه غيلة؟».

لم يكن فاضل مهيأً لمناقشة قراري. ومن حسن الحظ أن الوسيط البعثي اتصل مؤجلاً الموعد إلى الغد.

الرسالة السادسة عشرة

(ما زلت مصمماً على ما انتويته.

لا حلّ آخر في الأفق.

لكن عليّ الانتظار قليلاً.

لست على ما يرام

ما أسمعه يمزقني ويؤلمني أشد الألم

حولي خراب، وداخلي خراب).

□ □ □

طوال الصباح لم يفتر فاضل عن محاولة إثنائي عما عزمت عليه.

«لا يمكن الثقة بأحد».

كان أوان إقناعي بأي بديل قد فات، كنت مصمماً على عرضي، لن أؤجله، كانت هذه هي المرة الأخيرة التي سأرى فيها الوسيط البعثي، على التأكيد سيأتي خالي الوفاض. إذا لم أرتئي أنا حلاً، فسأعود مثلما بدأت، من الصفر.

جاء صديقنا البعثي كما توقعت، ليس لديه ما يقدمه، وبمجرد طرحي عليه الفكرة راقت له، أو أنها فاجأته، ثم صمت ولم يعط رأياً، بدا بتمسيده الذي لم يتوقف لشاربيه، أنه يفكر فيها ملياً، أخيراً قال وكان صريحاً معي:

«محاولاتي السابقة لم تكن خائبة فعلاً، في الحقيقة لم أتلقّ جواباً منهم، على الأغلب لم يتجرأوا على الاتصال بهم، لا أحد يقبل بإعطاء معلومات عن عناصره مهما كان السبب. بالنسبة لاقتراحك هذا، ربما نجحنا هذه المرة، أشك أن يكون لديهم مانع، مادمنا نقدم لهم رجلاً لن يدفعوا مقابله مالاً ولا جهداً، لكنني لا أضمن ما سيحصل بعدئذ. العملية خطرة جداً ولا أنصح بها. أتمنى في حال قبلوا، ألا نكون ساعدناهم على القيام باستعراض تلفزيوني هم بحاجة إليه، فيذبحونك على الهواء مباشرة».

واتفقنا على أن يتصل بي إذا كان الجواب بالإيجاب، على أن أعاود التفكير باقتراحي، ولا مشكلة فيما إذا سحبت عرضي في أي وقت أشاء.

في اليوم نفسه، صارحت ميللر بأنني قطعت مرحلة منفردة في قضيتي، وعلى وشك الاتصال ببعض الجماعات الإسلامية عن

طريق مسؤول بعثي سابق. سألته ألّا يلومني، ليس لدي وقت للانتظار، وكانت لدي مبرراتي، التحقيق يتلكأ ولن ينتهي بسرعة، بينما حياة ابني معلقة في مكان ما، عليّ بلوغه، قد أصل أو لا أصل، لكنني سأبذل جهدي. أعرف أنها مجازفة غير مأمونة العواقب، لكن ينبغي القيام بها، مهما كانت درجة الخطر. إن كل ما أستطيعه، هو المقامرة بحياتي، لن أتقاعس، الربح مثل الخسارة، كلاهما وارد.

نبس ميللر غير مصدق: مستحيل.

لكن لم يعد أمامي مستحيل.

طلب مني تأجيل خطتي بضعة أيام لا أكثر، بعدها، ستُلغى هذه الفكرة من برنامجي تماماً، قضيته على وشك الانتهاء. كان قد قطع شوطاً كبيراً وهو يعمل على تفكيكها، وعلى شفا معرفة ما تهدف إليه مجموعة الكابتن هاري، وفيما إذا كانوا يعملون منفردين فعلاً، أم كانوا مكلفين بالغارات من قبل شركة ميترا كورب. المهم، من يقف وراءهم، ومع من عقدوا اتفاقهم، وما الغاية منها؟!

كان قد رصد عدة عمليات خطف قديمة، لم يعلم بها سابقاً، قاموا بها قبل الانتظام الأخير لغاراتهم، جرى فيها بيع المختطفين إلى جماعات المتمردين، دون استثناء الإسلامية منها!! منافذ البيع لم تكن عائقاً، كانت مُيَسَّرة عن طريق إبراهيم، لكن حصل أمر في الأشهر الأخيرة، غيَّر هدفهم، لم يعودوا متعطشين للمال فقط، بل للقتل أيضاً!!

كان جيمي يتصل به يومياً ويزوده بما يحصل عليه من معلومات وكانت ضئيلة جداً، لا تقدم ولا تؤخر. اعتقد ميللر من التباطؤ الحاصل أن جيمي يراعي صديقه الجندي، مع أنه حسب قوله كان يعمل جاهداً على استدراجه، مدعياً أنه لو أظهر المزيد من الإلحاح فسوف يتوجس منه، فيمتنع عن الكلام أو يضلله. لكن ميللر حثه على عدم مراعاته.

«صديقك لم يكن شاهداً على ارتكاب هذه الجرائم فقط، بل وشارك فيها أيضاً».

كان خلافه مع جيمي قد بدأ يظهر، حتى أنه اتخذ موقفاً ضده، كان رأيه أن هول هذه الجرائم، يجب أن يدفعه إلى تسليم صديقه كي يواجهه باعترافاته، عندئذٍ، لن يستطيع التكتم على ما يعرفه. وأغرى جيمي بعقد صفقة جيدة مع صديقه، في حال لم يضطره إلى ممارسة الإجبار النفسي والجسدي عليه. جيمي لم يقبل، وأصر على ميللر ألا يسأله عن كيفية حصوله على المعلومات، ولا الشخص الذي باح له بها، ما زال ثمة أمل في تحصيل المزيد منه، لكن أي تدخل خارجي قد يدفع صديقه إلى التراجع عما قاله. الوضع شائك جداً، الأفضل الاعتماد على المعلومات المتوفرة لا الشخص. ونبهه جيمي إلى عدم الضغط بقوة على أفراد المجموعة، إنهم يراقبون بعضهم، إذا أبدى أي واحد منهم تخاذلاً، فهذا يعني تصفيته، كما أن الشركة ستسارع إلى تسفير أي متعاقد يلاحظون عليه بارقة ضعف أو تهاون.

ومع هذا حاول ميللر اكتشافه بوسائل لينة، لكنه أخفق، تخيل مرة أنه أوشك على معرفته، لكنه لم يتابع لئلّا يتورط بمواجهة لا

يستفيد منها إلا في إيذاء جيمي. مع أنه كان واثقاً أن أحداً من الجنود لا يمتلك ضميراً، كانوا غير عابئين بما جرى، ومطمئنين إلى أن التحقيق لن يطالهم، أو يفضي إلى ما يدينهم، وعلى الرغم من أنهم كانوا حذرين معه، ومدركين أنهم يساعدون على تضليله. لم يفته أن القتل كان بالنسبة إليهم مجرد عمل. وعبّروا مراراً عن استغرابهم لجديته، وانهماكه في التحقيق إلى حد أثار سخريتهم، كان الأمر برأيهم لا يستحق هذا التعنت ولا العناء. ولقد قالوها له: ما الذي يروقك في العراقيين، رائحتهم كريهة، يرتدون ملابس قذرة، ورؤوسهم مغطاة بالخرق. هل تظنهم بشراً؟ إنهم يتقاتلون ويرسلون بعضهم بعضاً إلى الموت يومياً وبالمئات.

هل كان من المجدي إقناعهم بأنهم مثلنا نحن الأميركيين، لكنهم عالقون في حروبهم، لولانا لما كانوا يتقاتلون؟

كانت الحجج الدامغة متوافرة على الدوام، لماذا نشفق عليهم ما داموا لا يشفقون على أنفسهم؟ إنهم يقتلون بعضهم بعضاً وبأبشع الأساليب، يجب ألا تأخذك بهم الرأفة، ما داموا لا يرأفون بأنفسهم. ماذا تعني الحياة بالنسبة إليهم؟! لا شيء.

غير أن الجنود الأبطال، تجاوزوا الرأفة، والشفقة أو عدمها إلى المباهاة بقتل أناس ولو كانوا أبرياء: ما دام أن الحياة لديهم لا وزن لها ولا قيمة.

الرسالة السابعة عشرة

(استعدت لعبة الانتظار ثانية.

هذا أفضل من إقناع نفسي أنني فعلت المستطاع واستنفدت الوسائل كلها، حتى الخطرة منها، لأتجنب عذاب الضمير.

ما أنا في سبيله يرضيني نوعاً ما، ليس هروباً من الشعور بالتقصير، وإنما لأنني المسؤول عن كل ما فعله سامر وما سوف يفعله.

لن أتنصل من غفلتي.

لقد انتزعوه مني، وأنا أريد استرداده منهم.

لن أنكر أبوتي له، وأقابل عقوقه بالجحود).

□ □ □

عسى أن تكون سناء أدركت أنني لن أدافع عن علاقتنا المهددة، وضعي لا يسمح لي بهذه المجاملة، فكيف بالتضحية، تضحية أب بابنه؟ تعمدت ألا أجيب عن تساؤلاتها، أو أصغي إلى نداءاتها. الفصل القادم آت لا محالة، سواء سلباً أو إيجاباً. الأيام القليلة القادمة ستضع خاتمته، بما تحمله لي من خير أو شر. حالياً يعنيني سامر فقط، الجنين لا يحتاج إلى أب قدر ما يحتاج إلى أم، وفي حال اختفائي، ربما رُزقت برجل يحل محلي.

تمنيت لو أن الزمن عاد بي، كنت تفاديت مشواراً طويلاً ووفرت على نفسي مواجهة نهاية مريرة ومخجلة. لكن في ذلك الوقت من كان واعياً ليوم سيأتي، لن نملك فيه من أمرنا شيئاً، مع أنني اتخذت حينها قراراً صارماً بألا تستمر علاقتي بها.

في الكافيتريا الصغيرة الواقعة خلف حديقة أبي رمانة، كنت على وشك مصارحتها بلا جدوى غرام جاء في غير موعده، وأخذ يتغل في حكايتنا البريئة، ولديّ أسبابي، قطار الزواج فاتني سواء كان مع الغرام أو من دونه، كنت أمضي نحو النهاية، ولا أرغب قبل الختام بقليل، في تجربة قد تكون مرهقة لكلينا، الصداقة أهم، تساعدنا وآلامها أقل.

لم أتمكن من البوح بما عزمت عليه، خرجنا من الكافيتريا، كان الليل ساحراً، يغري بأن أضمها إلى صدري، لا بفصم علاقة جميلة. فقررت قوله لها ونحن في السيارة، لن نكون وجهاً لوجه، ولكي أطيل الطريق إلى بيتها، انطلقت إلى أوتوستراد المزة، كنت دون أن أنتبه أقترب من بيتي، لم يجل في ذهني سوى أنني أمهد لفراق ناضج، دون حزازات، كنت واثقاً أنها ستكون على مستوى هذا الموقف.

على الرغم من اعتقادي بصوابية قراري، وأنني كنت أكثر عقلانية من أي وقت مضى، في تلك اللحظات التي لا تنسى، جانبت الصواب، وكنت أبعد ما أكون عنه، أطحت بكل هذا الانضباط والعزم، وأطلقت لعواطفي العنان، ما أختزنه منها كان فوق طاقتي على الكتمان، قلت لها إنني أحبها، وأعاني من هذا الشعور، ولن أتهرب منه، وقد يعوضنا عن خسائرنا في الماضي. أحسست أنني تجردت مما كان يحميني، وأهوي في فراغ وهي تتلقفني بحنان، ودمعة فرح سالت على خدها. كان اعترافي قد رفعني في اللحظة التالية فوق السحاب، والعالم أصبح طوع أمري!!

كان الفراش الذي ضمنا يزيد عن مكان وثير صالح للتخفف من الملابس والحياء، كان مواتياً للتخفف من كل ما يمت للأكاذيب بصلة، أدركت ـ وأدرك الآن مجدداً ـ كم أخطأت إزاء ذاتي، أهملتها وكرستها للآخرين والأفكار... للتقدم والمستقبل، وعدالة لم تحقق أي عدالة. اكتشفت أن الحياة تستحق أن تعاش ولو تحت العبودية والظلم والقهر، ما دام هناك امرأة تهبني روحها وجسدها... فلماذا لا أضع روحي وجسدي بين يديها؟

إذا كانت الحياة حينها، قد بدت ثمينة بالنسبة إليّ، فماذا عن الحياة بالنسبة لأولادي اليوم، لا يهم أيهم، سامر أو ذلك الذي لم يأت بعد؟ لا يمكنني حرمانهم منها، ما دام باستطاعتي إنقاذهم من أخطائهم وضعفهم؛ الحياة فرصة، وإن كانت للعيش فقط.

لم تستمر هذه التداعيات طويلاً، خلصني منها ميللر.

جيمي طلب منه السماح له بزيارة الكابتن هاري في مستشفى

الوحدة الثامنة والعشرين، بصفته الحقيقية كمراسل صحافي يقوم بدراسة ميدانية حول أنواع الإصابات المتكررة لجرحى الحرب. كان الكابتن محتجزاً تحت التحقيق والرقابة الطبية في آن واحد، ممنوعة زيارته إلا بموافقة الطبيب المشرف أو الميجور ميللر.

أثار الطلب غضب ميللر، كان بلا مبرر معقول، بدل أن يكشف جيمي عن رجُله، وكان بمتناول اليد، يساهم بتبديد الوقت، بالتجول في أقسام المستشفى، ليختتمها مع الكابتن النائم هاري الهانئ بأحلامه الدموية، وبشرط أن يغضوا النظر عنه أطول فترة ممكنة داخل غرفته!!

ما الذي سوف يحصل عليه من رجل، إذا صحا لن يعترف، بل ليهذي من جديد، هل تظن أنه سيخصك بسبق صحافي؟! إزاء إلحاح جيمي، لم يكن بوسعه الرفض، وقدم له مضطراً ما وصفه بالخدمة لقاء خدمات كثيرة قدمها إليه بلا مقابل.

هل كانت خدمات حقاً؟ ما قدمه له ليس إلا متاهة ضاع في داخلها، وهدر عليها الكثير من الوقت الثمين، وقت لم يبق منه سوى نزر يسير، بضع ساعات لا أكثر، وبدورها في طريقها إلى الضياع حتى تنتهي المدة الممنوحة له. كان على يقين أنه بعدما طلب التأجيل مرتين، لن يمنحوه فرصة ثالثة أخيرة.

وساوس ميللر عادت إلى العمل وتفاقمت طوال الليل وهو في انتظار جيمي، مع أنه أسقطه من حسابه، بلغت به الظنون اعتقاده أنه مدسوس عليه من جهة ما، خصوصاً ميترا كورب. إحساسه ترسخ بأنه محاصر من الجميع، كي لا يكمل مهمته. صمم قبل أن ينسحب على أن يشن هجوماً معاكساً على الجميع من دون

استثناء، ويكتب تقريراً مفصلاً حول ما واجهه من عراقيل مقصودة، معلناً استنكافه عن الاستمرار في تحقيق تواطأت ضده أطراف عديدة، وافتقر إلى أبسط مقوماته: السرية.

ثم لماذا التحقيق ما دام هناك استباق لنتائجه بالإصرار على ضمانة تبرئة المشتبه بهم، قبل البت به؟! لا عجب، التحقيق كان مُسيراً من متنفذي شركة ميترا كورب.

في الوقت الذي كاد أن يستسلم لهذا الطريق المسدود، اقتحم عليه جيمي مكتبه حوالي الساعة العاشرة صباحاً، وطلب منه مغادرة المقطورة خشية وجود أجهزة تنصت. رافقه إلى الحديقة الخلفية. كان الحر شديداً، وقفا تحت ظلال شجرة. سأله جيمي:

«هل سمعت بحمَّى الزرقاوي؟».

لوى ميللر رأسه مستغرباً، كان اسم الزرقاوي وحده يثير الحُمَّى، لم يحر جواباً، وإنما حدق إليه مستفهماً. فسر جيمي:

«هناك الكثيرون مصابون بها».

لم يأت جيمي إلا ليقول له إنه عثر على الدافع!!

«الزرقاوي، هذا ما كانوا يبحثون عنه».

كان هو الباعث على تجريد الإغارات الليلية والتعذيب والقتل والتمثيل بالجثث!! لم يعثر على الدافع فحسب، بل والحلقة المفقودة أيضاً، من سلسلة مجازر بدت بلا سبب ولا غاية، ظهرت أخيراً، مع أن الهدف كان مبثوثاً على الشفاه وفي الهواء

وعلى الجدران، وفي نشرات الأخبار، كيف فاتهم فيما كان المفترض أن يكون أول ما يخطر لهم؟! كانت العصابات تتشكل داخل بغداد وخارجها من الأميركان والمغامرين والمتعاقدين المدنيين وغيرهم، كرسوا جهودها لملاحقة الزرقاوي والقبض عليه طمعاً بالجائزة...

«بينما نحن غافلون!!».

كانت سلطات الاحتلال قد رصدت جائزة مالية تقدر بـ٢٥ مليون دولار للقبض على أبي مصعب الزرقاوي حياً أو ميتاً.

وانفضح سر ملايين الدولارات التي كانوا سيتقاسمونها.

«لم يبق أحد لم يعلم بالجائزة».

أثارت الملايين جشع المرتزقة العاملين في العراق، وصاروا يحلمون بالحصول عليها. وما سوف تمنحه لهم من ثراء يسمح لهم بتقاعد مبكر مريح، يضج بالبذخ ويوفر الرفاهية، مما حرك خيالاتهم صوب شواطئ الكاريبي وكازينوهات لاس فيغاس وفنادق الكوت دازور بصحبة النساء عارضات الأزياء وفتيات الكومبارس.

فتكاثر المعنيون بمطاردته، والبحث عن الوسائل الكفيلة بالعثور عليه، ما اضطر بعضهم إلى إيجاد قنوات مع خصومهم المتمردين ممن هم على عداء مع الزرقاوي، من بينهم زعماء عشائر وقادة أحزاب وهمية ومرتكبو جرائم مخضرمون، وعدوهم بتقاسم الجائزة معهم. أخذوا بتجميع كل ما يتعلق به، أفلام فيديو وصور

وبيانات وتصريحات، واستأجروا عملاء لجمع المعلومات عنه، وجواسيس يقتفون أخباره وتحركاته. وغالباً ما بدت لهم احتمالات القبض عليه واردة خلال فترة وجيزة، بضعة أيام لا أكثر، إلا إذا عاكسهم الحظ وسبقهم غيرهم، أو قتل قبل وصولهم إليه.

إبراهيم كان الناشط الرئيسي في المجموعة، والأكثر كفاءة للحصول على معلومات لا تتوافر لغيره، تساعد على القبض على الزرقاوي، اعتمادهم كان عليه، مقابل حصة معقولة وبشرط أن يوفروا له سبيل الهجرة إلى أميركا مع ضمانة أمنه الشخصي. حدد المناطق التي يتحرك فيها الزرقاوي وجمع أسماء بعض الأشخاص الذين اجتمعوا معه، وربما يعرفون مكانه، بعد ذلك بدأت رحلة اقتفاء آثاره.

كانوا على سباق مع الآخرين، فلم يتورعوا عن التنكيل بأي شخص أو عائلة صادف أن ربطتهم بالزرقاوي صلة ما، أو حتى يعرفونه أو تعرفوا إليه في زمن ما.

لا رحمة، ولو على شبهة تافهة.

وكان من بينهم الشيخ عبد الرحيم الذي اجتمع مع الزرقاوي مرتين ونصحه بعدم المغالاة في القتل. قادتهم أشباه هذه الخيوط إلى قتل عائلات بكاملها، والتمثيل بجثثهم، لتبدو وكأنها عمليات إرهابية تدور رحاها بين الطوائف.

بدا التفسير لميللر معقولاً جداً، على الأخص توزيع حصص لا تقل كل منها عن مليون دولار للشخص الواحد.

الزرقاوي كهدف، بالنسبة إليّ لم يبدُ معقولاً، فلم أعلق، لأنني لم أفهم إلى أي حد استغل الأميركيون أسطورة الزرقاوي، هل يعقل أن هؤلاء تورطوا بملاحقته بناء على شائعات؟ ماذا لو كانوا يبحثون عن شبح فعلاً؟

كانت الأسطورة مكلفة جداً.

أما كيف حصل جيمي على معلوماته؟ فالأمر بسيط، عايش هذيانات هاري، ولم يكن هذا الأمر ليتم لولا تعاون طاقم التمريض، الطبيب لم يمانع، والممرضة المناوبة سمحت له بالتنصت إليه طوال الليل، فاستنطقه، واستدرجه إلى معاركه المظفرة التي دارت في البيوت الآمنة؛ مستغلاً ساعات الظلام الطويلة. ومثلما تدخل في كوابيسه، استمع إلى جمجماته، وأعاد تصوير مشاهد القتل المرعبة؛ البطون المبقورة والأحشاء المدلوقة، وأضاف إليها موسيقاها التصويرية، الرصاص وأصوات الاستغاثة والتوسلات والنحيب، مستعيداً ديكوراتها المتفحمة والأثاث البسيط ملطخاً بالدماء المسفوحة.

... ونجح في تركيب قصة مقنعة.

«تقصد أنك استقيتها من هذيانات هاري!!».

بل وتمكن أيضاً من سد ثغراتها. لم يكن جيمي مراسلاً صحافياً فقط، كان يكتب القصص ويرسلها إلى بعض المواقع الإلكترونية، وقد حقق نجاحاً ضيقاً، اتسع بمراسلة بعض المجلات التي تهتم بالقصص والروايات.

«لكن هذا تحقيق صحافي». اعترض ميللر.

«ولهذا لن أرسله إلى الجريدة قبل استكمال فصوله الأخيرة».

المشكلة من سيصدقه في أميركا التي تتحدث عن بطولات الجنود الأميركيين في العراق وليس عن جرائم؟

«لا يمكن الاعتماد على شهادة تحتوي على أي قسط من التأليف، مهما كان ضئيلاً».

قال ميللر وأردف محتجاً:

«أتعرف أيها الروائي، ماذا يعني التأليف؟ إنه قصة، ماذا تكون القصة؟ الخيال ولا شيء آخر».

«ليست قصة، إنها حقيقة».

«هل تستطيع إقناع هاري بالاعتراف بما اقترفته مجموعته؟».

«وضعه يتدهور، لن يعيش طويلاً، إصابته مميتة».

في ذلك المساء، مات هاري... فذهبت حتى القصة أدراج الرياح.

ومع هذا تحرك ميللر فوراً، اعتبر إعلان المكافأة على القبض على الزرقاوي دليلاً دامغاً، واعتقل القسيس باركلي، جاء به إلى مقطورته، وانهال عليه ضرباً. لم يصغ إلى احتجاجاته الدينية ولا الكونية، ولا اهتم بالحرب على إمبراطورية محمد، أو ما رسمه

الله للبشرية من الأزل إلى الأبد. سرعان ما انتهت حفلة التعذيب، بتوريم عينه، وكسر فكه وقصبة أنفه، مع شلال صغير من الدم، لم يتحمل أكثر، اعترف بموضوع الزرقاوي. ورغم أن باركلي وقّع صاغراً على اعترافه، حاول استرضاء ميللر كي يطلق سراحه، مقابل غفرانه له ما أصابه من صفعات وركلات ورفسات.

تركه ميللر مقيداً إلى السرير الميداني، وحمل اعترافه ووضعه على طاولة رئيسه الكولونيل، وطالب بتوقيف المجموعة كلها. بعد أقل من ساعة اقتحمت الشرطة العسكرية المقطورة، أطلقت سراح القسيس باركلي، وكفت يد ميللر عن التحقيق.

اجتمعت مع ميللر مساء، بعد أن أوقفوه عن ممارسة عمله. بدا شارداً وكئيباً، دون التنازل عن إصراره. كان عازماً على توجيه الاتهام لمجموعة الكابتن هاري. لم يحفل بما سيواجهه، نعم هناك مساومة شاقة بانتظاره، غير أنها لن تجدي معه، ولو انتهت بترحيله إلى أميركا. للأسف لن يستطيع شيئاً حيال قضيتي، إن أكثر ما يمكن أن يعدني به، هو مساعدتي على العودة إلى سورية.

في تلك الفترة، أي قبل أيام قليلة، لم يستطع ميللر أن يكون صريحاً إلا مع شخص واحد، وكنت أنا، حتى رسائله إلى زوجته كانت مخاتلة وباردة، لم يقل لها شيئاً عن متاعبه، لكنها أحست بما يرزح تحته من هموم، فطالبته بالعودة إلى الوطن. لم تعد صداماته مع الشركة سراً، وكانت مشكلته أيضاً مع نفسه، كان بحاجة إلى طبيب، لكنه لم يرغب بتقديم نفسه لقمة سائغة إلى خصومه، كان متأكداً أنه سيتماثل للشفاء إذا نجح في القبض على مرتكبي الجرائم، وإثبات نظريته في مسؤوليتهم عنها. كان

مجرد التلويح بإيقافه عن القضية يشكل إخفاقاً ذريعاً لإنجازاته طوال مدة وجوده في العراق.

لم يتخاذل، رغم أن هناك من قال له، فليذهب العراق إلى الجحيم، ولم أكن أنا طبعاً، لأن العراق كان في الجحيم. كان يعي هذا المأزق، ويأمل بخروج أميركا من هذا الجحيم بأقل قدر من الخسائر ليس المادية أو الأرواح فقط، وإنما المبادئ التي جاء الجيش الأميركي على أساسها إلى العراق. الأمر الذي لم يدركه أن سمعة أميركا لم تكن في الميزان، بل كانت في الوحل. كان يقول، وكأن المشكلة هي مع المرتزقة فقط:

«لماذا نترك هذه الحرب للمجرمين واللصوص؟».

ولقد خدعني بصلابته بينما كانت حالته تتدهور.

بعد إصابته بهذه الضربة القاضية، أوقف فعلاً عن العمل، لم ينفع معه أي عزاء، لا أبالغ إذا قلت إنني كدت أن أتشاجر معه، عندما طالبته بالكف عن تشنجه، القضية منتهية، لا دور له فيها، سوى في تمريرها وإغلاقها كما يريدون، يوماً ما لا محالة ستنكشف.

في اليوم التالي، بدا وكأن تغيراً طرأ عليه أو حصل بمعزل عنه. بدا لامبالياً، القضية لم تعد تهمه، حتى أنه لم يرغب في الكلام عنها. كان طموحه خلال الليل قد تعداها إلى القيام بفعل مؤثر، قال إنه لن يتراجع عنه!! اعتقدت أنه يريد القيام بفعل أخرق، ولم أدر أنه قد تجاوز هذا الفعل بمراحل، قال وهو يحدجني بنظراته، عندما سألته عما يقصده:

«تحويل المنطقة إلى الديموقراطية».

ظننت أنه يمزح، لكنه كان يتكلم جاداً، آماله كبرت بدلاً من أن تنعدم، هل يعقل لأي غبي تصديق أكاذيب البيت الأبيض؟ كان المراقبون ووسائل الإعلام في العالم يسخرون منها. تخيلت أن ما اعتراه من انقلاب، شيء أشبه بالجنون وهو يؤكده:

«لقد وضعت أمامي تحدياً، إما أن أموت وإما أن أخلق من جديد».

كان مصمماً، ومثلما خشيت عليه، كنت غاضباً منه، يتخيل أن ما فقده في مكان، سيعثر عليه في مكان آخر:

«أنت هنا تستطيع أن تضع التحدي الذي ترغب فيه، ما دام الأمر يعنيك وحدك، لكن إذا كنت تبحث عن المجد فعلاً، فلن تعثر إلا على الهزيمة. هناك على بعد عشرات أمتار مأساة بلد لا ينفع معها أي مجد ولا تضعفها أية هزيمة، هذه التمنيات مزاعم، لم تأت بأي مردود سوى الفوضى والقتل اليومي، وذهبت بالعراق إلى الدمار، وجعلت العراقيين يكفرون بالحرية ويهزأون من الديموقراطية».

«إنها تضحيات زهيدة، ما دامت ستسمح لنا، أنتم ونحن، بالدخول إلى التاريخ».

لم يكن الميجور أحمق فقط، كان هناك خلل في رأسه، بل واستحوذ عليه الجنون، حتى يطمح للدخول إلى تاريخ لن يشرّف أحداً، لا نحن ولا هم.

رثيت له، وانته الآمال الكبار بعدما أخفق في تحقيق الحد الأدنى لعدالة لم تتحقق ودفع ثمنّها ضحاياها، لم تردّ لهم ولو جزءاً بسيطاً مما لحقهم من شقاء، العدالة قد يسمح بها القبر، لا الميجور الذي يعرف أن الحرب لا تسمح إلا بالمزيد من التنكيل. فلماذا لا يأمل العراقيون بيوم الحساب، هناك جهنم تقتص لهم، والجنة جزاؤهم.

وربما كان أكثر ما آذاني لحظتها، أن أصحاب النوايا الحسنة هم الذين يتعاطفون معنا، والأسوأ أن السذج منهم يرغبون في الحقيقة. والأكثر سوءاً: هل على الجندي الأميركي ألا يكون سليم العقل حتى يكون إنساناً طيباً؟ الميجور لم يكن واحداً من أي منهم، كان الأسوأ بالمقارنة معهم. بات موسوساً بالديموقراطية، ديموقراطية لا تُطال. بينما كان الشعور بالأمان، هو المطلوب.

على كل حال، الأحداث سبقتنا معاً، وإذا كان ميللر لا يعرف مصيره، فأنا حددت طريقي خلال الفترة القادمة، ولم يكن العودة إلى سورية.

موقف ميللر مهما كان، أو ما سوف يؤول إليه وضعه، لن يضيرني أو يؤثر على ما انتويته. اليوم قبل أن أراه، تلقيت إشارة مبشرة، خطتي بدأت بالعمل، لقد استجيب لطلبي، نص الرسالة على هاتفي الجوال كان:

(إن كنت ما تزال مصراً على قرارك، هناك جماعة قبلت بتسليمك للجهة المطلوبة، لقد استمزجوا رأيهم قبل قبولهم القيام بدور الوساطة).

تبعتها رسالة ثانية بعد ساعتين:

(في حال موافقتك، فالتسليم سيجري غداً بعد الظهر في مقهى الشاهبندر).

الرسالة الثامنة عشرة

(سأضطر إلى التغيّب بضعة أيام.

لن أوافيك خلالها بأية رسالة، فلا تقلقي.

أعتقد أنني نجحت في تحقيق خطوة إلى الأمام.

أتمنى أن أدركه، تعرفين من أقصد...

قبل ألا ينفعني الندم.

كلمتي الأخيرة، حافظي على الجنين).

□ □ □

- من الآن فصاعداً، حياتي لم تعد لي، باتت في حكم المجهول. ما دمت استسلمت لهذه الحقيقة، فلن أتحكم بحياة الجنين، ما

دامت حياتي نفسها لم تعد ملكي.

كانت هذه وصيتي، كتبتها قبل الرحيل.

اتصل بي ميللر ثلاث مرات ليلاً. في المرة الأولى، كان مضطرباً على نحو لم أعهده، مشتّت الذهن ومشوّش الأفكار. كان مهدداً بتسريح تعسفي بمثابة العقوبة، وإذا عاندهم أو حاول التمرد على قرارهم، فسوف يصدرون أمراً بإعادته إلى أميركا مقيداً تحت الحراسة والمحاكمة. لقد استطاعوا النيل منه. في المرة الثانية، كان أهدأ قليلاً، قال إنه لم يتخذ قراره الأخير بعد، على أساسه سيتحدد مصيره. نصحته بعدم ارتكاب أية حماقة. لم أقل له هذا إلا لأنني شعرت أنه لا ينوي الاستجابة لهم، بل يُعدُّ لأمر سيظفر به. في المرة الثالثة، اعتذر مني، وأعلن عجزه، وحثني على التصرف وحدي بمعزل عنه، لن يستطيع أن يقدم لي شيئاً أبداً، وإن كان سيوصي جوناثان بمساعدتي على المغادرة.

صباحاً، لم أذهب إلى جوناثان ليساعدني، قصدته لأنني لم أرغب في الخروج النهائي من المنطقة الخضراء، قبل أن أنبهه إلى أن حالة ميللر تثير القلق.

في المقطورة، كان جوناثان وحده، وملامحه تنبئ عن كارثة!!

خطر لي فوراً، أن الإجراءات التي نالت من ميللر، قد أصابه جزء منها. ثم تذكرت أن جوناثان لا تهمه ترقية ولا عقوبة. لا، لم يكن هذا ولا ذاك، وإنما العملية التي كلف بها في مدينة الصدر، كانت قد انتهت البارحة، مضى الليل ولم أعرف عنها شيئاً.

أحسست أنني أريد بالفعل الاطمئنان إلى الشاب سلمان وأصدقائه. لم يتح لي ذلك مساء، بعدما تابعت نهاراً معركة ميللر مع الإدارة، فيما كان جوناثان كما افترضت منشغلاً بتدبير مأوى للشبان، حسبما أتذكر كان عددهم لا يزيد على عشرة، سيؤمن لهم أيضاً احتياجاتهم الأخرى من ملابس وطعام بالتنسيق مع ديمي التي ستقنعهم بطلب اللجوء إلى أحد البلدان الأوروبية.

سألته عما جرى، وكأنه كان ينتظر أحداً ليسأله كي ينهار أكثر. في الصباح الباكر، قبل شروق الشمس، كان أحد شهود الإجراءات السريعة لدفن سلمان!!

كانت عملية الإنقاذ محكمة تماماً، لكن ما جرى كان خلافاً لها.

في الموعد المحدد، وصل جوناثان والمندوبة ديمي، مع قوة نارية من مدرعتين برادلي وفصيلة من المارينز وشاحنة، ورافقتهم جواً طائرة هيلوكبتر أباتشي هجومية. أمام باب المسجد كان المنظر الذي لا يمكن توقعه ولا تصوره على الإطلاق؛ الشاب الجميل سلمان ملطخاً بالوحل، مشلوحاً على الأرض، ملويَّ الذراعين والقدمين، طلقتان في الرأس، وعدة طلقات ثقبت بطنه ودلقت ما في داخل أحشائه، الرائحة البشعة الفائحة منه، كانت رائحة الغائط. على وجهه وصدره ورقبته ويديه كدمات زرقاء، وخطوط غائرة تغطيها الدماء، الخرمشات العميقة تدل على آثار أظافر، وكأن سلمان أجهد نفسه في تمزيق وجهه وجسده قبل أن يلفظ أنفاسه.

تشخيص الطبيب أكد تعرضه إلى تعذيب شديد من نوع مختلف حتى عن المألوف الذي أصبح متعارفاً عليه ومتداولاً، إذ جرى

اغتصابه بأنبوب معدني عدة مرات. بعدها وضعوا في مؤخرته مادة لاصقة قوية جداً تُعرف باسم «الصمغ الأميري»، أغلقت الشرج تماماً، بحيث لا يمكن فتحه إلا بعملية جراحية، ثم أعطوه جرعة من مسهل فعال، أدى به إلى إسهال شديد دون إخراج، رافقته تشنجات معوية حادة، وآلام لا تطاق، دفعته إلى تمزيق جسده. ويبدو أن التعذيب اتخذ شكل التسلية، تارة يجبرونه على تناول الطعام، فيتقيؤه. وتارة أخرى يعطونه مسهلاً، فتشتد آلامه. توقعوا أن يموت ببطء من جراء انفجار في الأمعاء لانسداد المنفذ، لاحظوا أن العملية طالت أكثر مما قدر لها، أو أن هناك من قال لهم بأن موته قد يأخذ وقتاً طويلاً، فأشفقوا عليه وأراحوه بقتله.

لم يعرف الطبيب أن الخاطفين لم يشفقوا عليه، كانوا مضطرين إلى قتله وبطريقة استعراضية، استغلوا زحام المصلّين، رموه قبل الموعد المحدد، في الفسحة المجاورة للمسجد لكي يراه الخارجون من الصلاة، وهو يقفز ويتلوى كالقرد، من شدة ألمه. كانوا قد قطعوا لسانه، لم يخطر لأحد ما الذي يريده هذا الصبي المسكين المحاصر بالمسلحين، وهو يعوي كالكلب، أخيراً صوب أحدهم رشاشه وأطلق عليه زخة من الرصاص، كانت رسالة إلى القادمين لإنقاذه.

لم يتجرأ أهله على عمل عزاء له، ولا حتى دفنه، بعد أن تلقوا أمراً بإعادة جثته إلى الشارع، وأن تعلق على عمود كهرباء لمدة ثلاثة أيام، عبرة لغيره. طوال الليل جرت اتصالات مع أعضاء في الحكومة، قاموا بدورهم باتصالات مع المرجعيات الدينية، تمكنوا من التوصل إلى حل مع المجموعة المتطرفة التي تولت تعذيبه، بعد ان أرضوها بشيء ما؛ مقابل عدم عرضه في الشارع، قبلت

على ألا يدفنه أهله في المقبرة، بل في مكب للقمامة دون أن يغسل أو يصلى عليه.

البارحة ليلاً تحايل جوناثان ودفع لهم بكفن محشو بالخرق ليدفن في مكب القمامة، بينما قبل شروق الشمس، اصطحب الأب والأم والأخوة، ودفن سلمان تحت الحراسة المشددة في المقبرة، وترك الأب يبكي ابنه والأم تبكي ابنتها. قبل قليل اتصلوا به، القبر نبش وجثة سلمان تُشحط في الشارع.

تركت جوناثان في حالة يرثى لها. وهو يلوم نفسه؛ كان من الممكن أن يحول بين سلمان وهذا المصير البشع. لقد أرسله إلى الموت عندما لم يدعه ينام هنا على الأرض، سلمان كان قد تنبأ بنهايته.

سأرحل دون أن آسف على شيء.

ألقيت نظرة أخيرة على المنطقة الخضراء، كانت هادئة تحت الشمس، أقرب إلى أنها نائمة، إذا حالفني الحظ، فلن يقع عليها بصري ثانية.

في طريقنا إلى مقهى الشاهبندر، بذل فاضل جهده من جديد كي يثنيني عن قراري، لا سيما أن الجهة مجهولة، لا يمكن الوثوق بها، الحزب لا يستطيع ضمان سلامتي. هذه الاتفاقات تجري عادة في الظلام ومن السهل النكوص عنها. لا بد من ضمانة، تأخذها على عاتقها جهة معروفة. كنت شارداً عنه.

«هل أعلمت ميللر بالأمر؟».

انتبهت إلى أنه كرر سؤاله مرتين.

«ميللر ليس في وضع مريح، سيجبرونه على الاستقالة».

أكدت لفاضل بأن خروجي من المنطقة الخضراء هو خروج بلا عودة. لقد قطعت صلتي بهم، لم تعد لديهم مشاكل، وإنما مآسي، لا أريد تحميلهم مسؤولية بقائي أو رحيلي. إذا نجحت، فلن تعدم القاعدة القدرة على توصيلي إلى الحدود السورية.

ركن السيارة في أقرب مكان لمقهى الشاهبندر، وجلسنا في انتظار صديقنا البعثي. لم يكن المقهى غاصاً بالزبائن، كان الجو ملائماً، توقعت أن تتم العملية دون أن تثير فضول الجالسين القلائل. لم أكن مقدماً على عملية تسليم فقط، سأودّع فاضل أيضاً، الاحتمال الأكبر إذا سارت الأمور على ما يرام، ألا يرى أحدنا الآخر بعد اليوم. لم تفارق ملامحه أمارات الحرج، كان يرغب في حدوث شيء يعرقل اللحظات الأخيرة.

«سأرافقك عن بعد بالسيارة، ولن أدعك تغيب عن بصري».

«ستثير شكوكهم، ويظنون أنهم ملاحقون وأن العملية كلها عبارة عن كمينٍ مدبر، إياك وفعل شيء من هذا القبيل، تعرف أنها مخاطرة قاتلة».

في غمرة محاولتي إقناعه ومحاولته إقناعي، رن الهاتف الجوال، كان على الطرف الآخر الليفتنانت جوناثان، قال لي بأن ميللر نقل قبل قليل إلى المستشفى في حالة سيئة، يعتقد أنه حاول الانتحار. كان الخبر صدمة فظيعة، كنت أظن أن ميللر عصيٌّ على

الانتحار. كان جوناثان يريد الاستفسار مني عما قاله لي ميللر البارحة. هناك رسالة قرأها قبل قليل على هاتفه، تطلب منه الاتصال بي.

«كان يريدك أن تساعدني، لا موجب لهذا، لقد غادرت».

«هل تعني..؟».

«لا تسألني، سأدبر أمري. إذا احتجت إليك اتصل بك. هل حالته خطيرة؟».

«لا أعرف، أتمنى أن ينجو، أخشى أنه...».

لم يكمل، أدركت من غمغمته، أنه ربما تعرض إلى محاولة قتل.

«هل أنت متأكد؟».

كان قد أغلق الهاتف.

لم أنتبه إلى أنني كنت مراقباً، وأني كنت أتكلم بالإنكليزية، صوتي رغم أنه لم يكن عالياً، كشف عن أنني لم أكن عراقياً، مع أنني توخيت الحيطة. أحسست بشيء غريب، يخيم على المكان، دون أن أتمكن من تحديده، فلم آبه به. الرجل البدين الذي استند إلى الحائط وأرخى رأسه، وأخذ يشرب الشاي الأسود بشراهة، لم يرق لي، العرق ينضح من وجهه ويسيل بشكل غزير ومنفّر، وكلما رفع رأسه، يجيل بصره بحدة ويشمل الموجودين بنظرة سريعة، وهو يحاذر أن تلتقي نظراتي بنظراته.

اعتقدت أن ما شعرت به كان من قبيل ذلك التوجس الذي يدهمني عادة عندما أكون قلقاً، انشغال بالي بحالة ميللر شوشني، كذلك خشيتي أن تخلف الجماعة موعدها معي، أو لا تمضي العملية على ما يرام، لم أستبعد على الإطلاق حدوث مانع يؤجلها، لا سيما أن صديقنا البعثي اتصل وقال لفاضل بأنه سيرسل رجلاً من قبله، سيتولى دور الوسيط بيننا، وسوف نعرفه فوراً، سيأتي برفقة ثلاثة مرافقين.

وفي لحظة كانت متأخرة جداً، تذكرت أنني رأيت الرجل المتعرق من قبل، ربما في المقهى نفسه أو في الفندق، أو الشارع. ولكي أطمئن نفسي اعتقدت أنها مجرد تخمينات. لكنني لم أشعر بالارتياح، حتى عندما دخل الوسيط بصحبة مرافقيه، جلس معنا، بينما انتحت عناصر المرافقة الثلاثة جانباً في مدخل المقهى وجلسوا إلى طاولة بجوار الواجهة. بينما نهض الرجل المتعرق وقد زادت إفرازات وجهه، كان يمسك بيده منديلاً يمسح به جبينه وذقنه، بدا ضخم الجثة يتحرك بتثاقل. راح إلى الداخل، ثم عاد بعد قليل. هذا ما استرعى انتباهي، ما الذي يوجد في الداخل؟ لا شيء غير المرحاض.

كان الوسيط يقول إن الحزب لم ير ضيراً في مساعدتي، للأسف هذه قدراتهم، بقية الإجراءات تعتمد على قيام الطرف الثاني بالتنفيذ حسب الاتفاق. أما بخصوص القاعدة فالأمر عائد لهم تماماً، ولا سلطة لهم هناك.

كان يحاول أن ينجز شيئاً قبل التسليم، نظر إلى الساعة:

«لن يتأخروا، بقي أقل من عشر دقائق».

ونصحني بشدة ألا أذكر شيئاً لأي طرف عن إقامتي في المنطقة الخضراء، وعلاقتي الجيدة بالأميركان.

«هذا أمر لا يتسامحون به. قل لهم إنك كنت بحماية الحزب».

تلاها مجموعة من الإرشادات كي لا أجلب الظنون لنفسي، كان آخرها:

«عندما تنهي مهمتك، غادر العراق بأقصى سرعة».

لم ينه كلامه، عندما اندفع من الباب ثلاثة ملثمين مسلحين، أطلق أحدهم النار على عناصر المرافقة، رأيتهم كما يحدث في السينما يسقطون أرضاً، الأول منهم، ساح الدم تحته وهمدت أنفاسه، كانت إصابته مميتة، الاثنان الباقيان ركعا على الأرض وقد تخليا عن أسلحتهما، وجحظت عيونهم.

بينما رفع الوسيط يديه إلى أعلى، وفاضل بدا مبهوتاً، أما أنا فلم أعرف ماذا أفعل. اكتفيت بالمراقبة، وكأن الأمر لا يعنيني. وقف الملثم الثاني مصوباً رشاشه إلينا، وحذرنا من محاولة المقاومة أو إخراج سلاح. قال الوسيط:

«لقد أخطأتم الهدف، نحن أصدقاء».

لم يكن الملثم راغباً في إطلاق المزيد من الرصاص، أو التورط بالمزيد من القتل. تابع الوسيط قائلاً:

«لم يكن هذا اتفاقنا».

«أنت المخطئ، ليس بيننا اتفاق».

ضرب الوسيط على جبهته، أدرك أنه إزاء عصابة خطف. وكنت أنا الهدف.

اقترب مني الملثم الثالث، شدني من كتفي، ودفعني نحو الباب، التفتّ، كانت فوهة الرشاش قد التصقت بظهري، نغزني بها، استرقت نظرة نحو فاضل... وداعاً، يبدو أنني قلتها له. ورأيت في الوقت نفسه، الرجل المتعرق الجالس إلى جوار الحائط، يقف. كان يحمل بيده المنديل وقد ظهر منه هاتفه الجوال، ويغادر المكان معنا. كان العلاّس، كنت قد وقعت في قبضته. اختبأ في المرحاض واتصل بهم، ثم غادر معهم، لئلا تعتقله جماعة المرافقة.

جلست بين اثنين في المقعد الخلفي، بينما جلس العلاس في المقدمة، وانطلقت السيارة بنا، بعد أن وضعوا قماشة على رأسي. أخذوا يطلقون النار في الهواء ويشقّون طريقهم وسط الزحام والناس المتراكضة. بعد قليل انعطفت السيارة نحو زقاق جانبي وتوغلت فيه، نزل العلاس بعد أن همس في أذن السائق، دفعوني خارج السيارة، وأوقفوني مواجهة حائط باهت اللون متآكل وقذر، رائحة القمامة والبول تهف منه، كتب عليه «يسقط صدام» بخط نازل، وفوقه بخط صاعد «يعيش صدام». كان هذا آخر ما رأيته من بغداد قبل أن تربط يداي إلى خلف ظهري وتعصب عيناي بقماشة سوداء، وأُحشر في صندوق السيارة. وإذ سمعت صوت غطاء المؤخرة يسقط في أذني، أدركت أنني أصبحت حالة اختطاف حقيقية.

الجزء الثالث

تمنيت أن ينتهي ما تذكرته هنا، خاصة أن خاتمة رحلتي إلى العراق كانت سعيدة، ألم أنج من الاختطاف والموت معاً. فلماذا أحيلها إلى مأساة؟

لا أنكر توارد بعض الصور إلى ذهني، ولقد أقصيتها عني، وما أفلحت في الإفلات منها. لا تفتأ تأتيني مقتطعة من سياق لا أرغب في متابعته، وقد يخطر لي تأمله، مع ما في ذلك من قسوة أكثر مما يحتمله أب لم يفقد ابنه فقط، بل وفجع به أكثر من مرة، وعلى أكثر من نحو، ولا يدري بعدُ ما قد تحمله له الأيام من أشياء تزيد الفقدان ألماً.

لكن من باستطاعته التحكم بما يريد أو لا يريد؟ أو بماذا أفسر مقاومتي التي تحللت إلى هباء؟ هل أقول، إن للذاكرة تداعياتها ومصائبها؟

ها أنا أسلمت أمري لها، وأسلست قيادي للرعب.

أدرك، وقد فات الأوان، أنني ممسوس بما هو قادم، لن أتلمسه، بل سأعيشه ثانية.

حافة الجحيم

١

رغم إحساسي بالاختناق الشديد، لم أفقد وعيي. المكان ضيق بالكاد يتسع لي، أعصابي مشدودة ومتنبه إلى أقصى حد. لم يساورني الندم على تهوري. ارتحت لفكرة خطرت لي؛ الأقدار الغامضة التي لا رادّ لها، تتحدى عدم إيماني بها، رحيلي النهائي عن المنطقة الخضراء، كان لا بد أن يحدث، وحياتي لا ينفع معها أية محاولة لتحويلها عن خطها المرسوم، والخاطفون مثلي لا حول لهم ولا قوة، بل ورهائن لمصيري أنا.

هل يبعث الأمل مثل هذا التفكير؟ ليس أكثر من لحظات.

شُغلتُ من دون جدوى بتحديد وجهة السيارة. كنت أجهل شوارع بغداد، وأجهل كل مدينة وقرية خارجها، ومن العبث تخمين أي منطقة يقصدونها. كانت السيارة تسير على طريق معبّدة، تعترضنا بعض المطبات، أحياناً تنعطف نحو اليمين،

وأخرى نحو اليسار، إلى أن انتظمت سرعتها وانطلقت في طريق مستقيم، ثم انحرفت نحو طريق ترابية، تفادياً لحاجز أو دورية، اضطرت مرة إلى التمهل والتوقف طويلاً. يبدو أننا كنا نسير على مبعدة وراء قافلة أميركية، تتقدم ببطء شديد. سمعت هديراً قوياً لآليات ثقيلة تتقدم بمحاذاتنا بسرعة كبيرة، عادت السيارة بعدها إلى سرعتها المنتظمة. مررنا على بعض الحواجز الصديقة من العشائر، ومن الشرطة أيضاً، سمعت صوت السائق يصرخ معرفاً عن جماعته: «مجاهدون»، وهناك من يصرخ مرحباً بهم ومودعاً لهم: «نصركم الله».

ساعات طويلة من الزمن، تخيلت خلالها أن الليل قد حلَّ، على الأرجح لم تتجاوز أربع ساعات أو أكثر قليلاً. لدى إخراجي من الصندوق، كان النهار رغم العصابة السوداء ساطعاً، والهواء نقي مشبع برائحة الأعشاب البرية!! جرني أحدهم من يدي بضعة أمتار، ثم دفعني إلى الأمام، تعثرت ووقعت، شدني من ياقتي، فوقفت بصعوبة.

فتشوني بخشونة، أصواتهم عالية، وانتزعوا مني كل ما كان معي من أوراق. توقعت أنني في مكان عبارة عن بيت منعزل، دفعني أحدهم على الدرج، أنزلني درجة درجة. أمرني بخفض رأسي، وأدخلني إلى مكان تفوح منه رائحة عفونة. فك عقدة الحبل عن يديَّ، وكشف عن عينيَّ، وتركني في ظلام.

بعد قليل، ألفت عيناي العتمة، غرفة فارغة جدرانها عارية بلا نوافذ، ليس فيها سوى بطانية ممدودة على أرض إسمنتية، قعدت فوقها، وأسندت ظهري إلى الحائط، ولم أتحرك من مكاني. بدأت

بترتيب أفكاري؛ المرحلة الأولى أنجزت؛ الخطّاف اشتراني من العلاس. ستليها المرحلة الثانية، الخطاف سيتولى عرضي للبيع على عدة جهات. كان هذا ما أردته، أو ما تمنيت أن يحدث لي، تلك حكاية الأقدار الغامضة، أم أنها تلك الفكرة التي دارت مرة في ذهني وطمحت إلى تنفيذها؛ تعريض نفسي للاختطاف، ترى هل تحققت في ظرف ملائم، أم غير ملائم؟

أملي الوحيد أن تشتريني القاعدة، عندئذ ينقلب وضعي السيئ، مع قليل من الحظ إلى وضع جيد. هذا إذا كان سامر ما يزال على قيد الحياة، أما إذا كان قد لقي حتفه، فما الذي سيجعلهم يصدقون أنني أبوه؟ لم أتفاءل، كان تخميناً... وفي علم الغيب.

عدت بأفكاري إلى الوسيط البعثي الذي تركته رافعاً يديه إلى الأعلى، لا أستبعد أنه الآن يعاني من موقفه المخزي، المحرج أنهم لم يطلقوا عليه النار، سيبدو المسكين شريكاً لهم، وكأنه هو الذي سلمني إلى العصابة. كنت متأكداً من براءته، وإذا حاول إصلاح ما حدث، فليس قبل أيام، مجموعات الخطف كثيرة، ولن يُعرف من خطفني إلا إذ عُرض على الحزب شرائي، في هذه الحالة، هل سيدفعون مالاً كي يستردّوني، ثمناً لا يقل عن آلاف الدولارات، لا يمكن تعويضها إلا بادعائهم تحريري. في الحقيقة، لن يستفيدوا مني سوى في التكفير عن خطئهم، هذا إذا اعتقدوا أنني كنت تحت حمايتهم.

دخل أحدهم وقطع علي حساباتي، أشعل الضوء، لمحته قبل أن أغمض عينيَّ من وهج النور المفاجئ، كان القادم ملثماً. عندما فتحتهما بدا الرجل ضخماً، وتوضحت هيأته تحت النور الذي

بات خافتاً، كان كتلاً من اللحم المكدسة بعضها فوق بعض، قرفص، ودون كلمة واحدة، ضربني بقبضته على جبيني، فاصطدم رأسي بالحائط، شدني من شعري، ووضع السكين على عنقي، وزمجر في أذني. لم أفهم ما قاله، كانت رائحته كريهة، أحسست بدوخة، التقطت بعض الكلمات، كانت تعني أن أجلي قد حلَّ، وأنه سيقطع رقبتي لو كذبت عليه. لم أشعر بالخوف، كان تهديده مجرد تمثيل. حياتي تهمّه، وثمني يهمه أكثر، وروحي معلقة على بقائي حياً.

أبعد السكين. فرد أوراقي، وبعثرها على الأرض، رأيت جواز سفري الأميركي، وبطاقة دخول المنطقة الخضراء. أمسكهما ولوح بهما، كانا أكبر اتهام لي. صفعني على وجهي وهو يشتمني: عميل، كلب، جاسوس، صليبي، زنديق... قلت له:

«أنا مسلم».

«كافر نجس».

رمى بالبطاقة وجواز السفر في وجهي:

«ما الذي جئت تفعله في العراق؟».

حاولت أن أكون هادئاً.

«لأبحث عن ابني، علمت أنه انضمّ إلى المجاهدين».

«لا تقنعني بأن ابنك الأميركي مع المجاهدين».

«بايع منظمة القاعدة».

«تكذب».

ضربني على أنفي، فسال الدم على فمي.

«صدقني أنا لا أكذب».

خرج عن طوره ووجّه لكماته إلى وجهي وصدري، تقوقعت أرضاً تفادياً لضرباته، ركع فوقي، وأسند ركبته اليمنى إلى صدغي وضغط على رأسي، أحسسته انهرس تحت ثقله. ثم نهض واقفاً، ورفسني بمقدمة حذائه، معدتي تتمزق، بعد ذلك لم يوفر أضلاعي وأطرافي من الرفس، إلى أن خرج.

عاد بعد قليل، ما زلت مرمياً على الأرض، منهكاً معلولاً، جسدي يؤلمني. رمى نحوي بزجاجة بلاستيك: هذه للبول، ثم كيس أسود: وهذا للغائط. لم يخرج قبل أن انهال عليَّ بالشتائم.

في حفلة التعذيب التالية، أصررت على ما قلته، وحاولت إفهامه بأني اضطررت إلى شراء جواز سفر مزور من بيروت لأتمكن من دخول العراق. لم يتوقف عن ضربي، كان الوسيلة الوحيدة لإجباري على الاعتراف بأنني أنا الأميركي ذا الأصل العربي، صاحب شركة مقاولات، جئت إلى بغداد لاستجرار عقود من قوات التحالف. لقد خنت ديني وعروبتي، واستخدمت معرفتي باللغة العربية لأقدم خدماتي إلى القوات الأميركية في إدامة الاحتلال، وأنا واحد من النهابين الأشرار لثروات العراق.

أسبغ مستجوبي البدين الملثم على شخصي الضعيف أغلب المواصفات المميتة وضخّمها، وكان اعترافي بها يشكل حجماً يغري الميليشيات بشرائي. مواصفات على هذه الشاكلة، كانت من النوع المطلوب، وتكديسها يسهم في ارتفاع ما أساويه من دولارات، مع الأخذ بالاعتبار ملكيتي لشركة لن أتأخر عن بيعها لافتداء حياتي بثمنها. كان رافضاً أن يفهم أسبابي، ومصمماً على مواصلة تعذيبي حتى أعترف بالحقيقة.

ما الذي أعترف به، إذا كانت الحقيقة هي أنني جاسوس وخنزير؟

خطر لي جوناثان، ترى هل عرف أنني اختطفت؟ ربما فعل شيئاً من أجلي؟ حتى لو عرف فهو عالق بكارثته، من المحتمل أن يحاول إقناع رؤسائه بالبحث عني، لكن ما دمت من اختصاص ميللر فلن يتشجعوا على الاهتمام بي. الأفضل ألا أعلق حياتي على أمل واه، بل العمل على رفع معنوياتي والتفكير بشيء يقنع الخاطفين ببيعي إلى القاعدة، ليت هناك طريقة توصل خبر اختطافي إليهم. لن ينقذني غيرهم.

عاد بعد حوالي ساعة، وأعاد الكرة، ثم ذهب وعاد... ما المعلومات التي كان يريد الحصول عليها، أشك في أنه كان يعرف. عاكسني الحظ خلال دورات التعذيب، لم أنهَر كلية، تمنيت أن أفقد وعيي؛ كان الإغماء بعيد المنال. لكنني لم أرغب في إيقاف الألم، ولا التخفيف منه. أشعر مع كل دورة تعذيب أنني أساهم بنصيب مما يقع على غيري، كنت واحداً من مجموعة هائلة من البشر تتعرض لهذه الآلام.

لم أرجُه منحي استراحة ولو لبضع لحظات، كان هو الذي

يستريح فآخذ نفساً، يطلب مني الجلوس مواجهة الحائط وألا أدير وجهي نحو الخلف. ينزع عنه اللثام، يغسل وجهه وشعره. لا أسمع سوى صوت تنفسه العالي، وأحياناً خواره.

مضى اليوم الأول، وبقي ما حصل عليه من معلومات على حاله دون زيادة. أتاح لي وقد ظهر عجزه، التفكير بمخرج لكلينا، عسانا نصل إلى نهاية المطاف. وكانت الفرصة تقترب، بعدما تعب من تعذيبي، وانطرح لاهثاً مواجهتي، قدمت عرضي إليه: إعلام القاعدة بأمري، إذا أراد أن يكون على بينة من هويتي.

طلبي لم يخف مخاطرتي بحياتي؛ كان المختَطَفون أمثالي يتمنون ألا تكون الجهة الآسرة هي القاعدة، الوقوع بين أيديهم، أكبر داع لفقدان أدنى أمل بالنجاة. وبما أنني غامرت برأسي، فلا بد أنه سيكون أميل إلى تصديقي مؤقتاً، ريثما يأتيه الجواب من حيث لا يأتي غالباً إلا الموت.

اندفع نحوي زاحفاً على يديه وقدميه، وقد فقد صوابه، كأنني أعطيته سبباً لمعاودة ضربي، أطبق على رقبتي بيديه، وأخذ يضرب رأسي بالأرض وهو يضغط على عنقي، وقبل أن ألفظ أنفاسي مختنقاً، أفلتني. أدركت خطئي بعد فوات الأوان، كان غبائي قد أفقدني القاعدة، أملي الوحيد، بعدما نبهته إلى الاحتراس منها، لو كنت صادقاً بادعائي، وعلمت منظمة القاعدة بأمري، فسوف يخسرون الصفقة، كان في اختطافهم شخصاً يمت بصلة إليهم؛ لا يُعد تعدياً عليهم فقط، وإنما إشارة سافرة لا تقلّ عن إعلان حرب، لا يمكن تجنبها إلا بتسليمي إليهم مع الاعتذار. لماذا يتبرعون بي؟!

اقتصر آخر الليل على وجبة العشاء، خبز يابس وخيار. رمى بهما على الأرض وهو يبلغني بعثورهم على مشترٍ لي، فأدركت لماذا توقف عن ضربي. نمت بعمق وإن كان بشكل متقطع إلى وقت متأخر إلى أن سمعت جلبة فصحوت على أذان الظهر قادماً من بعيد.

تذكرت أنني لم أتناول وجبة العشاء، لأنه أضاف إليها وجبة الإفطار، شاياً بارداً وجبنة وخبزاً وصراصير.

الإعياء وهلوساتي المشتتة أفقدتني الإحساس بمرور الزمن.

٢

انفتح الباب بعد قليل، أو بعد ساعات.

دخل مختطفي برفقته رجل معصوب العينين، أزاح عن وجهه العصابة، ونغزني بقدمه، فقعدت. كان الرجل الثاني ملتحياً، يلبس سترة فوق جلابيته القصيرة، ويحيط خصره وصدره بأحزمة من الرصاص، ومن دون سلاح. تخيلت للحظة أنه مُختطف مثلي، لكن لماذا تركوا ما يحمله من ذخيرة بحوزته؟!

تأملني الرجل باهتمام، وأخذ يعاينني، لم يكن رفيق سجني ولا مثلي مختطفاً، كان مرسلاً من الجهة التي ستشتريني، عُصبت عيناه كي لا يستدل على مكاني. ناوله البدين جواز سفري والبطاقة، تفحصهما الرجل على مهل، مقارناً بين ملامحي وصورتي. تفرس فيَّ طويلاً، نظراته ثاقبة، اقترب مني وكأنه يريد أن يشمني، لكنه رفع يده وسلط إصبعيه على وجهي وعقفهما،

موشكاً على اقتلاع عينيَّ من محجريهما، وسألني:

«هل صحيح أنك مسلم؟».

هززت برأسي. فقال:

«استعد لمأواك جهنم وبئس المصير. وابدأ منذ الآن بالصلاة على روحك النجسة».

والتفت لمختطفي البدين، واتفق معه على أن يتسلمني غداً.

أعاد البدين وضع العصابة على عيني الرجل وخرجا معاً. عاد بعد حين وحذرني من التلاعب مع الذين اشتروني. كان قد باعني لمنظمة مجهولة ستعلن عن قيامها بعملية أولى: قتلي على الملأ أمام عدسة الكاميرا.

كنت واقفاً، فتراجعت إلى الخلف، أرتج عليَّ المكان، أعضائي ترتجف، أسناني تصطكّ، قدماي لا تحملانني، استندت إلى الحائط وتهالكت ببطء. دهمني إحساس بالخور والاستسلام لمطارق تضرب رأسي، وصدى ضجيج هائل، أصبحت جزءاً منه.

يفصلني عن الموت يوم، أو يومان... مهما طال الزمن، فأيام معدودات. الشاري الذي نصحني بالصلاة على روحي النجسة، لا يعرف أنني قطعت صلتي بالدين، ولا تخالجني أية رغبة في استعادة إيمان فقدته منذ زمن بعيد، ولا الاستعداد ليوم القيامة، ولو كانت الجنة نهاية المطاف. إذا كان الله يعاقبني، فهو يعرف أنني جئت من أجل ابني، فلماذا جزائي اليأس والتعذيب؟ لن

أستغفره، أو أسأله الرحمة. وإذا كان خالقي يمتحنني، فليفعل بي ما يشاء. وإذا كان ينتقم مني، فلا قدرة لي على رده، منحني حياة، لست آسفاً عليها، كانت عناء وحيرة وتردداً وخيبات وإحباطات وهزائم وخسائر... وبحثاً بلا جدوى؛ ووجوداً تافهاً بلا معنى. هذا هو المآل، تعذيب وإهانات وسجن وطعام جاف يسري فيه النمل، وتحوم حوله الجرذان وتتشممه الصراصير، وفي الزاوية كيس الغائط والمبولة البلاستيك. هذه حياتي العظيمة، مجرد سخام... خذها، لا أريدها...

الخواء يحتويني، وهذا الشيء القليل المتبقي مني، يتصدع ويتهشم في داخلي. أما روحي فتتفتت وتتلاشى، وينسحق فيَّ كل ما تمنيت أن يساعدني على المقاومة: مكابرتي وإنكاري، عنادي وإلحادي... كرامتي وكياني، لم أعد إلا شيئاً يريد التمسك بأي شيء، فلا أجد سوى الفراغ، أمضي فيه، أو أسقط... ما الفرق ما دام ملجئي الأوحد فراغاً معتماً بلا حدود، جئت منه وأذهب إليه. إذا قُدِّر لي مواجهة العدم، فهذا أنا، مستسلم وبلا أمل، أضع عيني العمياء في عينه السوداء. لا أرى سواه. فليطْلني ويتمكن مني، أنا القانط الأعزل.

لم يطل صمودي البائس، أعقبه دفعة واحدة، دون أن أعي، انهياري المفاجئ، جفَّ ريقي، وزاغت عيناي، دارت الجدران بي، وتقطعت أنفاسي، وكأن هناك في رأسي من يطاردني، من مكان إلى مكان، دون أن أبرح مكاني!! لا، لم أتخلص من الخوف، أو أنجُ منه. بل أطبق عليّ. لم أتحرر من المنيّة، ولست جاهزاً للموت. الحياة هي أناي، إن ذهبتُ أذهب، وإن متُّ ماتت.

أراني كما لم أر نفسي من قبل، إنساناً عارياً مطروداً، ذليلاً ومذعوراً، ساجداً لله، أصلي وأسأله بكل حرارة طلباً مستحيلاً، أن أعيش. ترى هل يقبلني في عداد المؤمنين؟ ربي، اغفر لي أخطائي وخطاياي، سوآتي وزلاتي (من أي ذاكرة جاءتني هذه الأدعية؟). أناشده بلسان يابس وقلب يحترق أن يقيني على قيد الحياة.

الساعات تمضي بطيئة وبليدة، وليل يمتد أصمّ، بلا حس ولا نبض، سكون خامد الأنفاس يشغل الفضاء بوطأته. غلبني الإرهاق مرات ومرات، أنام وأصحو وأنا أحمد الله وأرجوه، ملتمساً منه الشفقة، هاذياً أطلب الرحمة، أسأله اللطف بي. أنقذني، لا تخذلني يا رب، وكأن الإيمان لم يغادر قلبي قط، لساني يلهج بذكر الله، أبرر طلبي بسامر، أريد معرفة ما حلَّ به، وأوفر الألم على ابنتي وزوجتي وسناء...

في هدأة الليل، سمعت هديراً قطع السكون، آليات مدرعة، وطوافات تحوم، الأصوات تقترب، ونباح كلاب. أصرخ وأهتف صائحاً بأعلى صوتي، أنا هنا. أخبط كالمجنون على الباب والجدران، لا جواب ولا مجيب، إلى أن كلّت يداي وتراخت قدماي، وتساقطت على الأرض أجعر بالبكاء.

ترى متى تمالكت نفسي، واستردیت وعي، هل كنت أحلم؟ ما الذي صوره لي اليأس؟ النجاة. لماذا؟!

كل ما أريده هو الموت، لا عداه. كنت محموماً.

٣

تراءى لي أنني لم أنم لحظة، وأنني قضيت الليل بطوله دون التوقف عن الصلاة، أتعرق متقلباً بين هلوساتي وأدعيتي ورعبي وهذياني. بللت فمي بشيء ربما كان شاياً أو ماء، أو سائلاً له طعم المرار. وأنا شبه غائب عن وعيي أسبح في تهيؤاتي، لاح النهار من شق الباب مشرقاً، كان مجرد تخيل، في قبوي لا شروق ولا نهار. أخذتني غفوة كانت هنيهة، وربما ساعة أو أقل من الزمن، أنهكني ما تراءى لي من مطاردات لا تهدأ إلا لتبدأ ثانية، لاحقني خلالها الملثمون، وتم فيها قتلي مرات ومرات.

عندما أيقظني كان نور شاحب، أدركت بأنني نمت ذلك الوقت الذي يفصل الليل عن الصباح. اليوم لم يضربني، أمرني بتناول فطوري. لم أصحُ ثانية إلا حين تنبهت إليه يربط يديَّ إلى خلفي، ويعصب عينيَّ. كنت ذاهباً إلى موتي الأخير.

رغم وهني وهواني، تحاملت على نفسي، واستردت قواي المنهكة، لن أضعف، سأواجههم بلامبالاة، وأموت بكرامتي، كرامتي التي لا تعني شيئاً لهم، لكنها كل ما تبقى لي من كل شيء. فلأصبر، لن أستسلم لمخاوفي، ما زال هناك فصل واحد. لكن هل أصمد؟ سألت الله منحي الشجاعة في مشوار النهاية.

حُشِرْتُ في الصندوق الخلفي. تحركت السيارة، اتخذت طريقاً متعرجاً، وكان مليئاً بالحفر. استقام بعد فترة قصيرة من الزمن، خرجنا إلى طريق معبّد، ضوضاء السيارت العابرة تطرق سمعي، إلى أن انعطفتْ السيارة وسارت فوق طريق ترابية، بعد قليل سمعت ضجيج البشر وصخبهم، كنا نعبر قرية، قدرت أننا اخترقنا سوقاً للبيع والشراء، أصوات خراف وماعز ونداءات، الأصوات تتخافت. تابعت السيارة سيرها، رافقنا بعد قليل صوت الأذان، إلى أن غاب عن سمعي، وارتدّ صوت هدير المحرك قوياً. السيارة تخفف من سرعتها، تتقدم على مهل، ثم تتوقف، انطفأ صوت المحرك، لبثت ساكناً أتنصت سابحاً في عرقي، عدة دقائق وأنا أنتظر، أسمع دقات قلبي. كانوا كما يبدو مثلي ينتظرون، إلى أن سمعت أبواب السيارة تنفتح، نزلوا منها وأخرجوني من الصندوق.

أزيحت العصابة عن عينيَّ، قرص الشمس يلتهب محمراً. كنا وقوفاً أمام منزل من طابقين، حولي البدين ومعه رفاقه الثلاثة، داخل بستان اكتظ بأشجار النخيل. بينما على الطرف الآخر، بعيداً إلى جوار شجرة تين باسقة، سيارة سوداء شبح، وقف إلى جانبها ثلاثة رجال يلبسون دشداشات بيضاء اللون وعلى رؤوسهم كوفيات حمراء، كانوا قد أنهوا صلاتهم لتوهم، رابعهم

ما زال يصلي، في وضعية القعود لم ينه أدعيته بعد، يبدو أنه قائد المجموعة، الجميع ينتظرونه، من بينهم الرجل الذي عاينني البارحة. عندما أنهى قائد المجموعة صلاته، نهض بهدوء وانتحى به جانباً، ثم ذهب إلى السيارة وأعطاه حقيبة يد سوداء، كانت الثمن المتفق عليه. ووقف جانباً يراقب سير العملية. حمل رجل البارحة الحقيبة وتوجه نحو بائعي البدين الواقف خلف سيارتنا الكيا، سلمها إليه بعد أن تبادلا حديثاً قصيراً. رأيت وجه الرجل البدين لأول مرة وآخر مرة، كانت ملامحه غليظة ومنتفخة.

اقتادني رجل البارحة معه إلى الجانب المقابل، أدخلني إلى السيارة السوداء الشبح، جلست في المقعد الخلفي بين اثنين من الشبان الملتحين، رشاشاتهم مهيأة وأصابعهم على الزناد. احتل رجل البارحة مكان السائق، وجلس قائد المجموعة إلى جواره؛ واحد من هؤلاء المجانين سيقتلني. وانطلقت بنا السيارة.

خرجنا إلى الطريق المستقيم، أخرج قائد المجموعة سبحته وأخذ يبسمل. كان شاباً لم يتجاوز الثلاثين من عمره، قاسي الملامح وهادئ الأعصاب، لم يلتفت نحوي. لكن عندما أمرني السائق أن أغلق عينيَّ، ريثما يعيد الجالس إلى يميني وضع العصابة على وجهي، نهرهم قائلاً، دعوه يودع الحياة. كان كريماً معي، فأخذت أودع الحياة وأتملى طريقاً مهما طال، فلن يمتد إلى ما لانهاية.

- استسلمت لموتي المنتظر... بحد السكين، قدري غير الغامض الذي لا مهرب منه، لن أواجهه وحدي، استعنت بالله، ربي لا

أسالك رد القضاء، أسألك اللطف فيه. اطمأنّت نفسي، في هذا الفضاء العظيم والموت الوشيك، لا وجود إلا لله.

لاح السراب البعيد المخيم على الأفق متألقاً، كما لوحة مرسومة بجمال رقيق ومسالم، مجللة بصمت بهي، تغزل ألوانها ثم تتحلل إلى لون واحد، بلا لون، غيوم تعبر على مهل زرقة سماء صافية، لوحة تتجاوز بعنفوانها الهادئ، سخف الأسلحة والقنابل واللحى... من الأفق لا منها، يأتيني موتي هانئاً وخفيفاً، يتهادى على أمواج الأثير، يمسني كما العبير، يقيني من بؤسي ويعصمني من ظنوني؛ آه، لو كان لي قبر في هذا الغبش لا في ذاك التراب.

تخيلت موتاً سريعاً، دون اعترافات أو طلب للرحمة، بلا شكاوى ولا أنين أو بكاء، لن أسألهم الشفقة بي، ما سأطلبه ذبحي وأنا مغمض العينين، دون رؤية ما حولي، لا العناصر المسلحة الملثمة ولا كاميرا الفيديو، لن أسمع صيحة «الله أكبر»، أو أترقب اليد التي ستمتد، وتلتف من الخلف حول رقبتي، أو أحس بالذعر والنصل الحاد يحز عنقي. وذهب بي التمني إلى ما بعد الموت، لن يشوّهوا ملامحي أو يمثّلوا بأعضائي؛ وأكثرت بالتمني، سيتمكن شخص من العثور على جثتي قبل أن تتفسخ. ويصادف من يتعرف إليها، ويقرأ الفاتحة على روحي، وربما أرسلت للدفن في مقبرة العائلة بدمشق.

كان الموت هكذا حلماً مترفاً ولا أجمل، هل سيمن الله عليّ بتحقيق أمنياتي، يا إلهي، لقد بالغت في التمني. لا أطلب سوى أن ترافق عنايتك يا ربي بعض خطواتي، ويكون الموت العاجل من نصيبي.

فجأة علا صوت السائق؛ سيارة تتبعنا. لاحت سيارة رباعية الدفع منطلقة بسرعة كبيرة ومتجهة نحونا، تنهب الأرض وتثير الغبار وتفرق قطعان الغنم إلى جانب الطريق، ظهر منها ملثمون يلوحون غاضبين بالرشاشات، يشيرون إلينا كي نتوقف، فزادت سيارتنا من سرعتها. زمجر السائق: بل سيارتان. كانت الثانية رباعية الدفع أيضاً، ظهرت وتجاوزت الأولى، وبدأت تقترب منا، ثم حاذتنا وضبطت سرعتها على سرعتنا.

العرق يتصبب من الشابين اللذين يحيطان بي، أخرجا فوهات رشاشاتهما من النافذة، التفت الشاب قائد المجموعة نحوهما.

«أخفوا أسلحتكم، لا تستفزوهم، إنهم من القاعدة».

تنفستُ الصعداء، هل هي فرصتي؟ هذا ما خطر لي، لكن كيف، إذا كانوا على وشك التصادم وتبادل إطلاق الرصاص؟!

استحث الشاب السائق: تخلصْ منهم. فزاد من سرعته ثم ناورهم قليلاً، وانعطف بالسيارة ودخل في طريق جانبي. وكأن سائقي السيارتين توقعا هذه الحركة، وانعطفا معه. سارا محاذاتنا على وتيرة السرعة نفسها، وإذ انفتح الطريق الجانبي على مدى شاسع، بدا وكأن المطاردة لن تنتهي، لكنها انتهت.

تجاوزتنا إحدى السيارتين واعترضتنا، أطلق المسلحون عدة رشقات من رشاشاتهم أمام عجلات سيارتنا، ما جعلها لتتفادى الرصاص تنحرف نحو التراب. أمر الشاب قائد المجموعة السائق بالتوقف، فيما أصدرت السيارتان زعيقاً حاداً وتوقفتا على مقربة منا، الأولى أمامنا والثانية خلفنا، وهبط منهما ستة مسلحين أحاطوا

بنا وسددوا رشاشاتهم إلينا. ثم نزل من السيارة الأولى رجل عاري الرأس، حافي القدمين، لا يلبس سوى جلابية. أشار لرجاله بالابتعاد إلى ماوراء السيارتين، رفع يديه عالياً، إشارة إلى أنه لا يحمل سلاحاً.

بعد قليل نزل قائد المجموعة من سيارتنا بعد أن أمر رجاله بالبقاء في الداخل، لم يحمل رشاشه، تقدم منه الرجل عاري الرأس، وألقى عليه السلام. تبادلا بضع كلمات تحت الشمس الملتهبة، ثم تمشيا معاً، لم يبد على أي منهما ملامح الغضب، كأن الواحد منهما يعرف الآخر. بدت، والجميع على نار، مساومة هادئة وشاقة، لو أنها تعرقلت، لا محالة ستنفتح أبواب جهنم. لكنهما توصلا إلى تفاهم بينهما. التفت الرجل عاري الرأس وهتف بأحدهم، فجاءه بحقيبة، كانت الحقيبة السوداء نفسها التي تحتوي على ثمني؛ ملطخة بالدم.

تمت المبادلة، استعادوا حقيبتهم مقابل التخلي عني، وسرعان ما جرى نقلي إلى السيارة رباعية الدفع. جلست في المقعد الخلفي إلى جوار رئيسهم الذي احتل مكاناً إلى جواري، كان نحيلاً، على وجهه سماحة رقيقة، تفصح عن قسوة لا تنقصها الطيبة!! مد بصره بعيداً وشكر الله العزيز القدير، كانت اللهجة حجازية.

«اسمي أبو الحارث».

«أنا أبو سامر».

ابتسم من حداثة اسمي. وقال، احمد الله، تمت الأمور على خير.

كانوا قد دهموا مكان احتجازي صباحاً بعد مغادرتنا بنصف ساعة، وجدوا شاباً صغير السن، لم تنفعه مقاومته، باح بمكان البستان الذي سيجري فيه تسليمي. أدركوا الخاطفين، كانوا على وشك الصعود إلى الطريق المستقيم، قتلوا ثلاثة، وأبقوا واحداً اعترف لهم بالطريق الذي اتخذه الشارون، بعدها لم يعد الأمر سوى أن يسرعوا.

أردت الاعتقاد أن الله هو الذي استجاب لدعائي، ووفر عليَّ موتاً مهما كان سريعاً، لا يقاس على الإطلاق بسرعة إرسال رجل أنقذني من الموت، ساعة إيماني حلت، لكن الرجل قال لي إن أبو مصعب هو الذي أرسله.

«الزرقاوي؟!».

هتفت مدهوشاً. هزَّ مرافقي برأسه موافقاً، كان قد ردني إلى واقع يخلو من الله، بتحول الزرقاوي إلى حقيقة!! ومع هذا لم أقتنع، لدى القاعدة أسبابها أيضاً لإنكار موته. وحتى إذا كان حياً، ما الذي يريده مني؟!

وللحظات، استعاد الله موقعه، الزرقاوي أو بديله تلقى إيعازاً منه، فأرسل رجاله، قتلوا الخاطفين بسبب تلاعبهم وكذبهم، واستولوا على حقيبة الدولارات، ثم لاحقوني ونجحوا باستردادي ممن اشتروني.

كان ثمة ارتجاج في رأسي وعدم تركيز، كنت بحاجة إلى تفسير لا يذهب إلى الغيب ليجد أجوبة عن أسئلته. حاولت التفكير، لا بد أن سامر ضالع في إنقاذي.

سألته عن ابني. قال لا تسألني المزيد.

كنا في طريقنا إلى مواقع القاعدة، وكان أملي كبيراً بلقاء سامر.

٤

انفصلت السيارة الثانية عنا، وانطلقت إلى مهمة أخرى. تابعنا طريقنا ومررنا بأمان من الحواجز المتناثرة على طول الطرقات الرئيسة والفرعية والمدقات، أغلبها حواجز غير مرئية، بعد أن نجتازها يبرز من وراء الأكمة، أو من خلف شجرة، رأس رجل ملثم يشير بيده أن امضوا في الاتجاه نفسه، أو ارجعوا عنه واسلكوا غيره.

قال أبو الحارث، هذه المنطقة سقطت الأسبوع الماضي بأيدي المقاومين الإسلاميين، ولا تحكمها منظمة القاعدة وحدها. كنا قد أشرفنا على سهول امتلأت على مدى النظر ببساتين النخيل والكروم والحمضيات، وإلى الشرق امتدت التلال جرداء. أشار أبو الحارث إليها قائلاً إنها تحتوي تحتها على معابد وقصور وتماثيل وثنية.

لم يكن شعوري بالأمان طاغياً إلا لأنني قاربت على الوصول، فأغمضت عينيَّ، لتهدئة ما يعج في رأسي من خواطر، لم تطل، فتحتهما على صوت طائرة، رفعت نظري إلى السماء، فلم أرها، لكن من ملامح أبي الحارث، وقد عقد حاجبيه، بدا وكأنها ستنقضّ بعد قليل فوق رؤوسنا. عبرنا بسرعة كبيرة الخلاء الذي يفصلنا عن القرية وكانت على بعد أقل من كيلومتر واحد، دخلناها، بدت خالية من أهاليها. أوقف السائق السيارة بين الأشجار، والتجأنا إلى جدار طيني، لبثنا منبطحين، ملتصقين به، حتى غاب عنا صوت الطائرة.

«لقد رصدوا المنطقة، سيعودون بعد قليل».

وطلب من المسلحين الذي كانوا معنا، الالتحاق بمواقع المقاتلين، وكانوا على الجانب الآخر من النهر، وبرر عدم مشاركته، بأنه تعهد بإيصالي سالماً.

كان أبو الحارث يعرف دروب القرية. تسللنا بين الأزقة الترابية نحو أحد البيوت المشرفة على الجانب الذي بدأ القتال يدور خلفه، المكان يخترقه جدول مائي، أصوات المضخات تتباطأ ثم تتوقف، وعلى الأطراف تترامى الأشجار والأعشاب كثيفة، تتصل بسهل امتد أمامنا إلى حيث يلمع السراب ويرتفع الدخان.

كان البيت لواحد من المجاهدين، أرسل عائلته إلى الحقل، رحب بنا، ألقى نظرة من النافذة، وعاد إلينا. لم يكن من القاعدة، وإنما من التنظيمات الإسلامية الأخرى. حذرنا من أن بعض العمليات ستدور على مقربة منا. كانت الطائرات الأميركية قد بدأت جولتها وأخذت تسقط قنابلها على البيوت الواقعة عند مدخل القرية،

كانت البيوت فارغة، أخليت ليلاً. بينما كانت طائرات الهيلكوبتر ترش الأحراش برشقات كثيفة ومتتالية من القنابل والرصاص وكأنها ترش مبيدات حشرية.

شعوري بالأمان لم يكن في محله، كنا نعبر نقاط التماس.

قال المجاهد إن الاشتباكات يومية، تخف وتشتد، حاول الأميركان والجيش العراقي العميل طوال اليومين الماضيين الإطباق عليهم من الجانبين، لكنهم ارتدّوا على أعقابهم إلى مواقعهم غير البعيدة، وكانت ثكنات قديمة من العهد البائد، أعيد تجديدها.

«مناوشات اليوم خفيفة جداً، أشبه بالمزاح».

وعلق مبتسماً:

«في الأسبوع الماضي اشتد القتال، كان ضارياً جداً، وبلغ أشده يوم الخميس. قتلنا ثلاثة منهم، حاصرونا، أصبحنا نراهم بالعين المجردة، نطقنا بالشهادة استعداداً للموت. فقدنا في ذلك اليوم أربعة شهداء».

تركنا وتسلل إلى السطح يستطلع الموقف من العالي، عاد بعد دقائق، لاحظ خرقاً في الجهة الغربية؛ سرية من الجيش العراقي تتقدم، تدعمها مدرعتان أميركيتان. ودّعنا وسارع يتخذ موقعه على الطرف الآخر.

لم يسمح لي أبو الحارث بالفرجة حرصاً على سلامتي. بينما كان يتابع ما يجري متنقلاً من نافذة لأخرى. أخذت أتلصص؛ القصف

الشديد مهد للمتسللين من الجيش العراقي دروباً محروقة صالحة للانتشار السريع. ظهرت العربتان المصفحتان، فتحت كل منها بابها الخلفي، وقفز منه بعض الجنود الأميركان، انبطحوا أرضاً خلف الجنود العراقيين. واجههم المجاهدون بنيران الكلاشنكوفات والرشاشات والبنادق الآلية والقنابل اليدوية؛ رافقتها أصوات المقاتلين الحماسية ينشدون أهازيج الشهادة.

دام التراشق قوياً وطويلاً، ثم تقطع إلى رشات متباعدة، إلى أن هدأ تماماً نحو ربع ساعة. انكشف الموقف، بدا وكأن تقدماً حصل من القوات المهاجمة، سرعان ما عاد الاشتباك أقوى مما سبق. تميز أبو الحارث أصوات قذائف الآر بي جي، والقنابل الثقيلة، تلاها أصوات رشاشات عربات همفي آتية من الغرب. يبدو أن قذيفة هاون أصابت هدفها، وأن تراجعاً حصل. سمعنا على الأثر تهليل المجاهدين، خفتت بعده حدة القتال إلى أن تلاشت.

عاد المجاهد صاحب البيت، كانت الحصيلة شهيداً واحداً، كما استشهدت أم وولدها بالنيران العشوائية المتبادلة. على الأغلب الأميركان هم الذين قتلوهما، كانوا يطلقون النار على أي شيء يتحرك. بعض الفصائل المهاجمة تراجعت، شاهدهم يخلون جرحاهم، ويجرّون وراءهم مدرعة برادلي محترقة. كانت لديهم إصابات مميتة، لا تقل عن ثلاث.

خلال الاستراحة تنادى المقاتلون، أدينا صلاة العصر معاً، ثم تناولنا الطعام على عجل، بعدها استؤنف التراشق خفيفاً ومتقطعاً حتى الساعة السابعة، إلى أن توقف نهائياً.

في الصباح الباكر، نجحنا في التسلل، وانطلقنا بالسيارة وحدنا، كان أبو الحارث قد تبلغ أمراً بترك المقاتلين الذين رافقونا للمشاركة في الدفاع عن القرية. لم يكن أمامنا طريق للخروج سوى ممر ضيق مستور بأجمات من الأعشاب، يقع على طرف السهل الذي حاول الأميركان الدخول منه. المعركة خلفت أشجاراً محترقة، وشاحنة مدمرة، حفرتين عميقتين، أشلاء حيوانات، دجاج بقرتين وحمار وأرانب، باصاً للركاب تدلت منه جثة السائق، حاول الالتجاء إلى القرية، لكنه أخفق. امرأة منكفئة على وجهها، جثة غير واضحة المعالم، أشلاء ربما كانت بشرية. خلاء مخيف، البيوت الفارغة كانت مهدمة، بعضها أصابته شظايا، الكثير من المخلفات باتت رماداً. لم يدعني أبو الحارث أقترب منها، كل كوم قمامة، أو كيس زبالة، أو كوم تراب قد يخفي عبوة ناسفة، ولم يستثن البقرة المنفوخة ولا جثة الحمار. على الجدران كتابة باللون الأسود: «اخرجوا من بلادنا».

بعد مسير عدة ساعات على مهل، ظننت أننا ضعنا في متاهة المدقات الترابية، كان أبو الحارث العليم بها قد اضطر إلى الكثير من الحركات الالتفافية خشية وقوعنا في قبضة الدوريات المعادية.

توقفنا عند مزرعة بدت مهجورة، أرض جافة غير صالحة للزراعة، البيت الصغير يتألف من قاعة وغرفتين ومطبخ. كان واحداً من المخابئ السرية المموهة للقاعدة، لا حراسة ولا حماية سوى بعض الألغام المزروعة حوله، كانت لدى أبو الحارث خريطة بأماكن توزعها، مع تعليمات بقضاء الليلة في البيت وتفقده!!

رافقته في جولته، ظاهر المزرعة لا يدل على ما تحتويه، تحت

أرضها قبو يحتوي على أثاث قديم يخفي وراءه باباً سرياً يقود إلى نفق ومنه إلى مستودع ضخم يختزن بين جدرانه كميات كبيرة من المتفجرات البلاستيكية وقنابل صناعة يدوية، وبنادق آلية طراز «ايه كيه ٤٧»، وكميات كبيرة من ذخيرة البنادق، وقاذفات آر بي جي، وجهاز للتدريب على إطلاق صواريخ أرض جو. كان أغلبها من بقايا أسلحة وذخائر الجيش العراقي، وبعضها زودتهم بها فصائل المقاومة، والقليل منها استولوا عليه من مخافر الشرطة.

استيقظنا صباحاً، صلينا صلاة الفجر، وانطلقنا بالسيارة في طريق اخترق السهول والبساتين وحقول النخيل. قمنا بمسيرة التفافية تحت الشمس الحارقة ووصلنا إلى مقصدنا قبل الظهر بقليل. كنا متوجهين إلى المنطقة التي استولت عليها القاعدة حديثاً.

تمهلنا عند مشارف ساحة القرية، الأهالي متجمعون فيها، رأونا فتباعدوا مفسحين لنا الطريق، نزلنا من السيارة إلى حيث وقف وسط الساحة ثلاثة شبان في العشرينيات من أعمارهم، وصبي لا يتجاوز عمره اثنتي عشرة سنة، مكبلي الأيدي مطأطئين برؤوسهم أرضاً، بينما شيخ بلحية ضخمة علا بصوته، يقرأ من ورقة يحملها بين يديه. الشبان الثلاثة والصبي قبض عليهم بتهمة بيع أقراص مضغوطة لأفلام منافية للآداب. لم يكن إعلانهم التوبة، وتوقيع العقوبة عليهم بجلد كل واحد من الشبان مائة جلدة، والصبي خمسين جلدة، أكثر من احتفالية شارك فيها الجمهور بالتهليل والمباركة. كان الاستعراض بلاغاً لأهالي القرية بالتحول من حكم القانون العراقي المدني إلى حكم الشريعة الإسلامية.

تلفتُّ حواليَّ، عاد السوق بعد الهرج والمرج إلى حالته الطبيعية،

المحلات والبسطات مكتظة بالزبائن والمتسكعين والمجاهدين ومتصيدي الأخبار. دكان لبيع الخردوات، وآخر للأدوات الكهربائية، محل لبيع الأسمدة والأدوية الزراعية، المقهى شبه خال من الزبائن، في داخله ثلاثة أشخاص، محل الإنترنت مغلق، دكان حلاق علقت على واجهته الزجاجية يافطة كتب عليها «حلاقة على الطريقة الإسلامية»، ويافطة أخرى تحتها «لا نحلق اللحية ولا نأخذ الخيط».

في الفسحة البعيدة، كان الأطفال يتقاذفون بأقدامهم كرة من قماش.

هرع أبو الحارث إلى الشيخ وعانقه:

«عمل تؤجرون عليه».

سلم الشيخ عليَّ، ثم أمسك بيد أبي الحارث ودعانا إلى الغداء. مشينا في زقاق ضيق، متفرع عن الساحة. أبواب المنازل الرثة تتوالى غائرة على الجانبين، دخلنا إلى منزل ذي باب حديدي، انفتح على فسحة واسعة، توضأنا وصلينا معاً. انتقلنا إلى صالة الاستقبال المعروفة بالديوانية، ربما كان المقصود بها المضافة، كان آخرون قد سبقونا بعد أن صلوا فيها جماعة.

الرجال ملتحون، يتجاوز طول شعر لحاهم الطويلة غير المشذبة قبضة اليد، يرتدون الثياب الشرعية، ثوباً فوقه معطف كاكي أو أسود، أو القميص الطويل والسروال الفضفاض. الشبان منهم اعتمروا طاقية سوداء تيمناً بالزرقاوي.

يتبادلون رواية الأحاديث النبوية، أغلبها يدور حول الأحكام الشرعية لتارك الصلاة، واختلفوا على حد الزنى. لم يسأل أحدهم عن صفتي، مرافقي لم يفصح عن سبب وجودي ولا عن اسمي، سوى قوله بأنني ضيف عزيز، فلم يسأل أحد المزيد. دُعينا إلى غرفة الطعام، وكانت تفصلها عن المطبخ وبقية المنزل ستارة، يأتي من بينها شبان صغار في السن يحملون أطباقاً وزعوها حول صينية الكبسة. عرفت أن الشيخ هو صاحب المنزل، لأنه لم يأكل معنا، وإنما أخذ يخدمنا عملاً بتقليد صحابي، أو حسب عادات المنطقة.

بعد الطعام، استرخوا يشربون الشاي بالنعناع، والشاي الأخضر، وصبي يدور عليهم بدلّة القهوة. بينما انتشر الآخرون خارجين إلى أعمالهم. انسحبت مع مرافقي أبو الحارث، إلى حيث أخلى لنا الشيخ الغرفة التي صلينا فيها، لنستريح بعد سفرتنا الشاقة، استراحة امتدت ما يزيد على ساعة من الزمن قضيتها نائماً بعد أيام لم أنعم فيها بالراحة. مع حلول المساء أيقظنا الشيخ، كان علينا التحرك فوراً.

تقدمنا مضيفنا الشيخ متلمساً طريقه في الظلام دون أن يحمل معه مصباحاً أو شمعة تضيء الممشى الذي سلكناه، خرجنا منه إلى الحقل وخضنا في الماء. ثم صعدنا إلى جرف صخري مرتفع، وأخذنا نمشي وراءه في مدق ترابي ضيق ومتعرج، التصقنا بالحائط، الجانب الآخر شديد الانحدار، وتوقفنا أمام أكمة ضخمة، التففنا حولها ودخلنا فوهة أشبه بكهف، ربض في مدخله رجال ملثمون ومسلحون، أبو الحارث لم يدخل، دخلت وحدي.

في الداخل، كان هناك متربعاً على الأرض، على رأسه طاقيته السوداء، مستنداً بظهره إلى الصخر، وتحته حشية رقيقة من الإسفنج، وأمامه عدة صحون صغيرة، لبن مصفّى، جبنة، بلح وتين، خبز وكأس ماء.

كان في انتظاري أبو مصعب الزرقاوي؛ الرجل الذي ثمنه خمسة وعشرون مليون دولار.

٥

وصل الزرقاوي بعد الظهر، كان في طريقه إلى مكان آخر، توقف قليلاً للاستراحة، كان ينوي أن يترك خبراً لنا في الموقع كي نتابع طريقنا، وكاد أن يغادر لولا أنني وصلت، فأراد رؤيتي، كي يهنئني على سلامتي.

في العتمة الخفيفة المخيمة، فصل بيننا النور الواني المنبعث من مصباح الكاز، وأضاء وجهينا. لا بد أنني بدوت متفاجئاً، كان الزرقاوي بلحمه ودمه، كما رأيته مراراً في صوره القليلة المنتشرة في الجرائد، لم يكن شبحاً، ولا شبيهاً به، أو بقايا شائعة مخيفة، كان هو بالذات. الأسطورة المرعبة تجسدت في رجل بدا هادئاً ومتعباً ومنشغل البال، رغم أنه كان يتأملني بأناة محدقاً إلى وجهي، قال:

«ابنك أخ عزيز علينا».

قالها بصوت لا يخفي ما يحمله من لوم، وكأن ما فعله اضطر إليه اضطراراً. وكانت كلماته بعدها تصديقاً لما خامرني.

«نحن لا نرفض له طلباً».

كان إنقاذي إكراماً لابني، ولو ترك له الأمر لما فعل شيئاً من أجلي. خطر لي أن أقول له، إنني دعوت الله وأنقذني، ولا منة له عليّ. لم أغامر بقولها، الإيمان الذي يأتي به الخوف، يذهب به الأمان، ويتنكر له العقل.

لم أفه بكلمة، أخذتني الرهبة، لم يكن مجرد شخص جالس مواجهتي بسكينة مخادعة، كان الشخص نفسه الملثم الذي ذبح بسيفه العميل الأميركي أمام الكاميرا. تلك اللحظات التي مثلت الحدود القصوى غير المتوقعة للقسوة وبأبشع تجلياتها.

كانوا خمسة ملثمين وقفوا خلف الأميركي الجالس على الأرض، يرتدي ثيابا برتقالية، قال إن اسمه نيك بيرغ، وأباه هو مايكل، وأمه سوزان وأخاه ديفيد وأخته ساره وإنه مقيم في فيلادلفيا.

تلا أحد الملثمين بياناً، ثم صرخوا معاً: الله أكبر. دفع أحدهم ببيرغ إلى الأرض، بينما انحنى عليه الآخر وفصل رأسه عن جسده.

الآخر كان الزرقاوي، رفع قبضتيه القويتين المشدودتين، هاتين اللتين أمامي الآن... الأولى بالرأس عالياً والثانية بالسيف يقطر دماً.

كان الزرقاوي في هذه اللحظة، حقيقة لا تقل عن بركان دمار قد

ينفث حممه في أية لحظة، ولم أخش أن يصيبني!! ما كنت أخشاه، أنه لم يعد بإمكاني أن أضع الله في حسباني ولا في صفي. ومع هذا رفضت تلك المقايضة، لن أدع إنقاذي يكلفني ابني. قلت له بصوت منخفض:

«لم تكن مجبراً، حياتي لا تهمني».

جلب واحد من المسلحين إبريقاً من الشاي، وضعه أمامنا. أشار له الزرقاوي بالانصراف، فخرج. بقينا وحدنا. ظننت أنه يريد أن يبلغني خبراً سيئاً. فبادرته:

«هل سامر مصاب؟».

«إنه في أحس حال. أبلغوه أنك بخير. ستراه غداً، وتطمئن إليه، وتقضي أياماً بضيافته».

أراد أن يفهمني بأن سامر لم يكن على قائمة الانتحاريين، وإنما مسؤول في القاعدة. أحسست بالارتياح، ما زال في الوقت متسع.

ومثلما انفردت أساريري انفردت أساريره، صب كأساً من الشاي وقدمه إليّ. وقال:

«ندعوه عبد الله، هو الذي اختاره. وبما أننا كلنا عبيد الله، أضاف إخواننا إليه لقب السوري، فأصبح عبد الله السوري».

شكرته على إنقاذي، لكنه لم يعبأ بما قلته، وكأنه ليس هو الذي أمر بذلك:

«عسانا أحسنّا العمل».

قلت له، كان بوسعكم معاقبة الخاطفين، وليس قتلهم. لكنه ابتسم مستهيناً بما قلته:

«لقد نالوا جزاءهم».

«الله وحده الذي يحيي ويميت، ولا يحق لمخلوق الحكم بالموت على أحد».

أردت منذ البداية الإعلان عن موقفي تجاهه، فلا يظن أني أوافقه على مسلكه، تحت أي مسوغ، ولو كان من أجلي. قال بصوت حازم:

«الشريعة كلها، مصالح تُجلب أو مفاسد تُدرأ، ودرء المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة».

«درء المفسدة لا يأتي بالقتل وحده».

بدا وكأنه يشاور نفسه في ما ينبغي أن يكون عليه رده. كنت متنبهاً، لم يكن من الرجال الذين يتحيرون بأمرهم، ومع هذا لم أشأ خداع نفسي، قناع التروي الذي ظهر على ملامحه وفي سلوكه العفوي، لم يحجب عني أعماله الوحشية.

«بل بالقتل، لا بغيره، نحن في حرب».

كان يجب أن أوقفه عند حده، وأتكلم عن هذه الحرب التي يخوضها على طريقته:

«لا ينبغي المبالغة في القتل، الذبح عملية شنيعة، لا يجوز اقترافها».

«أعطني دبابات وطائرات كي لا أذبحهم».

وإذ وجدني جفلت، تابع:

«ما يحيق بهم اليوم لا شيء إزاء ما ذقناه من ذل وهوان. طوال عشرات السنين وهم يرتكبون المجازر ضدنا في فلسطين، والشيشان وكشمير. ألم ترَ ما يفعلونه في العراق».

كان من الغباء مناقشته، ما الذي تفعله قنابلهم البشرية في دفع غارة جوية واحدة توقع العشرات والمئات، وربما الآلاف من القتلى الأبرياء؟ قلت له:

«لا تحمّلوا البشر فوق طاقتهم».

«هذا امتحان لنا جميعاً».

«الأميركان استدرجوكم إلى العراق كي يقضوا عليكم».

«بل نحن الذين استدرجناهم، ونحن الذين نستنزفهم. إنها حرب عالمية، حرب اندلعت ولن تتوقف، سعوا إليها ونحن أردناها، فرصة ربانية، أن نخوض معركتنا مع الشيطان الأكبر. معركة بقدر ما نقدم تضحيات وأضحيات نفوز بها».

نفرتني الثقة التي يتكلم بها، وكأنه قادم من عالم آخر، عالم من فروسية وشجاعة وتضحيات!!

لم يكن السيف مواجهة السيف ولا البندقية، بل مواجهة الصواريخ العابرة للقارات والقنابل النووية والبوارج الضخمة والطائرات الجبارة.

«حرب من الصعب أن تفوزوا بها».

«نحن أهل الإيمان، توكلنا على الله».

وإذ رآني مدهوشاً تابع قائلاً:

«سنهزمهم في العراق، نذهب بعدها لتحرير سورية والأُردن ومصر من الطغاة، ثم ننطلق إلى القدس فاتحين بإذن الله».

نظرت إليه، أحسست أنه لم يكتف بما قاله، ثمة المزيد، وقد يزعجني، قلت له:

«لا تتفاءل».

امتنع عن الجواب، لم يشأ أن يصطدم بي، كنت ضيفه وكان مضيفي ومنقذي. في الواقع لم أكن سوى أسيره. لكنه امتنع بكل هدوء عن إظهار غضبه. متانة أعصابه لفتت انتباهي أكثر من عضلاته البارزة. ولم أفاجأ عندما غير اتجاهه نحوي، كان قد عزم على مواجهتي، وقال بغلظة:

«وفر على نفسك مقابلة عبد الله».

«لو علمتَ مقدار ما تحملت من مشاق، وعانيت من كرب وخوف، وأشياء فوق طاقتي، لما طلبت مني هذا الطلب».

«لا أمنعك عنه، هذا مطلبه».

«لقد اضطررت إلى القبول بكل ما رفضته في حياتي، جواز سفر مزور، والتعامل مع المخابرات بأنواعها، والأميركان الأجانب، والبعثيين المطلوبين. صدقني، لو أتيح لي التعامل مع الأبالسة لما ترددت، لن أعود دون أراه».

«ما الذي تريده منه؟».

«إقناعه بالعودة معي».

«لقد هجركم».

«لا تكلمني على هذا النحو. افهمْ أنا أب».

«أنا أب أيضاً، لدي أربعة أولاد».

«أنت لا تراهم، لديك قضية أعمتك عنهم. أنا ليست لدي قضية».

«لديك قضية خسرتها».

لم أرد الدخول معه في مماحكة لن تنتهي على خير. كنا على طرفي نقيض. كان يعرف عني أكثر مما توقعت، وكان عليه أن يدرك أنني أعرف عنه شيئاً بالمقابل.

«ألم تتمنَّ أمك لو أنك تعود عن هذا الطريق؟ ألم ترغب في رؤيتك قبل موتها؟».

«رغبتُ وأنا رغبت، الطاغوت حال بيننا».

«لكنك عدت إلى عمان متخفياً، وقرأت الفاتحة على قبرها».

لا بد أنني قسوت عليه، لكن كان يجب أن يعرف، أنه حتى هو، غير محصّن من عاطفة البنوة ولا الأبوة.

«سألاقيها بالجنة في الدار الآخرة».

«الآباء والأمهات لا ينظرون إلى الأمور بهذا المنظار».

«أدري أنك تعرف عني الكثير، غير أن ما أعرفه عنك يطالك دون رحمة، لكن عبد الله يشفع لك، ثم إنك بحمايتنا».

«إذا أردت التراجع فلا بأس، كنتُ ذاهباً إلى الموت».

«لقد أجرناك، ولا أندم على ذلك».

أدركت دون عناء، أن ليس لي خصم سواه، وأن معركتي كانت معه وحده.

«لا تسلبني ابني ولا تقاسمني عليه، ليس لدي شاب غيره، لن أعطيه لك. لديك رجال كثيرون».

«أمره ليس بيدي».

«إنه مفتون بك».

«بل مفتون برب العباد».

من يكون خصمي؟ إذا كان الله!! فأي إله؟! المتسامح، أم الجبار؟!

«في محنتي دعوت الله، فاستجاب لي».

«رأفة بابنك، لا شفقة عليك».

تابعنا شرب الشاي بصمت، كنت متأكداً أن لديه ما يقوله، ويخفيه عني، ولن أنجح في استدراجه. كان بلا ملامح في العتمة التي بدأت بالتثاقل. لم يغب عني أنه قد ينقلب ضدي، لكنه كان متحكماً بنفسه مثلما كان متحكماً في كل كلمة قالها. ولن أظفر منه بشيء.

فجأة خرج عن صمته، وقال بحدة:

«عد من حيث أتيت، ابنك لن يدعنا ليذهب معك».

كان قد قال لي ما حاذر قوله. لم أتجاهل ما سمعته منه، وخطر لي أن اشكو له شيئاً مما دار في ذهني قبل يومين، ولو كنت سأصطدم معه:

«وأنا في بغداد، خطر لي سؤال، لماذا كل هذا القتل وهذه القسوة، إلى متى؟ ألا تشعر أنه آن الوقت لتسأل نفسك هذا السؤال؟».

«لن يحين هذا الوقت، لكن إعلم أن قسوتي لم تكن أكثر من قسوتهم. أما القتل، فنحن نقتل بالآحاد وهم يقتلون بالمئات، قدرتي تقصّر عن مجاراتهم».

وربما لأخفف ما نشأ بيننا من توتر، خاطبت فيه ذلك الجانب المجهول والسري من شخصيته، الذي لا يعرفه إلا القلة:

«قرأت عنك بأنك تحب أن تلقب بالغريب».

رفع رأسه وبرقت عيناه:

«أنا هو الغريب».

«مع أنك في قلب العالم والأضواء مسلطة عليك على الرغم من تواريك».

«عشت غريباً وسأموت غريباً. لم أتمن شيئاً قدر الانقطاع إلى الآخرة. رجوت الله أن أرحل عن هذه الدنيا بلا اسم، أن تقضي عليَّ قنبلة، ولا يبقى مني شيء. أن يتلاشى هذا اللحم والعظم في ملكوته أسوة بالذين يتفجرون، وتصعد هذه الروح إلى بارئها. لكن الأمر لله وحده، إنها مشيئته».

«ألا تخاف من شيء؟».

«لا أخاف من أحد على وجه الأرض، وإذا كنت أخاف فمن عذاب نار جهنم، عداها لا يهمني شيء. أنا ملاحق في كل عمل أقوم به، وكل خطوة أخطوها، الكثيرون يريدون تسليمي إلى الأميركان، لكنهم لن ينالوني حياً. إيماني أن الأعمار بيد الله، ولدي يقين بأن رحلة الأنفاس قاربت على النفاد، سأُقتل قريباً».

نظرت إليه غير مصدق، كان يتنبأ بموته القريب!! ابتسم وتابع قائلاً:

«البارحة اجتمعت بابنك عبد الله، قلت له إنني حلمت حلماً، رأيت نفسي أركب الأمواج المتلاطمة، والأنواء تعصف بي، كنت وحدي أشق البحر، والليل يبرق ويرعد، لم أكن خائر القوى، بل بكامل عزيمتي، إلى أن لمحت نوراً من بعيد، اقتربت منه، أو أنه اقترب مني. قبل أن يبلغني سألته، إلى أين؟ فسمعته يقول، إلى منزل النعيم. سألت عبد الله، ما تفسيره؟ قال لي، الحلم الرباني لا تأويل له، سترحل إلى منزل النور والسعادة، فاستعدّ، والله طفح بي السرور واستبشرت، الشهادة موعدي القريب».

«لماذا تقول لي هذا؟».

«حتى في حال موتي، لن يتفرقوا من بعدي».

بعد صمت طويل، صب الشاي ثانية، ونظر بعيداً إلى خارج الكهف، حيث الظلام، لا أشباح ولا خيالات. ظلام أسود تماماً، حيث غاب بصره هناك. انبسطت ملامحه، بدا وكأنه طفل يلهو بالموت والغيب معاً، فلم أجد بأساً في مناشدته ثانية.

«ابني صغير السن لا تطلب منه ما لا قدرة له عليه».

ارتد ببصره نحوي.

«أنت تجهله».

«هل تظنني جئت كي أتعرف إليه؟».

«وفر على نفسك أمراً لا جدوى منه».

شربنا الشاي من دون كلمة، أشحنا بوجهينا عن مصباح الكاز، وأمعنا النظر في الظلام. ولقد تراءت لي أشياء وأشياء، لا يمكنني الفصل فيها. وكان إلى جواري تتراءى له أشياء وأشياء خشيت أن تتقاطع معي.

قال وهو ينهض من مكانه:

«ابنك أشد غربة مني».

قبل أن يخرج التفت نحوي قائلاً:

«ولد الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء».

وغاب في تعرجات الظلام، نظرت حولي، كان النور قد بدأ يشح.

دخل أبو الحارث وقال لي، سنبات الليلة هنا، وفي الغد سنتابع طريقنا للقاء أمير المنطقة: عبد الله السوري.

٦

طوال الطريق لم يبارح الزرقاوي ذهني، كان واثقاً من إخفاقي، نصحني بالعودة، ولم يمنعني عن ابني. سامر ليس أحد تابعيه أو أعوانه المقربين فقط، كانت مكانته كبيرة، وكما خمنت، ليس في دولة العراق الإسلامية المرتقبة، أو تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين. بدا ما قيل لي في دمشق صحيحاً، أن له دوراً مستقبلياً كبيراً في التأسيس لعمل القاعدة في بلاد الشام. معركتي المقبلة وإن بدت مع سامر، لكنها في الصميم معركة شاقة مع الزرقاوي، هذا الرجل يحتجز ابني، ويجتذبه بأفكاره وأسلوب تدينه وأعماله الدموية. كان دون ريب المثال الذي يرغب سامر في الاقتداء به.

اضطررنا لدى ظهور الطائرات الحربية الأميركية في السماء إلى التوقف عدة مرات في الطريق، كانت تحلق على علو مرتفع، فيما طائرات الهليوكوبتر على علو منخفض، ترصد حقول الذرة والخضار والأشجار، وبساتين النخيل الخضراء والطرقات

المكشوفة والأراضي الواقعة على أطرافها، كل شيء تحت سيطرتها. اختبأنا بين أعود القصب، أحياناً كان انتظارنا يطول نحو ساعة وأكثر، وأحياناً أخرى نلتجئ إلى البيوت التي نصادفها، فيستقبلنا الأهالي بخوف وعلى مضض.

تفادى أبو الحارث خلال رحلتنا، الطرق الرئيسة واعتمد المسالك الجانبية، سواء عندما نصادف رتلاً عسكرياً أميركياً، أو يتوقع حاجزاً معادياً. لم أسأله عن القرى التي كنا نمر بها، كما لم يعلمني عن الأماكن التي سنقصدها، وإذا سألته يتعمد ألا يجيبني، لم أكن مستثنى من الاحتياطات الأمنية.

وصلنا إلى مقر سامر بعد غياب الشمس، استقبلنا شاب جزائري يدعى أبو صالح في الخامسة والعشرين من عمره، لم تفارق وجهه الابتسامة، عندما تكلم بلهجته الجزائرية البسيطة والنزقة لمعت سنه الذهبية. كان مكلفاً بتأمين حاجياتي، ذهبنا معه، كانوا قد أفردوا غرفة خصصت لي، متصلة ببيت يقع إلى جوار ساقية، مجهز للمجاهدين الضيوف. بعد أن اطمأن إلى أنني لن أحتاج شيئاً أبلغني بأنني لن أتمكن الآن من رؤية أمير الموقع عبد الله السوري، قبل وصولي بنصف ساعة غادر القرية على عجل بعد أن أوصاه بي. اعتذر أبو صالح عن تناول العشاء معي، لم يتركني إلا بعد أن سكب لي بيده الطعام في صحني، كان لديه عمل سينجزه ليلاً قبل أن يغادر صباحاً.

بقيت مع أبي الحارث، سألته، أين نحن؟ قال لي، ستعرف فيما بعد.

ما زالت الاحتياطات الأمنية تشملني. وأبلغني أنه لن يراني غداً،

لقد كلفوا رجلاً آخر بمرافقتي. شكرته على عنايته بي، وإيصالي إلى ابني معززاً مكرماً، قلتها ضاحكاً. فقال متعجباً، هل عبد الله ابنك؟ فأومأت بالإيجاب. وكي أزيد من تعجبه قلت له، ليتك ترافقنا في طريق الرجعة، كما رافقتني إلى هنا. بدا على وجهه الاستغراب، لم يفهم ما أقصده، فقلت له، جئت إلى العراق كي أعود بابني إلى سورية.

أطرق برأسه، وعندما رفعه، كانت عيناه قد خفت بريقهما:

«ليتك لم تأت».

وإذ لاحظ القلق على ملامحي، هوَّن عليَّ:

«وهل يملك نفسه؟».

كنت قد خيبته، ظنَّ أنني انتحاري سأضحي بالقليل مما تبقى من حياتي، فإذا بي أريد إقناع ابني بالنكول عن عهده، ومن يكون ابني؟! ليس أي شخص، وإنما أمير الموقع!! فردَّ عليَّ بعودة لن تتحقق.

سألته كي أغيِّر الحديث عن عمره. قال إنه بلغ الخامسة والثلاثين قبل أيام. قلت له، يبدو عليك وكأنك تجاوزت الخمسين بسنوات. قال، لقد منَّ الله عليَّ بأكثر من حياة.

خلافاً لما توقعته، أبدى الرجل الصموت خلال تناولنا العشاء رغبته في الكلام. انحلّت عقدة لسانه، وبقيت تجاعيد وجهه الغائرة معقودة.

ترك الدراسة ولمّا يبلغ العشرين من عمره، سافر إلى أفغانستان، وتدرب في معسكرات المتطوعين العرب، قاتل قوات الاحتلال السوفياتي، وحضر أغلب العمليات الكبرى، من فتح جلال آباد وخوست إلى كابول. بعد سقوط النظام الشيوعي، حصلت الفتنة والاقتتال الداخلي بين المجاهدين، لم يأخذ جانب أحد، اعتزلها مع الكثيرين من رفاق الجهاد. شجعتهم الانتصارات التي حققوها في أفغانستان على ملاحقة الروس الملاحدة في طاجيكستان، كان القتال دائراً بين المجاهدين المسلمين الطاجيك وقوات الحكومة، فأمضوا نحو سنتين يقاتلون في أصعب الظروف، أغلب المعارك التي خاضها كانت ساحاتها الجبال الوعرة المجللة بالثلوج، وصمدوا رغم النقص الفادح بالسلاح والذخائر. انتهت الحرب بعقد اتفاق بين المجاهدين والحكومة، فعاد إلى أفغانستان.

لم يبق طويلاً، اكتسحت أخبار الشيشان العالم، الجيش الروسي يمارس الفظائع ضد المسلمين العزّل، ففكر بالذهاب إلى هناك.

«كأننا تخصصنا بقتال الروس».

ما شجعه فعلاً هو القائد العربي خطّاب، الملقب بأسد الشيشان، وكان قد التقى به قبل سنوات في معسكرات التدريب في أفغانستان، بالإضافة إلى ما أثارته فيه القنوات الفضائية والمواقع الجهادية من حميّة، وكانت تنقل صوراً لرجال المقاومة الشيشانية بلحاهم الكثيفة في كهف يصطلون حول النار، وقد لفوا رؤوسهم بعصابات سوداء مكتوب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وفي الغابات يحتضنون أسلحتهم ويهتفون الله أكبر... كانت أكثر من نداء للجهاد، فلم يتوان عن تعقب أثر خطاب أسد الشيشان.

«أخذنا على عاتقنا نصرة إخواننا المسلمين المستضعفين، والدفاع عنهم في مشارق الأرض ومغاربها».

التحق به وحارب تحت قيادته، في القرى والجبال والغابات، رغم قسوة الشتاءات الباردة التي بلغت درجة حرارتها ما تحت الصفر. شارك معه في عملية كمين «شاتوى»، وكان إلى جانبه في الهجوم على غروزني. ولم يتأخر عن أية عملية عسكرية دعي إليها. وكان اغتيال القائد خطاب مسموماً ومواراته في التراب جنوب الشيشان، فقداناً لرفيق الجهاد والإيمان والسلاح، وإيذاناً بالرحيل.

توجه بنظره نحو بلاده، كان الأميركان قد توغلوا في الحجاز، فقرر العودة. رجع إليها متسللاً، كانت السلطات قد اعتقلت رفاقاً له سبقوه. اتصل بأصدقاء قدماء، وتدارسوا من جديد فكرة الجهاد، وخططوا لمهاجمة المنشآت الأميركية في الداخل. ورغم أنه انكشف بعد فترة قصيرة وبدأت قوات الأمن بملاحقته، لم يرحل. كان معرّضاً للاعتقال والموت في أية لحظة، فعزم على ملاقاة ربه طاهراً متمماً واجباته الدينية. عرج على مكة المكرمة حاجاً، حجة الوداع، ناشد الله أن يرزقه الشهادة.

أثناء طوافه حول الكعبة الشريفة، صادف شيخه وأستاذه، أخذه معه إلى بيته، وسأله، ماذا تنوي فعله. رد عليه، الجهاد. قال له، أتمم دينك إذن. زوجه ابنته، ثم أبلغه بنداء ابن لادن بالتوجه للجهاد في العراق. سأله، وماذا عن الأميركان، أليس الأولى طردهم من بلادنا، أم ندعهم يرتعون فيها، ويدنسون الأرض التي باركها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟ أجابه، امتناع قتال العدو القريب، لا يعذر من مقاتلة العدو البعيد.

ودّع زوجته الحامل، وسافر عن طريق الأردن. في سورية قبل الدخول إلى العراق، سجل نفسه مقاتلاً، وتبرع بكل ما يحمله للمجاهدين.

«كانت رحلتي الأخيرة، لم أتوقع أن حياتي ستطول أكثر من أيام، لكنها امتدت وقاربت السنتين».

بعد أسبوع على دخوله العراق، التحق بالمقاتلين العرب في الفلوجة وخاض معهم معركتها الثانية. حرب لا تختلف كثيراً عما صادفه في أفغانستان وطاجيكستان والشيشان. الحرب ضد الأميركان لم تقلّ عن الحرب مع الروس، بل زادت، الأميركان مدججون بأحدث الأسلحة، لا يتقدمون خطوة إلا بعد قصف كثيف، يدمرون البيوت التي يتحصن فيها المقاتلون، تحت زعم أنها خالية من المدنيين، بينما أغلب الضحايا منهم، يروّعون السكان ويدفعونهم إلى الهرب، ثم يقتلونهم. أحياء بكاملها هدمت، وشوارع سويت منازلها بالأرض، وحولتها الجرافات إلى ساحات مستوية، المساجد والمدارس أصيبت إصابات مباشرة، القنابل لم توفر منزلاً في الأحياء المستهدفة. ومع هذا كان المقاتلون يخرجون من ملاجئهم، ويتصيدون الدبابات والمدرعات، ويهاجمونهم بأسلحتهم الخفيفة، الرشاشات والقاذفات يدوية.

الفلوجة مدينة المآذن، مدينة تحترق، ألسنة النار والدخان تتعالى، القصف لا يتوقف، الشوارع تحولت إلى قبور مكشوفة، والجرحى يتوسلون لإنقاذهم من دون جدوى، لا أحد قادر على إسعافهم، الجثث متناثرة تنهش أشلاءها الكلاب.

«ساعات وقف النار القليلة خصصت لإخلاء الشهداء من تحت

الأنقاض، كنا ندفنهم بالعشرات».

خلّف صمودهم الدمار وآلاف القتلى والجرحى والمهجرين. أما الدمار الأكبر، فهو أنهم أصبحوا محطّ كراهية الأهالي الفارين منها والمحاصرين فيها، أولئك الذين استقبلوهم، واعتبروهم ضيوفهم، باتوا يلقبونهم بالأغراب والأجانب وسارقي السيارات!! لم تعد لديه أدنى رغبة بالموت فوق أرض بات حتى أهلها لا يجدون لهم مأوى فيها سوى العراء. عزيمته أصابها الوهن. فقرر مغادرة الفلوجة، ربما تهيأ له طريق آخر.

عندما لم يبق أمامه سوى عبور النهر، رأى امرأة ومعها ابنتها، تجلسان بجوار ركام من الحجارة، تبكيان وهما تقرآن القرآن. كان الركام بيتاً سقط عليه صاروخ أميركي، فأدرك أن شخصاً عزيزاً عليهما مدفون تحته. فرقّ قلبه عليهما. اقترب من المرأة، وسألها عما إذا كان الميت هو زوج أو أخ، ردّت بالإشارة إلى الطرف البعيد من البلدة حيث المقابر: قبر زوجي وأبي هناك. قال، هل لكِ أحد هنا؟ مسحت دموعها وقالت، أقام في هذا البيت ثلاثة مجاهدين عرب صغار في السن، دفنوا تحته بلا شاهدة، لم نعرف أسماءهم ولا بلدانهم، جاؤوا يدافعون عن الإسلام وأعراض النساء فاستشهدوا. يا حسرتي عليهم، ترى ما حال أمهاتهم؟ ألا نؤنس وحشتهم بقراءة القرآن على أرواحهم؟

«كانت عندما يهدأ القصف، تأتي وتقرأ لهم ما يسمح لها به الوقت من القرآن».

فعاد أدراجه، ما دام هناك امرأة في العراق قد تقرأ يوماً على روحه الفاتحة، فنعم الشهادة، واستعاد نزالاً مميتاً حتى الرمق الأخير،

وكاد أن يلاقي حتفه لولا نجاته من انفجار طوح به إلى حائط سقط فوقه، فغاب عن وعيه. عندما استيقظ وجد نفسه ممدداً على عتبة منزل، وإلى جواره جثة رجل، يده ممسكة به، كان الرجل المسجى بلا حراك إلى جواره، قد سحبه من بين الأنقاض، وحاول إخلاءه إلى الطرف الآخر، فأصابته قذيفة قتلته. الله أرسل له رجلاً مات من أجله ليعيش، هذا بلاغ مبين. لم تعد لديه خشية من المنية؛ لم تحن بعد. نهض وركض مخترقاً الغبار والأتربة وشظايا المعادن والحجر، واصل الجري عبر الشوارع تحت نيران القناصة الأميركان، دون أن يصاب برصاصة أو شظية، واستعاد موقعه بين المجاهدين، وبقي يقاتل إلى أن خرج معهم من الفلوجة.

لم يتأجل موته إلا لكي يقابل الزرقاوي، وينضمّ إلى القاعدة.

«فقدت خطّاب في الشيشان فعوضني الله بأبي مصعب في العراق. هذا ما شاءه الله لي».

وشاء له أمراً آخر، جدد عهده مع الله، ليس على القتال وإنما على الشهادة. فوضعه الزرقاوي على قائمة الاستشهاديين على أن يقوم بالعملية في أقرب فرصة.

لكن تأخرت، الزرقاوي استمهله، كان قد وثق به وحوله إلى المهمات الخاصة، وأخذ يكلفه بالمهمة تلو الأخرى. لكنه لم يستجب للكثير من الأمان والقليل من الخطر. ما زال مصراً على عهده. لا رجاء إلا بالشهادة، ولا أمل يلوح، إذا لم يضحِّ هو وغيره بالحياة نفسها، وجزاؤهم عند الله.

لا، ليس اليأس، بل الحياة، الحياة التي هي جهاد، الله جعل الإنسان خليفته على الأرض، ألسنا نحن الحافظين لها والأمناء عليها؟ ما جعله يزداد إصراراً على الشهادة.

«كان لا مفر من القضاء على خصومنا مهما كانت صفتهم أو أديانهم».

وازداد إصراراً أيضاً على الفهم.

«لماذا تقودنا الحرب من عنف إلى عنف أشد؟ كنا نقتل كل من يتعاون مع الاحتلال، وأصبحنا لا نوفر الساكت على المحتلين، بات كل من ليس معنا ضدنا!!».

شيخه ووالد زوجته أرسل له رسالة، ليس فيها سوى هذا الحديث: قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، من آذى مؤمناً فلا جهاد له.

«هل كنتُ على صواب، أم أنني عصيت الله؟».

البارحة كانت مهمته ما قبل الأخيرة، حسب اتفاقه مع أبي مصعب.

«قتلتُ خاطفيك الثلاثة. حتى ولو كانوا مجرمين، فأنا لا أبرئ ذمتي منهم، وحسابي عند الله تعالى. حان وقت مهمتي الأخيرة، طلبت من أبي مصعب أن يستمهلني فأذن لي، بيّت أمري على أن أستخير الله، لم يسألني على ماذا، وأنا لم أقل له».

في الحقيقة، لم تكن استخارة بقدر ما كان هاجساً أخافه، كيف

بعد كل هذا الإقدام، يصيبه التردد؟! خشي من التراجع عن بيعة استشهاده؛ ثمة سؤال وربما أكثر، فكان لا بد من الخلوة.

اليوم، بعد أن أوصلني سالماً، أصبح حراً. غداً باكراً... سيأوي إلى مكان لا يشغله شاغل عن الله.

«أين ستجد خلوة تعتزل بها البشر وتتفرغ لله، في قلب هذا الهول؟».

«لا تسلني، لقد وجدتها».

ثم عانقني وودعني.

إذا كنت لم أنتبه إلى مراده، فلأن ما قاله لي قلب ما في ذهني إلى نقيضه، وانصرف لوجهة أخرى؛ كان يطلب الشهادة، فإذا به يطلب الخلوة والعزلة... ما أشق الأسئلة!!

٧

جافاني النوم مع أنني كنت متعباً، غير أن النعاس دهمني، لم يكن نومي عميقاً، شردت في كابوس تقطعت أوصاله بين المنطقة الخضراء وشوارع بغداد وفنادقها، ومناطق أجهل أين تقع سوى أنها في المثلث السني. ميللر وجوناثان على مبعدة مني يتهددهما الموت بعبوة ناسفة، أو على مقربة مني يتهددهما نصل الخنجر. كانت محنتي، لا محنتهم، ليس بوسعي إنقاذهم، وليس بوسعهم إلا الموت. يتبدل موقعي تارة إلى شاهد وتارة أخرى إلى مراقب، لا أتجرأ على الدفاع عنهم. أتنقل من مشهد يركعون فيه، إلى مشهد تُجزُّ أعناقهم وتسيل دماؤهم، موقفي المتردد والجبان يكرر نفسه. حاولت الهرب، كانوا لي بالمرصاد، أركعوني إلى جوارهم وسط بحر من الدماء، خطر لي أن دمائي ستختلط بدمائهم. والخنجر على وشك أن يقطع رقبتي، علق الشهيق في صدري، سحبني في هذه اللحظة من الاختناق والكابوس معاً، دخول سامر.

لم يسحبني، كان معي في مكان ما داخل عالم الدماء والخناجر، يراني دون أن أراه، لم يدعني أكابد ما يشبه الموت. فكان ظهوره حلماً. انحنى عليَّ، واحتضنني، لامس وجهه وجهي، ثم أمسك بيدي وقبلها، اطمأنت نفسي بين ذراعيه. أتنهد، الكابوس يتلاشى، والحلم ساري المفعول، خشيت عندما ابتعد عني قليلاً أن يذهب بذهابه، نظرت إليه أناشده البقاء؛ غير أن سامر خرج من الحلم، وجرني معه إلى الواقع.

سامر بقامته الممشوقة ووجهه الجميل، لحيته طالت، ملامحه لوّحتها الشمس، نظراته حانية، وجبينه خالطه سواد. شددته نحوي وعانقته، فبكى وبكيت معه، سمعت صوته يتردد في أذني:

«الحمد لله الذي أكرمني بك سالماً».

لم أقل له بأنه أكرمني أكثر منه، لئلا تخيّبه التوقعات والنتائج، فيظن أنني أعترف لله بتدبير هذا اللقاء، وليس المصادفات الغامضة إياها. لا مجال لهذا الكلام ولا لغيره، قررت تفادي تسجيل معجزة سيدّعي أن الله وراءها، ولا يلقي بالاً لتصميمي على الوصول إليه.

أعدت النظر إليه، سحنته شاحبة، عيناه أصبحتا أكثر نفاذاً، تقاطيع وجهه حادة، تغيرات لم أرتح لها، بدا لي قوياً على نحو لم آلفه من قبل. كان ابني، رغم كل هذه المظاهر الخشنة، ولدي الطيب والضعيف... والضال.

ما أغرب ما نحن فيه؛ الهداية هي الضلال!!

أخبار سورية لم تهمه. طمأنته إلى أمه التي تحجبت حسب وصيته، وأخته التي ستتحجب، إن لم تكن قد تحجبت أثناء غيابي. لم أخف عليه عدم ارتياحي لهذه التحولات، وإن كانت أمه مستعدة لها، لكن صعب عليها حالياً ألا تصافح الرجال بسبب وضعها الاجتماعي، غير أنها ستفعل أي شيء مسايرة له. ثم ابتسمتُ ومازحته:

«أما أنا فلن أسايرك، لن أقدم على شيء تحت ضغط هذه الظروف».

تابعت وصارحته بظروف مجيئي، وما لاقيته طوال ساعات اختطافي التي أمضيتها يائساً وقانطاً. أعلمته بها عن قصد، كي يدرك أن كل ما عانيته، لم يردعني عما كنت أسعى إليه، وكي يدرك أيضاً أن لا شيء سيحول بيننا بعد اليوم؛ لن أعود من دونه.

لم يعلّق، لكنه عندما تكلم كان صوته منخفضاً ومتعجلاً في لفظ كلماته، متجنباً إعطاء أهمية كبيرة لما سمعه. لقد رأى صورتي في قناة الجزيرة بعد اختطافي، اتصل بعصابات الخطف من دون فائدة، إلى أن عرف بأن منظمة جديدة تدعى «سرايا الانتقام» ستشتريني، فاكتشف هوية الخاطفين وطالبهم بتسليمي، حسب اتفاق كان معمولاً به؛ لا يحق لأي جماعة اختطاف أي شخص على صلة بهم، وإلا أعلنوا الحرب عليهم، فأنكروا وجودي لديهم، لئلا يخسروا عشرة آلاف دولار.

«فاضطررنا إلى قتلهم».

قالها ببساطة شديدة، وكأنه حسم خلافاً تافهاً لا يستحق التوقف

عنده. لكنني لم أشأ أن يمر:

«قضيتُ يومين تحت التعذيب، وكرهت أحدهم إلى حد أنني تمنيت موته، لا أن أقتله. ليتك لم تستسهل هذا الفعل، كان عليك التفكير بحلٍّ آخر».

«لقد خرقوا عهدهم معنا».

قالها كأمر منتهٍ. لكن ملامح وجهي نبهته إلى استنكاري لفعلته.

«أبي، هل أنت راضٍ عني؟».

«لا أدري فيما إذا كان رضاي أو عدمه يهمك».

«رضاك يهمني».

«هل يمنعك عما أريدك أن تمتنع عنه؟».

«إذا كان لا يتعارض مع ما يريده الله».

«هذا لو كنا نعرف ما يريده الله».

«أنت لا تعرف، أما أنا فأعرف، أدري أنك غير مؤمن. أستغرب لماذا كنت تصلي طوال طريقك إلينا؟! إيمانك مشكوك فيه».

كانت على إجابتي تتوقف بعض الأمور، وربما علاقتي معه، لكنني لم أشأ أن أخدعه.

«لقد راعيت مشاعر من كنت برفقته، وهؤلاء الذين حللت عليهم

ضيفاً، لم يبخل عليّ واحد منهم بالمساعدة، فلماذا أؤذي مشاعرهم؟! لم أرد الظهور وكأنني أجاهر بعدم إيماني، بينما هذا لا يعني أحداً سواي، وليس من المهم أن يطلع عليه الآخرون. ما يجب أن تعرفه أنه ليست لدي مشكلة مع الدين ولا مع الله، إلا عندما يستغلّان لأي غرض، مهما كان هذا الغرض. تربطني مع الدين علاقة أنا لا أفهمها، ربما أتيح لي الوقت يوماً لأدركها، عندئذ لن أخفيها عنك».

«إيماني يمنحني ما أنت تفتقر إليه».

«لا أنازعك على الإيمان، هذا شأنك. وإنما على القتل، وأنت لا تجهل، أن الإسلام يُحرّمه وينهى عنه، لا تقل لي إن ما تفعلونه جهاد، إنه القتل، أكبر الكبائر عند الله، الجهاد شيء آخر...».

لم يدعني أتابع شرح معاني الجهاد في الإسلام، قاطعني:

«الجهاد، ليس طلب العلم، أو الدعوة للإسلام، ولا العمل الصالح، أو النهي عن المنكر فقط... الجهاد هو القتال في سبيل الله، لا شيء أوجب منه، ما دام بإمكاننا حمل السلاح، فهو فرض عين على كل مسلم إلى يوم القيامة، ولا يعذر تاركه، ومن يلق ربه دون أن تكون البندقية في يده سوف يلقاه آثماً. راية القتال ستبقى مرفوعة في أية بقعة إسلامية على وجه الأرض تداس من الكفار أو يقتل فيها المسلمون. نحن مسؤولون عن كل دم يسفك وكل عرض ينتهك، أو أي أرض تسلب».

«هذا جهاد أعمى».

تراجع نحو الباب، قائلاً:

«استرح الليلة، سأراك غداً».

كان النزاع قد بدأ بيننا.

٨

بين النوم والصحو، طرق سمعي نداء: «الجنة، الجنة يا طالبها» تلاها سكون، ثم علا الصوت «يا مجاهد وحّد الدايم»، ذكّرني بالمسحر في شهر رمضان. اشتد الصوت «قم يا مجاهد، اليوم يومك»، تكرر عدة مرات، اعتقدت أنه دعوة لصلاة الفجر، لكن ما زال ليل، الفجر لم يطلع بعد. أو أنه نداء يستحث أحد المجاهدين ليستيقظ من نومه، لا بد أنه صحا الآن، كي يستعد للانطلاق إلى عمليته الانتحارية. بعد قليل سمعت أذان الفجر، اعتقدت قبل أن أغط ثانية في النوم، أنني تخيلت سماع النداء الذي سبقه.

أيقظني بعد ساعات أبو معاذ، شاب سوري قادم من قرية تقع في ريف مدينة حلب، كان كثير الحركة دائم الابتسام، طيب القلب وأقرب إلى السذاجة، كان مكلفاً بمرافقتي، وتلبية طلباتي. فسرتها بأنني أصبحتُ مهمّته. بعد قليل تبينت أن لديه عاهة، أصابع يده

اليمنى منقبضة إلى كفه، كان أبو معاذ أكتع.

بدا هو الآخر متحفظاً تجاهي، غير مسموح له بالاسترسال في الحديث معي، لم يكن مكلفاً بمرافقتي فقط، وإنما بمراقبتي أيضاً، وإن قال لي إنه سيكون دليلي ويساعدني على التصرف، فيما لو ظهرت طائرة في الجو، أو آليات أميركية في المنطقة، وكنت واثقاً أنني أنا الذي سأساعده على التصرف.

ذكرني صوت أبو معاذ بنداء الجهاد قبل الفجر، سألته هل كنت أنت؟

أطلق أبو معاذ نداءه وهو في طريقه إلى المجاهد، لكي يوقظه، لكن الاستشهادي كان صاحياً يقرأ سورة الفتح، بقي معه ثم رافقه بالسيارة إلى مشارف القرية، وتابعه حتى غاب عن عينيه. لم أسأله المزيد.

سامر لم يأت. ظننت أنه يتفاداني. سألته عنه، فقال لي إن جماعة من المجاهدين المتطوعين وصلوا البارحة في ساعة متأخرة من الليل، سهروا إلى الصباح، صلّوا الفجر معاً، ودَّعوا المجاهد، ثم ناموا واستيقظوا قبل قليل، وهم الآن معه في المضافة.

قضيت الوقت أتجول في أنحاء الموقع، الأكتع يسير على مقربة مني. البيوت المتباعدة لا توحي بشيء مختلف أو غير عادي، تبدو امتداداً للقرية المجاورة، وتتشارك معها بساحة واسعة تصل بينهما، تضم مستوصفاً ومدرسة ومسجداً ودكاكين بعضها مغلق. كان الموقع الذي يحتلّه المجاهدون أشبه بمزرعة واسعة الأرجاء بلا أسوار تنبسط على مساحة كبيرة نسبياً، تتوزع داخلها بيوت

من حجر وبيوت من طين بعضها متلاصق، ثمة بناء من طابقين بعيد قليلاً، تحفّ به الأشجار والمزروعات المتنوعة من الخضار، وإلى الجوار مطحنة قديمة. في الخلف تمتد حقول الذرة وبساتين النخيل الكثيفة، ثم تلّ لا يزيد عن مرتفع من الصخور، يشكل بكهوفه وتعرجاته وانحداراته مأوى صالحاً للاختباء فيه.

جلست مع أبي معاذ على ضفة الجدول تظللنا سعف النخيل، الأرانب تتسارع راكضة بمرمى أبصارنا وتختبئ بين أجمات الأعشاب، وصوت المضخة يأتينا من بعيد.

عندما عرف أنني والد عبد الله السوري انفرجت أساريره وانطلق لسانه.

وصل الأكتع إلى الموقع منذ ثلاثة أشهر، بعد أن باع دكانه الصغير في الضيعة ليؤمّن نفقات وصوله إلى العراق، عائلته ستساعد زوجته وابنه الرضيع، لم يترك لهما سوى القليل؛ الله لا ينسى أحداً. بمجرد وصوله سجل نفسه في قائمة الاستشهاديين، وحتى الآن لم يُدع للقيام بعملية، وضعوه في الاحتياط، جاء بعده كثيرون، كلفوا بعمليات ونفذوها وهو ما يزال ينتظر دوره. كان متشوقاً للقيام بأية عملية، بعد أن تدرب عدة مرات على ارتداء الحزام الناسف وتفجيره، لكنهم كما قالوا يلزمه المزيد من التدريب. الأوان لم يحلّ بعد. كان خائفاً أن يموت بقصف عشوائي أو بشظية طائشة.

الواضح أنهم لم يطمئنوا لحسن أدائه؛ ذكاؤه لا يجاري حماسته. اعتقدَ أن يده هي المانع، وإن كانت أحد دوافع جهاده، على الأقل يتخلص منها، كان توقه لنيل الشهادة هو الغالب. تباهى بأنه

لم يزْنِ أو يسرق، أو يؤذِ أحداً طوال حياته. كان يحلم بلقاء وجه ربه طاهراً، كما ولدته أمه، دون أن يرتكب معصية.

تعجب من عدم سعيي إلى الشهادة؛ بعد أن سهَّل لي الله الدخول إلى العراق، وأوصلني إلى من يزودني بما يلزم من معدات للجهاد.

«ما دام ابنك عبد الله هو المسؤول، فسوف يستثنيك من الدور، كيف تتهاون؟!».

قلت له لن أمكث طويلاً، جئت لأطمئن إليه. فاستغرب: كيف تعود، وقد أصبحت على مسافة كبسة زر من الجنة التي وعد الله المؤمنين بها. ألم ينصحك ابنك بهذه النعمة، وهو الأدرى بالجنة وما فيها؟! يعرفها عن ظهر قلب، أكرمه الله برؤيتها في أحلامه، كأنه عاش فيها زمناً وجاء ليخبرنا عنها.

قطع حديثنا صبي جاءنا راكضاً، حان موعد الغداء، فقفلنا راجعين إلى المضافة، ألقيت السلام وقعدت. المضافة واسعة، يأتيها النور من شبابيكها الثمانية، مطلّة على أشجار يابسة أوراقها صفراء. الجميع جالسون فوق البسط الممدودة على الأرض، وأسندوا ظهورهم إلى الحائط، الهواء الساخن يهب موجة إثر موجة، والحر نشر سديمه الخانق. لم يكن الطعام قد حضر بعد، سامر وإلى جواره المتطوعون الخمسة الجدد، تونسي ومغربي وجزائري وسعوديان شقيقان، انضم إليهم بعد دخولي بقليل متطوع عراقي شاب في حوالي العشرين من عمره، وصل لتوه، لُقب بأبي عباده. أخذ رجل من رجال الموقع يسجل أرقام هواتفهم في بلدانهم لإبلاغ أهاليهم عن وصولهم إلى العراق، وفيما بعد عن وفاتهم، عبّر عنها الرجل بارتفاعهم إلى الجنة. في حين أخذ ثلاثة صبية

يقومون على خدمتنا، ويجهزون الصحون لتناول الطعام. أبو عباده الوحيد الذي لا رقم هاتف بحوزته، إذ لم يبق لديه أهل في بغداد.

الشاب التونسي أبو حذيفة كان أكثرهم تحمساً لوجوده في العراق، لم يخف فرحه، هرب من بلده قبل أن يقبضوا عليه، كان سيحكم عليه بعقوبة حبس لا تقل مدتها عن ثلاث سنوات، لاشتباههم بعلاقته بشبكة تساعد على تسفير المجاهدين. فاضطر للاختفاء عن الأنظار. أخوه سبقه قبل شهرين إلى العراق واستشهد في معركة الرمادي.

لا يزيد عمر أبو حذيفة على ثلاثين سنة، يمتلك سيارة نقليات صغيرة، تنازل عنها لأخيه الأصغر المتزوج حديثاً، ليعيل أسرتيهما. أب لثلاث بنات وامرأته كانت حاملاً، تلقى بشرى ولادة حذيفة قبل قدومه إلى العراق.

«والله لم تكن فرحتي بحذيفة إلا شداً لأزري على السفر».

أما الجزائري أبو الأيهم، فكان على خلاف مع سامر حول العملية الاستشهادية، جنسيته فرنسية، ولد في باريس، لم يكمل تعليمه، عاد إلى الجزائر وانضمّ إلى المقاتلين، تلقى تدريبات على استخدام الأسلحة وصنع المتفجرات وحرب العصابات. قال إنه سيبايع سامر على القتال.

حاول زملاؤه إقناعه بأن العمليات الاستشهادية تعطي نتائج أكبر، شخص واحد يحقق وحده عشرات الإصابات ما بين قتيل وجريح، عدا الذعر والهلع الذي تبثه في قلوب العملاء والكفار،

ولا يقبض على المجاهد أو يتعرض للتعذيب، بينما الاشتباك يكلف رجالاً أكثر، ولا يحقق إصابات مضمونة. المغربي والسعوديان بايعا أمير الجماعة في بيروت على الشهادة، واشترط الشقيقان السعوديان تنفيذ عمليتهما في يوم واحد.

لم يتدخل سامر في الحديث كثيراً، كان يراقب عن كثب. عندما أصبح الطعام جاهزاً، قطع حديثهم، ربت على كتف الجزائري أبو الأيهم قائلاً:

«الخيرة فيما اختاره الله».

وبدأنا بتناول الطعام. ومثلما لم يشارك أبو عباده بالحديث لم يشارك بالطعام، ادّعى بأنه أكل خلال طريقه إلينا، وبقي مطرقاً برأسه أرضاً.

٩

قبل أن ننتهي من تناول الطعام، دخل شاب مسلح هرع نحو سامر، انحنى عليه وهمس في أذنه، فاشرأب برأسه وبشّرنا:

«الحمد لله، كان يوماً مباركاً».

تبلغ للتو أخباراً عن تنفيذ خمس عمليات استشهادية، ثلاث في بغداد، وواحدة في الحلة، وأخرى في الموصل، أسهمت إمارته بواحدة منها. كانت مناسبة عظيمة ليأتي على ذكر مناقب الشهداء وشجاعتهم، كان يعرف ثلاثة منهم. العملية الأولى تفجير استشهادي لنفسه في سيارة مفخخة عند حاجز وزارة الداخلية رداً على اغتيال اثنين من رجال القاعدة بإطلاق الرصاص عليهما وهما مغلولا الأيدي ومعصوبا الأعين في أقبية الوزارة. والثانية نفذها أخ مات أخوه تحت التعذيب في سجن أبو غريب منذ شهر ونصف. والثلاثة الباقية رداً على تعاون الشيعة مع الأميركان؛ نفذت أمام

مركز للشرطة، وفي مقهى يرتاده العملاء، والأخيرة في محطة للباصات؛ العمليات كلها كانت جهاداً لوجه الله.

طفرت دمعة من عين سامر، سالت على خده. البارحة كتبوا وصاياهم الأخيرة، وكانوا في منتهى السعادة، وسألوا الله أن يتم نعمته عليهم، بقتل أكبر عدد من الكفار والعملاء، وأن يرزقهم الجنة جزاء عملهم.

لم يؤثر فيّ منظره. اعتقدت أن الموقف يملي عليه المبالغة في الرثاء، لكن مع استرساله فيه وحرارة كلماته وسيلان دموعه، لم يخف عليّ تأثره الشديد، كان طفلي الذي أعرفه، طفلي عندما يحس بالفقدان والخسارة، لكن ماذا كان ذلك الفقدان أو تلك الخسارة؟! قطاره الذي تحطم وكان في الخامسة من عمره، فملأ البيت عويلاً، أم نجاحه بالشهادة الثانوية بمجموع متدنٍّ، فأجهش بالبكاء، أو حبيبته التي هجرته ولم يكن قد دخل الجامعة، وفيما بعد حبيبته التي هجرها، لأنها لم تعد تلبي طموحاته في حياة غيرت وجهتها. والآن، بعدما تمشيخ وتدين وتفقه وتسلح، يذرف الدمع على من انتحروا، وقد استأثر به حزن بات وقوداً للمزيد من التصميم.

مشاعر كان يعاني منها، ويحاول ألا يظهرها، لكنها تغلبت عليه. لم يعد معنا، كان على اتصال بهم؛ يودعهم بقلب مكلوم، وبكلمات ملؤها الأسى والإكبار، لسانه يحسدهم على سبقهم له. يمسح عبراته مستعيداً مواقفهم الصادقة وينعاهم إلى جنان الخلد. كانت لحى الجالسين من حوله مبللة بالدموع، وقد اكفهرت ملامحهم، ثم أشرقت وهو يدعو للمجاهدين بنوال نعيم الجنة. أما

أبو عباده فقد بقي مطرقاً برأسه، والدموع تقطر من ذقنه.

قبل أن نعاود الحديث، فاجأتنا النشرة الإخبارية بزعيق سيارات الإسعاف، وألقت علينا الصمت، خيمت سكينة شابها التوتر؛ التلفزيون ينقل صوراً عما تخلف عن انفجار السيارة المفخخة في المحطة... الباص المنقلب على جانبه، وقد خرجت من نوافذه الأيدي وتهدلت الرؤوس. جدران الإسمنت المتهاوية، بعضها تحول إلى غبار. واجهات المحلات والمنازل مهشمة، الأكشاك الخشبية محترقة، ما يزيد على عشر جثث تناثرت بينها حبات البندورة والباذنجان والخيار والتمر المتدحرجة على الأرض؛ الكاميرا تلتقط بعض المناظر من وسط الحريق والدخان: امرأة تلطم وجهها وإلى جوارها ولد صغير شعره منكوش وثيابه ممزقة، جرحى يزحفون، يصرخون من الألم ويستغيثون، رجال يغطون الجثث بأغطية بيضاء، برك الدماء اختلط فيها الزيت والشحم بالأوساخ، أحذية رجالية ونسائية مبعثرة، شاب يفتش بين الضحايا، بعض الأشلاء أوصلها الانفجار إلى أعالي الأشجار وشرفات طوابق الأبنية المجاورة، رجال ونساء يحملون أطفالاً ويهرعون بهم إلى السيارات لنقلهم إلى المستشفى، رجال الشرطة يتحدثون في الهواتف النقالة، طائرة هليوكوبتر تدور فوق الساحة وتكاد أن تلامس أسطحة الأبنية...

المذيع يقول إن المحطة في هذا الوقت من النهار تزدحم عادة بالعمال وباعة الخضار والألبسة المستعملة وحلاقي الأرصفة وصباغي الأحذية.

الكاميرا تقترب من السيارة المفخخة المنقلبة على قفاها ودواليبها

إلى الأعلى، واستحالت حطاماً، لا شيء في داخلها، سوى ما تبقى من جثة الاستشهادي، متفحمة ومعجونة بالحديد الأسود. هتف سامر:

«رحم الله أبا صالح، وجعل مثواه الجنة».

اختنقت صرخة في حلقي كادت أن تفلت مني، كان هو الشاب الجزائري الذي انطلق صباح اليوم من الموقع ورافقه الأكتع حتى غاب عن عينيه. استعدت بلحظة أريحيته وبساطة تصرفاته عندما سكب لي الطعام، وناداني يا عم، بلهجته الجزائرية الخجولة. حدقت إلى الشاشة، أبحث عما بقي منه؛ تخيلت شيئاً لمع، وكأنه تلك السن الذهبية التي كانت تتلامح من خلال ابتسامته العريضة، لكن وسط هذا الدخان والذهول والموت والجنون، لا أثر لسماحة وجهه والصفاء في عينيه، وذلك النقاء البسيط في تواضعه. كأن خديعة الإيمان تقود إلى العماء، وخديعة الشهادة إلى التهلكة، وخديعة الله إلى هذا الكم العظيم من الأذى!!

تلفتُّ حواليَّ، كأن جولة الشجاعة والشهادة فارقت المجاهدين المتطوعين.

حدقت إلى سامر، فالتقت نظراتنا خلسة، كأنني ضبطته، أدار وجهه عني. ما الذي يجول في رأسه وما كنه مشاعره؟ رأينا المنظر نفسه، هل خطر له ما خطر لي؟ أعرف أنه أحس بما أحسست به، لكن على نحو آخر، ليس بوسعي تصوره.

الأمر لم يكن متعلقاً بي، وإنما بمعنويات الاستشهاديين التي اهتزت، وكان لا بد من أن يبادر إلى شيء ما. تسلل صوته من

خلال الصمت كسيراً، محتقناً بالبهجة، ومتسائلاً:

أين شهداؤنا الآن؟

كان السؤال موجهاً إليهم، يحمل نبرة ملامة لا تخطئها الأذن، وعلى ملامحه استهانة لا تخطئها العين. كان السؤال الذي بقي معلقاً، إصبع اتهام، أجاب عنه، وقد التفت نحوي ونظر إليَّ بتحد:

لقد ظفروا بما سعوا إليه، ونالوا ما تمنوه، وهبهم الخالق حياتهم فوهبوه موتهم، هل هناك أكرم وأجلُّ من هذا الموت؟ موت فيه حياة للإسلام والمسلمين، باركهم الله وأسعدهم. كل منهم الآن في غرفة من غرف الجنة.

ثم عقَّب متعجباً بصوت عال، أيقظهم مما تداعت إليه فوضى خواطرهم:

وما أدراكم ما الجنة؟!!

جنة ترابها زعفران وطينها مسك، وجدرانها لَبِنة من فضة ولبنة من ذهب، خالدون فيها أبداً، شهداؤنا عباد مكرمون فيها، وجوههم مشرقة بنضرة النعيم، لا يرهقهم قتر ولا ذلة، لا يخافون ولا يحزنون، ومن الموت آمنون، ينعمون ويأكلون من أطعمتها، ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً. أنهار أرضها من فضة وحصباؤها مرجان، على منابر من ياقوت أحمر في خيام من لؤلؤ رطب أبيض، على الأرائك متكئون، يحف بهم الغلمان والولدان، يطوفون عليهم بأباريق من معين بيضاء لذة للشاربين، وأكواب من

فضة مرصعة بالدر، فيها الرحيق المختوم الممزوج بالسلسبيل العذب، يشرق نورها من صفائها، يبدو الشراب من ورائها برقته وحمرته.

شهداؤنا الآن في شغل فاكهون، يجالسون الحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، عليهن من طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه الأبصار، مكللات بالتيجان؛ غنجات عطرات، آمنات من الهرم والبؤس.

فيا عجباً من دار هذه بعض صفاتها، هل يطيب لنا العيش من دون السعي إليها؟ والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من المصائب والجوع والعطش، لكان جديراً بأن نهجر من أجلها دنيا مصيرها الخراب. كيف وأهلها في كل يوم بفناء العرش يحضرون إلى وجه الله الكريم ينظرون، وينالون بالنظر ما لا يضاهيه سائر نعيم الجنان. وهم على الدوام بين هذه النعم يتمرغون ومن زوالها آمنون.

لم أشاركهم في التخيل. كان قد نجح، وبث فيهم روح الشجاعة والشهادة معاً، لحظات الصمت تجيش بالحماسة. هللوا مكبرين، ووجدوا تعبيراً عما امتلأت به قلوبهم من تضحية، بصوت أشبه بالدمدمة صدر عن الشقيقين السعوديين، وإذ ارتفع كان قوياً:

ضع في يدي القيد ألهب أضلعي بالسوط
ضع عنقي على السكين

سرعان ما انضم إليهما البقية:

لن تستطيع حصار فكري أو نزع إيماني ونور يقيني
فالنور في قلبي، وقلبي في يدي

ربي... ربي وناصري ومعيني سأعيش معتصماً بحبل عقيدتي
وأموت مبتسماً ليحيا ديني

نظرت إلى سامر بخشية، لم يكن ابني، كان الآخر، الأمير عبد الله السوري، داعية الانتحار، هذا الشاب أجهله، غريب عني، غريب عن نفسه، لا شيء يجمعني به سوى رابطة الدم الفاسد. كنت كمن فقده ثانية، وفقدت معه الأمل. ينتمي إلى عالم أنا ضده، يبيع أحلام القصور والحور العين، مقابل الأجساد والأرواح، ووهم عالم جميل ومجهول، هو الفناء ليس غير.

نهضت دونما كلمة، وخرجت.

١٠

أرسل لي سامر الشاب الأكتع، والتمس مني الحضور، لم يكن بودّي رؤيته. كان الوقت مساء، الحر شديد مع نسبة رطوبة عالية. أرسلت إليه أنني سأنام مبكراً. زعل الأكتع وألح، طلب منه عبد الله السوري ألا يعود من دوني. فاضطررت إلى الذهاب. عندما رآني قادماً، انفصل عن الجماعة الملتفة حوله، تمشينا معاً في العتمة نحو الأحراش وتوغلنا فيها.

لم أرد سماع شيء منه، لم يعد هناك ما يبرر لي المحاولة معه. كنت أرغب في التنفيس عن شعوري بالاختناق، أن أتكلم أنا لا أن يتكلم هو، أن أسمع صوتي لا أن أسمع صوته، أن أشكو دون مجيب، وأتخفف مما يعج في داخلي من مرارة وخيبات... وتمنيات ذهبت هباء.

«جئت إلى بغداد لأعود بك إلى دمشق، يُلح عليَّ شعور راسخ،

أنني أخطأت حيالك. آلمني أنني أهملتك سنوات، كان ينبغي خلالها أن أكون مرشدك في الحياة. أردت إصلاح ما اقترفته بحقك، ولو على حساب حياتي، اعتبرت ما سأقوم به أفضل تكفير عن تجاهلي لمسؤوليتي تجاهك، وهذا ما أقنعني بصواب ما أقدمت عليه، وإن كان لا يبرئني. اليوم رأيت منك ما جعلني أتيقن أن لا سبيل لاستدراك ما أفسدته، أوصلتني إلى يأس ما بعده يأس، ألا تواسيني بكلمة تجعلني آمل، أو أحس مجرد إحساس، أنه ما زال لدي رجاء، ولو كان ضئيلاً؟ قل لي، هل تستطيع؟».

«فات الأوان».

«أعرف، لقد بلغتَ مبلغاً يشق عليَّ ردك عنه».

حاول أن يقاطعني، منعت نفسي من الصراخ، من شدة لا مبالاته بمشاعري، وتابعت غاضباً، وقد تحشرج صوتي في حلقي:

«ما تفعله هو الجريمة بعينها، ماذا تكون هذه التمثيلية، تمثيلية الجنة؟! من ذهب ورآها، ثم عاد ليصفها بهذه الدقة؟ هذه الكذبة تعادل القتل العمد».

«هؤلاء تركوا الأهل والزوجة والولد، الوطن والعمل والأصدقاء وجاءوا من أماكن بعيدة ليضحوا بأنفسهم. هل تعتقد أنه لا تأتي عليهم أوقات يخافون فيها، ويصيبهم الذعر من هول ما هم مقدمون عليه، دون التجرؤ على التراجع، هل أدعهم لمخاوفهم، أم أثبت قلوبهم، وأشد عزيمتهم، وأقوّي إيمانهم بما ينتظرهم من ثواب، أليس جزاؤهم الجنة؟! هؤلاء هم شراتها، أما أوصافها، فلن نختلف عليها، هي النعيم، تصور النعيم كيفما تشاء».

«ما أدراك وأدراهم بما ينتظرهم؟».

«القرآن، كتاب الله، هذا ما أدراني وأدراهم».

«أليست هناك آية في القرآن تحثك على طاعة الوالدين؟».

«لماذا؟».

«أريدك أن تعود معي».

«متى قرع نفير الجهاد، فلا إذن لوالد على ولده... ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. لن أطيعك وأعصي ربي».

«لكنك تعصي الخالق وتطيع الشيطان، تحض المجاهدين على ارتكاب كبيرتين، قتل الغير وقتل النفس. لا شريعة تجيز القتل. ما أعرفه أن القرآن كتاب سلام لا كتاب حرب، كتاب رحمة ومودة لا كتاب عنف وتعصب، انظر إليه على هذا النحو، وسوف تستعيد روح الدين الحقيقية».

«لماذا لا تلتفت إلى روح هذا العالم؟! نحن نقتلهم كما يقتلوننا».

«ماذا عن البشر الذين تقتلونهم غيلة؟ مدنيون أبرياء، شيوخ ونساء وأطفال، غالباً لا يُقتل غيرهم».

«حفظ الدين مقدم على حفظ النفس».

«بوسعك حفظ النفس والدين معاً».

«الواجب شرعاً مقاتلة العدو بغض النظر عن سقوط قتلى أبرياء أو

غير أبرياء، بذنب أو بغير ذنب؛ دون مسؤولية علينا أو حرج، كانوا في المكان الخطأ، وربما المكان الصحيح، من يعرف؟! نحن جميعاً بين ألطاف الله وهو يتولانا بعنايته، حسابنا وحسابهم عنده، العميل إلى جهنم، والشهيد إلى الجنة».

لم يحجب الليل ملامحه عني، وربما كنت أتخيل التقاطيع غير الصارمة لوجهه الذي كنت أعرفه وصرت أجهله. عيناه تخترقان العتمة، تنظران إلى شيء ما لا أراه، فشعرت بالرهبة لمجرد الإحساس بأنه صمَّ أذنيه عني. صوتي يرتجف، فيما كان صوته يتهادى بعمق، واثقاً وقاطعاً. لا شيء يزحزحه عما يؤمن به. جاء دوري كي أحس بالفقدان، كان ابني، وأُخذ مني، وأصبح بعيداً عني، يعاندني ويقاومني في آن واحد، أمسى ضدي، ما الذي يفعله توسلي إزاء عناده؟ قلت ساخراً من نفسي:

«قطعتُ مسافة طويلة كي أثنيك عن طريقك هذا».

«لقد حذرتك وطلبت منك العودة».

أثار تأكيده في داخلي شيئاً غامضاً، تراءى لي أنه حدث فعلاً، ألم أتلقَّ تحذيراً بعدم البقاء عندما كنت أتمشى مع فاضل في شارع الرشيد؟

«أنت الذي أرسلت الرجل الذي اصطدم بي في زحام الشارع».

«ومن يكون غيري؟! عرفت بوجودك عندما عُرضت علينا صورتك، فأردتك أن ترحل بأقصى سرعة، لكي أوفر عليك وعليّ هذا النقاش».

«لماذا أنقذتني إذن؟».

«توقعت من إصرارك على البقاء أنك جئت لتؤيدني وتفخر بي، وربما تشاركني في ما أنا ماض فيه».

«خلتك ستقول لأنك أبي، لا أرثي لك بل أرثي لنفسي».

«إذاً ابحث عن عزاء آخر، وليكن عظيماً».

«ما الذي يعزيني عنك؟».

«لا تكمل، حتى لا أخسرك».

«من يعوضني عنك؟».

«لو كنتَ مؤمناً لأدركت أية نعمة ظفرتُ أنا بها، ولما احتجت أنت إلى أي تعويض، ولامتلأت نفسك بالغبطة، غبطة لا شيء يفوقها، أو يعادلها. لكن ما أبعدك عنها، أنت لا تعرف طمأنينة الإيمان».

«ماذا عني أنا أباك؟».

«لا تهددني بأبوّتك، أنت ترتع في جهلك».

«لئلا تتفاءل، هذا عالم بلا إله، والأغلب أننا سنذهب إلى حيث لا حساب ولا جزاء، فلا تخدع نفسك ولا الآخرين».

«سأقولها لك، واسمعها مني: أنت ملحد».

«لا تكن واثقاً، أنا نفسي لا أدري ما في قلبي، سأطلعك على سري، الذي أقلقني وحيرني، وأردت أن أخفيه حتى عن نفسي، ظننت أنني تخلصت من الإيمان منذ آمنت بالعقل، لكنني عندما اختُطفت، استعدته تحت تأثير الرعب. آمنت بالرغم مني!! لم تكن تجربة خوف فقط، كانت تجربة معرفة مروعة، أخشى أن أبالغ، أو أخطئ في تفسيرها، هل كان ذلك الإيمان الذي نخفيه مكابرة عن أنفسنا، ونجهل أنه ما زال يسكن في أعماقنا، ظهر في ذاك الموقف؟ لست متيقناً، لا أريد استعادة ما جرى ولا تذكره، لئلا ينكشف ويدمر شيئاً أنا حريص على الحفاظ عليه، أريد التفكير به فيما بعد، وليس تحت ظروف قاسية لم تفارقني وطأتها بعد. لا أريد أن أعرف، لكنه حدث».

برقت عينا سامر في الظلام، وهلل فرحاً:

«أبي، لا تنكر ما حصل لك».

«أنا لا أنكره، بل ويخطر لي الآن شيء، لن أتردد في قوله....».

في تلك اللحظات، كنت متأكداً من أن الفرصة تهيأت لي، فرصة لم أدر إن كانت حقيقية أم مختلقة، لم أوفرها، سارعت إلى استغلالها.

«ماذا لو كانت تلك التجربة من فعل الله، تجربة لم أكن أنا المقصود بها. وإنما أنت!! ماذا لو كانت رسالة منه إليك، حمّلني إياها في دمشق، ووفر لي السبل للقيام بها؟ خاطرت بقطع مسافات لولاه لما تمكنت من اجتيازها، متخطياً العقبات والمصاعب والحواجز والحدود، وها أنا نجوت من القتل. أليس

كي أبلغك إياها لترتد عما أنت فيه؟ وضعها الله على لساني لأقولها لك أنت الذي تحيط نفسك بعشرات التفسيرات التي تبرر الانتحار والقتل والدماء والضحايا، وتحجب عنك الله العادل الرحيم».

«كان الله أرسل غيرك. وإذا كان أرسلك، فلكي يدلك على الصراط المستقيم، أنا لم أخطئ طريقي إلى النور».

رفعت يدي وأشرت إلى الفضاء:

«هل هذا هو النور؟».

كانت العتمة سابغة. تابعتُ مجيباً:

«تحت هذا الادعاء، تستغل هؤلاء المساكين، وتحولهم إلى انتحاريين قتلة».

«هذا خيار المؤمن المجاهد».

«أنت ترسلهم إلى الموت، ألا ترى؟!».

«أنا الذي أرى».

«أنت في ظلام دامس».

١١

في الظلام الدامس تابعنا المشي بين الأشجار. أمسكَ بيدي كي لا أتعثر، أنا الذي كان عليه أن يمسك بيده كي لا يضيع. قادني إلى البيت الذي يسكنه، تميزت مدخله من الضوء الناصل المتخايل من نافذته الصغيرة. نقر على الباب عدة نقرات، فظهرت صبية نحيلة لا تتجاوز العشرين من عمرها، وجه أسمر مدور، بدا في الظلمة الخفيفة ضارباً إلى الصفرة، وعينان واسعتان وباهتتان رغم سوادهما الغامق، وخدود غائرة، على رأسها غطاء أبيض. حدجتني بعين كسيرة وتراجعت إلى الخلف.

أدخلني سامر إلى غرفة أثاثها قليل، وجدرانها عارية. الإضاءة ضعيفة، النور يأتي من شمعة صغيرة بجوار القرآن الكريم الموضوع فوق مسند خشبي، ثم طاولة إلى جانب الحائط يعلوها كومبيوتر وتلفزيون. كان يستعمل الكهرباء لتشغيلهما فقط، أما الإضاءة فبالفانوس أو الشمع. على الأرض مُدَّ بساط ملون، افترشناه واتكأنا

على حشايا القش. نادى الصبية وطلب منها إعداد إبريق من الشاي.

«اسمها هند».

لم أسأله عنها، أو عن سبب وجودها معه في مكان إقامته. قال إنها أمانة في عنقه. فاعتقدت أن لديها قصة من تلك القصص المؤسفة والكثيرة عن فتيات فقدن عائلاتهن بقصف أميركي عشوائي، أو بتصفيات طائفية، أودى بهن حظهن العاثر إلى احتراف البغاء في أسواق دمشق وعمان والخليج، أو صادفهن الحظ ووجدن من آواهن لديه.

«كانت الناجية الوحيدة، بعد أن فقدت عائلتها بالكامل».

حزري لم يكن في محله. حكايتها تختلف عن حكاية مثيلاتها اليائسات المنكوبات، هذه اغتصبها ضابط وجنديان من المارينز مفخرة الجيش الأميركي، ثم مرروها لأصدقاء لهم في الشرطة العراقية العميلة. فذهب بها طلب الانتقام إلى الانتظام في سلك الانتحاريات.

«أُرسلت إليَّ كي أؤهلها لعملية استشهادية، فأردت التأكد من سلامة دينها، وأن تكون رغبتها في الاستشهاد لله وحده، لا دفعاً للعار. وجدتها حاملاً، فأشفقت عليها، تحملت الكثير من التنكيل، احتجزت شهرين في أقبية سرية، ثمة وقت كي تتخذ قرارها وحدها، تزوجتها لئلا تحس أن ما أصابها يشينها. أما الجنين فسوف يخلصها منه طبيبنا في الموقع».

نظرت إليه مستغرباً، ولم أجد نفسي إلا وأنا أستشهد بالقرآن:

«ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق».

«إنه أسوأ من ابن الزنا».

وكأن الاتهام كان موجهاً إليَّ. فأردت أن أزعجه وأواجهه بقسوة وبرود:

«لا بد أن تعرف شيئاً، ارتكب أبوك خطيئة الزنى، علمت وأنا في بغداد أن خطيئتي أثمرت جنيناً، فتنبه قبل أن تصدر حكمك، أن لك أخاً ابن زنى».

«اقتله».

«قبل مغادرتي المنطقة الخضراء، أرسلت رسالة أوصيت بالجنين خيراً، لن أحرمه من الحياة».

«ما نجم عن فاسد فهو فاسد».

«سوف نختلف على تعريف الفاسد».

«أنت تعيش في الخطيئة، واختلط عليك الحلال والحرام».

«نحن لا نهب الحياة، فلا نعاكسها».

ابتسم باستهانة، لم يرغب في مناقشتي، تابع كأنه لم يحصل بيننا جدال:

«الفاعلون كانوا يعرفون أن أهل هند قتلوا جميعاً، وأقرباءها البعيدين تركوا المنطقة وفروا هاربين، فلم يأبهوا لما جنته أيديهم، العراقيون لم ينجوا بفعلتهم، استطعنا الوصول إليهم، وقتلناهم عن بكرة أبيهم، فجرنا المخفر بمن فيه. أما الأميركان فسوف ننال منهم أنفسهم أو من غيرهم».

جاءت هند بالشاي وجلست صامتة، قال لها سامر، هذا أبي. رفعت نظرها إليّ خائفة، جسدها يرتجف، أرخت بصرها، صدرها يعلو ويهبط. دموعها تسيل بصمت على خديها، كانت تمنع نفسها من الصراخ. أخذتها بين ذراعيّ واحتضنتها، فأمسكت بيدي، قبّلتها ووضعتها على خدها، ولم تتركها، أرخت رأسها على كتفي، لم أسمع سوى صوت تنفسها، بعد حين، علا صوت نشيجها؛ الأم الصغيرة اليتيمة لم تشبع بعد حزناً ولطماً.

تسللت نسمة حارة من النافذة الصغيرة، فاهتز بصيص الشمعة، وسقط خيالها على القرآن الكريم، وتلوى مرتعشاً فوق غلافه المذهب. هبت رائحة بخور زكية عبقت في الغرفة. صبّت هند الشاي، لم يتناوله أحد منا. حاولت أن أطيب خاطرها، لكنني لم أفعل، بماذا أواسيها، هل بغير تلك الكلمات الغبية؟ وفرتها عليها وعلى نفسي.

وقفت وودعت هند، توجهت نحو الباب، رغبتي المضي وحيداً، مثقلاً بألم جامح. لم أحس من قبل بمثل هذه النقمة على الأميركان، ما سيتركونه وراءهم من مآس، أكثر من قدرتنا على علاجها.

لحق بي سامر، واستوقفني في الخارج، لم ينظر إليّ، قال لي:

«لا بد من رحيلك قبل نهاية الأسبوع».

«هل من خطر؟».

«الأفضل ألا تبقى».

«أعلم، وجودي غير مرغوب فيه».

كان اليوم هو الاثنين، منحني مهلة ثلاثة أيام.

وارتدّ إلى البيت، وتركني في الظلام.

١٢

هذا الظلام، أخذني إلى ظلام أشد.

لم أحس بالعتمة، إنما روحي كانت مظلمة، كأنني في حلم ضعيف الإضاءة، وتراءى لي شديد الإظلام، على صفحته انسفح مشهد، تملكني وأخذني إلى عالم آخر، ما حدث في داخله لا يمكن توقعه، لكن في الأحلام يمكن توقع أي شيء، جمعني بسناء موقف ملتبس؛ شعور هائل بالحب نحوها أكثر مما يتسع له قلبي، وفي الوقت نفسه، أستعد لخوض صراع معها، كأنه لم يعد هناك سواها أصفّي حسابي معه، أتفرغ بعده للآخرين، كانت هي العقبة التي لا بد من إزاحتها كي لا أفكر بالعودة. لم يغب عني مأزقي؛ إذ كنت في مأزق فعلاً، روحي وجسدي بين يديها، وكان عليَّ انتزاعهما منها رغماً عنها.

قلت لها: لماذا الحب، ألم نعانِ منه؟

قالت، لكنه يستحق فرصة أخرى.

وقالت إنها لم ترفض عرض الرجل الذي طلب الزواج منها، من أجل الشعر كما قالت من قبل، بل من أجلي. ولو لم تكن الآن أسيرة حلم لما صرحت بهذه الحقيقة. اكتشفتُ أنها تحبني، في تلك اللحظة، اختارتني دون أن أدري، واختارت معي كل ما سوف يأتي، مصيرها ارتبط بمصيري مهما كانت العواقب.

وإذ صحوت، تخيلت، رغم أنني ما زلت نائماً، منظراً مثيراً، هجم عليَّ من ماض انطوى، وكان في منتهى العاطفية: شعرها منسدل على جسدها الوسنان، والنور الخافت يعكس على عريها المسترخي ظلالاً تتهادى حارة، تمنحني الإحساس بوجود واقع آخر لا تستبيحه الظنون ولا الآلام. كان خارج حساباتي، أهم بمفارقتها، تنهض من غفوتها وتضمني بين ذراعيها، أنفاسها في مسمعي، تخترق حاجزاً، كان كتيماً وشاهقاً، وبات شفافاً وهشاً. أتاح لي معرفة ليس الحب، وإنما الباطل؛ الحقيقة الوحيدة التي يرتع فيها في العالم.

كيف أتغلب على هذه الحقيقة؟!

تخيلت عندئذٍ أنني خرجت من الحلم، حاملاً معي حقائق الزمن والتاريخ والجنون والقتل والنسيان والغفران والخيانة والعنف والكراهية والحماقة... لم أهتم بها كلها، ما دامت الحقيقة باردة ومتحولة، ولا أمان لها، وقد تنقلب إلى ضدها، أو تتغير، وتتعدد أوجهها، أو فات أوانها... ارتحت إلى حالة احتوتني كانت:

الآتي لن يهمني، ما دامت سناء معي في قارب البقاء والفناء.

لم يستمر المشهد على الوتيرة نفسها، أخذ يتشوش، يتناهى إليَّ بين الآونة والأخرى هدير سيارات، أضواء تشعل وتطفأ على عجل، بدت كأنها هلوسات، لم أكن متأكداً، أسمع نداءات وخشخشات تأتي من بعيد، وربما من قريب، سرعان ما تغيب لتتجدد بعد قليل، شيء ما يحدث، ولا يني يعيد أصواته، اختلط بوساوس مشهد تهشم إلى أجزاء دقيقة تبعثرت وتشتتت، أتقلب بينها. كنت مصراً على عدم الرحيل، وأنا أعيد وأكرر، لم أنجز شيئاً بعد.

ومع هذا قضيت الليل وأنا على وشك المغادرة، لكن إلى أين؟

تجنبني الأكتع طوال النهار. اعتقدت أن سامر أعطى تعليماته للجميع بعدم الاقتراب مني، أو التبسط معي. ومع هذا ناديته وسألته عن مكان وجودهم. قال لي إنهم في المضافة. ثم سألته عن اسم المنطقة التي نحن فيها. قال، لا أعرف.

مررت بالمضافة، رأيت المتطوعين الستة في الغرفة الداخلية يتدربون على ارتداء الأحزمة الناسفة وطريقة تشغيلها. وقفت على مقربة منهم أراقبهم، ثم تابعت إلى الغرفة المجاورة، كانت فارغة.

تمشيت في الخارج، كان هناك درج وراء البيت، نزلت فيه، وجدت مستودعاً للمؤونة، في المقدمة أكياس طحين، وفي الخلف أسلحة وأدوات تفجير، وراجمات صواريخ، ومواد لصنع القنابل، وأجهزة توقيت ومعدّات توصيل، وأوراق تتضمن إرشادات عن كيفية صنع المتفجرات، مع كتيبات حول عذاب القبر والحور العين، وأكداس من الكتب المبسطة تُعلم الإسلام خلال بضعة أيام، لا يزيد الواحد منها على ثلاثين صفحة، تتناول أحكام

الوضوء والصلاة والطهارة، الزكاة والحج، الولاء والبراء، جاهلية العالم، الجهاد والشهادة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

عندما رجعت إليهم، كانوا قد أنهوا تدريباتهم، ودارت أحاديثهم حول أسلوب تجهيز السيارات وتفخيخها. انسحبت فلحق بي الشاب أبو عباده العراقي، كان مضطرباً. قال لي إن اسمه حازم:

«سمعت أن عبد الله السوري ابنك».

هززت برأسي.

«قال إنك ستغادر قريباً إلى سورية».

لم أكن راغباً في الحديث، شعوري بالنقمة عليهم دفعني للكلام معه. قلت له جئت للاطمئنان على ابني. لكنني لم أطمئن، وكما ترى، لا عمل لدي هنا. لا مفر من العودة.

لم أستطع التوقف عن الكلام، تابعت حانقاً: أنا لا أوافقه على ما يفعل، ويؤلمني ما تسعون إليه، وفّروا شبابكم للحياة، للعبادة، لأسركم، أليس لك أب، أم، إخوة...؟

تنبهت فجأة إلى أنني أتحدث بشيء لا يجوز الكلام عنه مع شاب مقدم على عملية استشهادية. ومع هذا تفاقم انزعاجي، وسألته غاضباً:

«ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

«أنا هارب من القتل».

وكأنها أحجية، ما دام أنه ذاهب إلى الموت فلماذا يهرب منه؟

لا، لم تكن أحجية، ما هو هارب منه قاده إليه!! والسبب أخوه، كان تابعاً لميليشيا أخذت على عاتقها تطهير أجزاء من منطقة الأعظمية من الأهالي الشيعة. أرسل إنذاراً لعائلة بإخلاء منزلها ومغادرة الحي، لكنهم لم يستجيبوا، أرسل إليهم إنذاراً ثانياً، فلم يرحلوا. اقتحم البيت مع رفاقه ليلاً وأطلق عليهم النار وأرداهم قتلى جميعاً، عدا ولد في السابعة من عمره، لم تكن إصابته مميتة، تعرف إليه. فاعتقلته دورية من فرق الموت، يلبس أفرادها ملابس الشرطة، رموا بجثته مشوهة بعد ساعات في الحي. وفي اليوم نفسه، أكملوا المهمة وقتلوا زوجته وولديه، هرب ما تبقى من العائلة إلى سورية، حازم اختار البقاء، رغم أنه أصبح مطلوباً من فرق الموت، عزم على الانتقام منهم لأخيه وعائلته. لم يكن لديه الفرصة ولا الإمكانية إلا بالتحاقه بإحدى المجموعات المقاتلة، بعد عدة تنقلات بين المناطق والأحياء، عثر على القاعدة، فأرسلوه إلى الموقع. الآن يحس بأن ما هو مطلوب منه غير قادر على الوفاء به. ويريد الالتحاق بعائلته.

فهمت أنه يرغب في مرافقتي بطريق العودة. سيتابع دراسته في جامعة دمشق، كان في الصف الثاني ـ كلية الاقتصاد.

أما العملية، فلن يقوم بها، لكنه خجلان من إعلان رغبته.

«هل تستطيع أن تقول هذا لعبد الله؟».

وعدته بإبلاغ سامر. أمسك بيدي وشدّ عليها:

«بصراحة لا أريد أن أموت».

«لن تموت، سنعود معاً».

افترقنا، وتقابلنا في وقت الغداء، تناولنا الطعام، ثم غادر الجميع المضافة، وبقيت أنا وسامر وحدنا. قلت له:

«أبو عباده يشعر بالخجل منك ومن الآخرين، لا يريد القيام بالعملية، يرغب في المغادرة إلى سورية، ومتابعة دراسته الجامعية، اقترحت عليه أن يعود معي».

التفت نحوي، لم يعترض، توقعت أن تظهر على ملامحه معالم الامتعاض، أو أن يثور ويتهمني بأنني شجعته على المغادرة. قال:

«هذا شأنه، وفّقه الله في اختياره».

بل وأظهر أن الخبر سَرَّه:

«سيؤنسك في طريق العودة».

١٣

الساعة تجاوزت منتصف الليل، كنت صاحياً أفكر، سمعت نقراً على الباب، نظرت من الشق الضيق، لم أر شيئاً، سمعت صوت حازم يطلب رؤيتي، فأدخلته. طلب مني ألا أشعل الضوء. جلسنا في العتمة. كان يرتعش، وصوته يتهدج، ثم أفلت لنفسه العنان، ما رآه لا يمكن تصديقه.

بعد صلاة العصر، دعاهم سامر إلى جولة في الجوار. ظن حازم أنها جولة للاطلاع على المجتمع الإسلامي الصغير في المنطقة. لم يذهبوا إلى القرية المجاورة، بل ركبوا سيارة واتجهوا صوب الأراضي الوعرة، نحو مناطق كانت خواء، لا بيوت لا بشر، سوى الحراس الملثمين على طول الطريق. بعد مسيرة نحو نصف ساعة من الزمن، نزلوا من السيارة، وأخذوا بالسير على الأقدام لمدة ربع ساعة.

توغلوا بين الصخور والأحجار كأنما دونما هدف.

«لم نكن ندري أننا ذاهبون إلى مجمع خلفي لعمليات القاعدة، ولجماعات أخرى غيرها، يجمعهم التعاون معاً، عندما تكون الأمور على ما يرام بينهم».

الشمس تتراجع مثقلة بروائح غريبة وواخزة، وكلما تقدموا تزايدت الرائحة وأصبحت زنخة وكريهة أكثر. كانت الرائحة صادرة عن أنفاق مهجورة ومقالع قديمة!!

الأنفاق المهجورة شبكات مجار ضخمة وواسعة، شيّدت قبل الاحتلال بسنوات، أوقف العمل فيها بسبب الحصار، جدرانها عالية، استولوا عليها وحولوها إلى سجون ومراكز اعتقال، وغرف للتحقيق تجري فيها عمليات التعذيب والاستنطاق، قبل أن يحال الموقوف إلى المحكمة الشرعية، غالباً يكون نصيبه الإعدام.

تقدموا فيها منتصبي القامة دون أن يضطروا إلى الانحناء، وهم يسمعون صرخات المعتقلين يتوسلون إلى سجانيهم، ويقسمون بأعظم الأيمان أنهم أبرياء من العمالة، الخيانة، الردة، التجسس، الكفر... أحياناً كثيرة تجري الإعدامات من دون محاكمة. تتم عادة بإطلاق الرصاص في الرأس من الخلف أو الصدغ أو بين العينين، وأحياناً قطع العنق بالسيف.

كانت العصابات تزودهم بهم باصطياد المسافرين على طريقي بغداد عمان، وبغداد دمشق. يُختطفون على الهوية، أو لمجرد أنهم من الشيعة. البارحة ليلاً اختطفت ثلاث عائلات شيعية من الطريق السريع، أنزلوا أحياء من حافلات كانت تقلهم إلى عمان، جاؤوا

بهم وأعدموا على الفور، بينهم أطفال لم تتجاوز أعمارهم خمس سنوات أو ست سنوات.

«كنا نمشي فوق الأشلاء والدماء».

داخل المقالع الجرداء مقبرة جماعية كبيرة، لا تدفن الجثث كلها، بعضها يجري تشويهه، ثم تُرحّل.

«الأرض تناثرت فوقها الأيدي والأرجل والأصابع والعيون والأمعاء».

كان المكان بسكونه المروع، يرسم بالأجساد المبتورة استعراضاً احتفالياً يمنح للحملات المظفرة بعداً وحشياً لامبالياً. إلى الجدران أسندت وعلقت الأدوات المستخدمة من سكاكين، وسيوف، ومجالخ، ومثاقب ومناشير كهربائية، ملطخة بالدم الأسود. تندر رؤية جسد متصل برأس، وإنما أجساد عارية تبدو وكأنها ذبحت للتو، لا يسترها سوى بقايا أسمال بالية وممزقة، رؤوس متدحرجة، مبعثرة في الأرجاء. مسلخ بشري... هذه لشرطي وأخرى لضابط أو جندي أو متطوع في الجيش، أو رجل دين استنكر أعمالهم، وأفتى بالمشاركة في الانتخابات، أو امرأة ارتكبت الفاحشة، عميل للأميركان، جاسوس، سائق، أستاذ جامعة، مترجم... بعدها يجري إرسال الجثث إلى مقاصدها لإحداث التأثير المرجو منها، تعلق على عمود، تشحط في شارع، ترمى في نهر دجلة، أو إلى مكبات القمامة.

«التشوية يمارس للترويع وبث الذعر في قلوب الكفرة المتعاملين مع الاحتلال. قال عبد الله السوري إنهم لا يفعلون سوى ما يفعله

أعداؤهم: التمثيل بالجثث مقابل التمثيل بالجثث، وحسب تدرجاته، الذبح بالذبح، نشر الأجساد بنشر الأجساد، قطع الرؤوس بقطع الرؤوس. أما الوجوه، فجدع الأنوف بجدع الأنوف، اقتلاع العيون باقتلاع العيون، ثقب الجماجم بثقب الجماجم... مضطرون إلى استعمال أساليبهم، التهاون يعني الضعف وعدم القدرة على الرد.

وكانت مناسبة كي يبشرهم أن أحداً لن يستطيع التمثيل بجثثهم، أجسادهم ستتلاشى في الأثير مع الانفجار، وأرواحهم الطاهرة ستصعد إلى مثواها السماوي.

«في يوم القيامة، فاخروا بما قمتم به، الله يقيم حروباً لا غرض منها إلا اصطفاء الشهداء؟».

معركة الإيمان والكفر دائرة، المؤمنون مدعوون إلى إثبات إيمانهم بعظيم قدرتهم على الفداء، هذا يومكم الموعود، وريثما يحدث اللقاء في يوم القيامة، حيث الحساب الأوحد، الحساب الذي لا حساب غيره، لا بد من الاستعداد له بجسد هو قنبلة، جسد حان أوان التضحية به، والانطلاق من دونه إلى الباري عزَّ وجلَّ.

«في الآخرة ستُسأل: ما الذي قمت به لنصرة الإسلام؟ ما الذي فعلته بجسدك، وديعة الله لديك، كيف تصرفت به؟ هل تركته يتمرغ في الملذات، أم كان سلاحاً أرهبت به أعداء الله؟».

ثم التفت نحو أبي عباده وخصه بنظرة استحسان وربت على كتفه.

«في تلك اللحظة، والدم يغلي في عروقي، لو قال لي اذهب إلى حتفك، صدقني لما ترددت ثانية واحدة، وتنفيذ ما يطلبه مني دون مناقشة أو تفكير».

لم يعد هناك ما يمنعه من اقتراف أي عمل يُطلب منه؛ كان للموت معنى مؤثر، في حياة ليست إلا ممر عبور مفضٍ إلى الآخرة.

«طريقي الوحيد بات صوب السماء».

لم يكن ثمة أعظم من الصعود إلى الله بصفة شهيد.

عندما انفرد بنفسه، استعاد رشده، ما الذي جرى له؟! هذا الانقلاب، جرى تحت تأثير عبد الله، طوال ساعات كان أسيراً له. وإذا كان قد تركه قبل قليل، فلمّا يتخلص من خطره بعد، قد يعاوده في يوم قريب، بينما هناك أم وأب وأخوة ينتظرونه وبحاجة إليه. لا يخشى عبد الله لأنه الأمير وتجب عليه طاعته، بل لقدرته على الاستحواذ عليه وتفنيد جميع حججه وإبطالها.

صمم، لن يقوم بأية عملية، ولن يقتل أحداً، مهما كان هذا الأحد شيعياً أو حتى أميركياً.

«ألا تساعدني على الهرب؟».

«عندما تكلمت معه بشأنك لم يبد اعتراضاً على انسحابك من العملية ولا مرافقتك لي».

«ما زال يعتبرني واحداً منهم، لقد اصطحبني معهم».

«ربما لأنك ستغادر قريباً، أراد أن يرسل معك تحذيراً، أشبه

بتوصيل رسالة إلى الخارج في حال بحث بمشاهداتك».

ومع هذا لم أطمئن أبداً. سألته إذا كان يعرف أين نحن؟ قال إننا في منطقة إلى الشرق من الرمادي، تبعد عنها حوالي عشرين كيلومتراً.

وعدته بالمغادرة بعد غد.

طوال الليل، لم أفلح في إبعاد الجثث عن خيالاتي، كانت تأتيني مثلما رأيتها في مشرحة بغداد، تتجول مقطوعة الرأس، مشوهة، وبلا فخذين، أقدام تمشي وحدها، وأيد تستجير، وعيون تبرق في الظلام.

أصحو على الحقيقة الأكثر فظاعة؛ سامر أحد مورديها إلى نهر دجلة والحاويات وقارعات الأرصفة. والأكثر إيلاماً: لا يجمع بيننا أبوة ولا بنوة، ولا مجال للتفاهم حول أي شيء مهما كانت ضآلته. لم أعد أرتجي سوى إنكاره ونسيانه إلى الأبد. كان قد ذهب إلى مكان لن يعود منه أبداً. أصبح شخصاً آخر، لا يمت لي بصلة.

أحسست أنني أكرهه، وأحقد عليه؛ تمنيت له الموت.

راودني أن مشاعرنا الواحد نحو الآخر متشابهة إن لم تكن متطابقة، إذا كنت أتمنى له الموت، فهو لا يتمناه لي بقدر ما يسعى إليه. ما الذي يمنعه؟ ألم يكن إصراره على سفري لئلا يضطر إلى قتلي؟!

بكل مرارة، تنبهت إلى نفسي، أنا الأب المجنون، أتمنى الموت لولدي، هذا الذي تمنيت أن أمنحه حياتي.

١٤

صوت أذان الفجر خالط هلوساتي المخيفة، لكنه كان طوق نجاة أنقذني، وهاتفاً حثني على النهوض والذهاب إلى المضافة.

عند العتبة وصلني صوته صافياً في الجو الرائق، سامر ورفاقه يصلّون صلاة الفجر. ألقيت نظرة إلى الداخل. كانوا على وشك الانتهاء من الصلاة، في وضعية القعود، يسلمون ذات اليمين وذات اليسار. ارتددت نحو الشرفة المطلة على الحقول. وقفت هناك، لم أشأ أن يقع بصره عليّ.

الصباح الوليد يرسم صورة أخاذة للبساتين الخضراء، مبللة بالندى، مجللة بغلالة من الغبش، لو كان الله موجوداً، فليس لغيره أن يخلق كل هذا البهاء، ولا لسواه القدرة على إضفاء هذه الروعة عليها. منظر افتقدته منذ زمن بعيد، أراه في غير أوانه، لا هذا مكانه ولا زمانه. أعرف، بعد اليوم، لن أشهد مثيلاً له ولا شبيهاً

به، منظر ولا أبدع... جمال تختلج أعماقه بأنواء لامرئية، لن يتكرر أبداً على هذه الشاكلة، لا الجمال ولا الأنواء، وكلما حاولت تذكره سأتمنى تلاشيه، أدري لماذا، وعلى أي وجه. كان غير حقيقي، منظر سماوي من اختلاق البصر لا الصباح.

صوت سامر يعلو وهو يتلو الورد اليومي:

أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين، اللهم إني أسألك خير هذا اليوم. وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما قبله وشر ما بعده.

يا واسع المغفرة يا غفار، يا غافر الذنب، يا قابل التوب، اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

أضواء المنازل البعيدة تتناقص مع تسلل النور، نقيق الضفادع يودع أشلاء الليل الآفل. رياح خفيفة تتسلل عبر الحقول، تتخلل سعف النخيل، حاملة رائحة التربة وحشائش الأرض.

اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها؛ اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

أنفاس النهار الأولى تتردد بين أزقة القرية النائمة، سكانها مضطجعون فوق الأسطحة، نائمون في العراء، فوق الأعشاب بجوار أكوام الحطب والقش. ثمة حياة وأحلام يانعة على امتداد دروب الشمس الغضة.

يا خير الناصرين، يا عزيز يا مقتدر، انتصر لعبادك المؤمنين فإنك

تعلم ما حلّ بأمة نبيك سيدنا محمد، وليس لها من دونك شفيع ولا نصير، يا الله.

السواقي تشق المدى الداكن للحقول الجرداء، الخنادق الكامدة تتلون بألوان الضوء، يحاذيها اخضرار البقل البري، وتمايل الأوراق العريضة لنبات الخروع.

اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة الرشد. اللهم اقذف في قلبي رجاءك، واقطع رجائي حتى لا أرجو أحداً غيرك، فأنت مولاي وولِيّ في الدنيا والآخرة يا ذا الجلال والإكرام.

فلاح يفتح مياه الساقية، ويغلق الثانية، وآخر يحش النباتات الطالعة على أطرافها. يتدفق الماء في سكون الصباح إلى البساتين، وتزقزق العصافير بين النخيل، وتخور بقرة.

اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب. اللهم نقّني منها كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.

رائحة التفاح تهف، مترافقة مع وشوشة الأوراق المتساقطة. المطحنة التي ظننتها قديمة لا تعمل، تنفث الدخان بعيداً وعالياً في الفضاء، وشذى عطر...

اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبَرَد. اللهم أرجع نفسي إليك راضية مرضية، وأدخلها جنتك مع عبادك الصالحين.

صباح ولا أصفى، ليته يدوم، ردني بعد هذا العمر إلى المدرسة الابتدائية، وكانت بيتاً شامياً يقع في آخر طلعة سوق الهال على

مقربة من حمام الخانجي، الأستاذ الشيخ يلقي درس الديانة الأسبوعي، فتح النافذة المطلة على الباحة، فظهرت أحواض أشجار النارنج والليمون وعرائش الياسمين عراتلي والخميسة، وإلى جوارها أصص الورود والأزهار؛ انظروا، إنها تسبّح الخالق وتحمده ليل نهار!!

صوت سامر يتردد صداه على مسمعي، كان أيضاً يُسبّح الله بكلمات طاهرة، ويسأله خير هذا اليوم... ممن؟! والغفران... على ماذا؟! والثبات والعزيمة... لماذا؟ والنصر لأمة محمد... وغسل خطاياه... أهي خطايا فقط؟

نفرت إلى الخلاء، لم أطق رؤية أحد منهم، تمشيت على مهل، جلست على طرف الساقية وذهبت بعيداً بأفكاري، كلما خالجني أمل، أرجع منه خاسراً، ودائماً بلا سامر، لم يعد مجرد ابن ضاع وضيّعني، فقدته أو فقدني، وإنما أنا نفسي في ذلك المستقبل الذي لن أعيشه، ولن أكون فيه، يُشيَّد دون أن أفلح بتقويضه.

رأيت الأكتع قادماً من الطرف الشرقي للقرية، ركض إليّ ومشى معي، شكا شكواه المعتادة؛ دوره تأخر للمرة الخامسة وأكثر، عبد الله وعده البارحة بعملية استشهادية، لكنه بعد الصلاة، تغيب عن التدريب الصباحي، لا بد أنه أرسل أحدهم، لم أسأله أيهم، الجزائري أم المغربي أم السعوديين...؟

قبل قليل ذهب إلى أبي الحارث في خلوته، وعاد بطعام البارحة مع الحساء والماء، لم يمسهم، وما ردّ عليه بكلمة. هذه حاله منذ اعتكف. سألته عن مكانه، أشار إلى بيت صغير من الطين على الطرف الثاني للساقية. انتبه الأكتع أنني لم أعد أصغي إليه، فتركني ورجع. غيرت طريقي، واجتزت الجسر الخشبي العائم فوق الساقية، متوجهاً نحوه.

ثار غضبي وبلغ ذروته خلال لحظات على المعتكف الذي حرد عن الطعام والشراب، وآثر الخلوة حتى الموت، بدلاً من استنكاره لملحمة القتل التي لا تكف عن الدوران، آخذة بالذبح والنشر... تحت غطاء من الله العلي القدير.

طرقت الباب بقبضتي، فما أتاني منه رد. دفعته ودخلت. كان جالساً على الأرض يقرأ القرآن والدموع تبلل خديه. لم أملك نفسي، صرخت حانقاً:

«لن تُكفِّر عما لا يكفر عنه إلا بالخروج من هذا الوكر، والذهاب إلى جماعتك. قل لهم قتل النفس حرام، وقتل الغير حرام. ما حال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ ألا يعتبر التمثيل بالجثث منكراً، إذا لم يكن، فماذا يكون؟!».

لم أعِ ما تفوهت به، ربما أنكرت الدين والدنيا، وقد أكون رميت الله بالظلم، ووصفتهم بحثالة من المجرمين سفاكي الدماء...

لم ينهض أو يلتفت نحوي، أو يرمقني بنظرة واحدة. كان متبلداً في مكانه، ما رفَّ له جفن، تركني لغضبي ويأسي وقلة حيلتي. وربما بدوت له مجرد أب يطلب شيئاً لنفسه، أب أناني، يفتعل كل هذا الضجيج لاستعادة ابنه. وكان في هذا التفكير طرف من الحقيقة، وإن كان ما أريده أمراً آخر أيضاً، لكنه لم يأت بحركة. فصرخت به:

«افعل شيئاً يجعلني أؤمن».

فتح فمه، وقال دون أن يلتفت نحوي:

«اخرج، البشر لا يمتلكون الأجوبة. أنا أنتظر جواباً من الله».

ما أوقع في يقيني لحظتها، أن انتظاره سيطول ولن يحظى بجواب.

١٥

عدت إليهم حانقاً وصاغراً، رائحة الشاي الساخن المعطر فائحة، أفسح لي سامر مكاناً إلى جواره، وصب لي كأساً من الشاي. لاحظت فوراً غياب حازم، لا بد أنه في الجوار، لم أسأل عنه حتى لا أثير الشكوك حول وجود علاقة خاصة بيننا. كان الحديث يدور حول تقديم الجهاد على الصلاة.

تابع سامر قائلاً، إن هدف الجهاد هو إقرار ألوهية الله على الأرض، وعدم الامتثال لغيره من الألوهيات المادية التي تقود البشر إلى الانحطاط الخلقي والإفلاس الروحي؛ الحكام ومعهم الكفار الأجانب، يَحُولون بطغيانهم وجبروتهم دون حاكمية الله المطلقة. لا حاكمية لرئيس أو ملك أو أمير، الحاكمية لله وحده.

لا حاكم إلا الله... لا حاكم إلا الله... لا حاكم إلا الله.

سدد نظراته إليّ وهو يختم حديثه:

نحن نخوض معارك الله على الأرض، معارك الحق والإيمان، وإذا كنا نضحّي بأرواحنا، فلأن أمرها يعود إليه، هو خلقها وإليه مرجعها وعليه حسابها، نحن جنود الله. وموعدنا الجنة، إن شاء الله.

خلال حديثه كان يسترق النظر إليّ، نبهتني نظراته إلى أنه ما زال ذلك الطفل الذي يخشى أن أعلم بما ارتكب خفية عني. فأدركت أنه أنجز عملاً، والأغلب ارتكب شيئاً، لا يرغب في أن أعرفه، كان يريد مفاجأتي به، فلم أطمئن، تشتت ذهني، لا أسمع ما يقوله، بقدر ما كنت أراقبه. وأيقنت عندما سدد النظر نحوي، أنه تغلب عليّ!!

لاحظت عندما ارتددت بسمعي إليهم، من كلام أبو الأيهم الجزائري أنه اقتنع بفكرة الاستشهاد، وأخذ يؤيدها. هل هذا ما أنجزه سامر البارحة ليلاً؟ إقناع مقاتل بتفجير نفسه؟ هل كان هذا فوزه المبين؟

توقف سامر عن المشاركة بالحديث، وتعلقت عيناه بشاشة التلفزيون، كان في انتظار نشرة الأخبار. سأل المغربي عن أبي عباده. أجاب سامر:

«لقد غادرنا، الله يكون معه».

لم أستوعب ما قاله، المفترض أن نغادر أنا وحازم معاً!! لماذا غادر وحده؟ إذا كان سامر سمح له بالرحيل، فلماذا لم يدعني أرافقه؟ حازم أيضاً لم يخبرني!! ربما لم يشأ إيقاظي. بدا الاحتمال ضعيفاً.

لم يكن سامر في انتظار الأخبار، بل في انتظار خبر عاجل. ظهر فجأة وقطع البرنامج الحواري. كان الخبر عن تفجير انتحاري خارج مسجد على مقربة من سوق عج بالبشر المذعورين يتراكضون لا يدرون في أي اتجاه يذهبون، وهم يحاذرون الاقتراب من الساحة القريبة من السوق، ويتبعثرون هلعين على أطرافه خشية أن يعقبه تفجير آخر، يقفون بعيداً وينظرون.. هذه المشاهد التقطت مصادفة فور حدوث الانفجار، الناس لم يصحوا بعد من وقعه. لكن بعد سيطرة الشرطة على السوق وتهدئة الناس، انكشف السوق مزدحماً بالباعة والعمال والأولاد.

حصيلة الانفجار، حسب تقرير الشرطة، بعض الخسائر المادية، ولا ضحايا، الانتحاري لم يفجر نفسه في السوق، اختار منطقة قريبة من الساحة تكاد تخلو من البشر. وصف أحد شهود العيان ما جرى بأن الانتحاري الذي لم يدخل إلى السوق، وقف على طرف الساحة الصغيرة، وكانت مركز سفر يتجمع فيه العمال في انتظار الباصات، خرج عدد منهم من المسجد القريب، فصرخ طالباً منهم الابتعاد لئلا يصيبهم مكروه!!

اقترب شرطي مسلح من جثة الانتحاري، ولم يكن قد تبقى منها سوى أشلاء، وأشار بيده إلى كتلة غير واضحة المعالم، مزيج من خردوات أو حطام، اقتربت الكاميرا منها، كانت كتلة من اللحم والحديد، عرفته فوراً من مزق جلابيته وجزء من حزامه. أما قطع اللحم فكانت ربما جذع حازم أو قدمه. هتف المغربي:

«أبو عباده!!».

ونظر الجميع نحو سامر مستغربين، يلتمسون تفسيراً. قال التونسي:

«لم نودعه!!».

لم يلتفت إليهم، التفت نحوي، كان الكلام موجهاً إليَّ، قال إنه لاحظ منذ يومين أن أبا عباده كان متردداً وخائفاً، وقد طلب منه البارحة إعفاءه من العملية، فوعده بتأمين سيارة تقله إلى الحدود السورية حسب طلبه. لكن أبا عباده عاد ليلاً واستشاره في أمره ثانية. فنصحه بالجهاد في سبيل الله، بدلاً من الندم على إضاعته فرصة نيل الشهادة.

«وانطلق صباحاً باكراً راضي النفس وبملء إرادته».

«لكن لا قتلى، طلب من الناس الابتعاد!!»، قال التونسي.

«شاهد العيان من مخبري الشرطة، قال هذا كي يوقع في الأذهان أنه تراجع في اللحظة الأخيرة، أو أنه أجبر على القيام بالعملية، لا تجهلون ما يحاولون ترويجه».

«ولم تُسجل إصابات ولا خسائر؟». تساءل المغربي.

«ربما وقع خطأ في الحزام الناسف وانفجر قبل وقته».

كانت هذه التبريرات تساق لهم وليس لي. لم يكن هناك ما يعفي سامر من فعلته، وسواء أقنعه أم أجبره، فكلاهما الأمر نفسه. توقعات حازم كانت في محلها، لم يكن عبثاً خشيته من تأثيره، كانت لدى عبد الله السوري قدرة على الإقناع، لا تقل عن الإجبار، بذريعة الالتزام بالجهاد. حازم لم يكذب عليَّ، البارحة كان مصمماً تحت أي ظرف ألا يقتل أحداً، وكان صادقاً مع نفسه لحظة التنفيذ.

أدركت وبدرجة ترقى إلى اليقين مدى خيبة سامر، كنت الوحيد الذي اكتشف هزيمته، ومهما يكن كنت طرفاً في هذا الذي وقع. كان انتصاري عليه مؤلماً له، وبالنسبة إليَّ كان مكلفاً. خسرت حازم، كان إلى جانبي وشاركني في محنتي وإن لم يكن يدري، منحني الكثير من الدعم، ولم أمنحه شيئاً.

ملامح سامر اكفهرت، الوجوم مخيم على المضافة. لم أتابع الحديث معهم. ملت على سامر وأنا أنهض، وهمست في أذنه:

«تكذب، لقد قتلته».

كنت أنا الخاسر الأُكبر والمهزوم الأوحد، لم يعد ابني نقيضاً لي، بل عدوي.

١٦

لحقني سامر بعد قليل، سمعت لهاثه من خلفي، فسارعت بخطواتي، أدركني على مشارف القرية، واستوقفني:

«لو لم نؤمر ببرّ الولدين لأقمت عليك الحد».

تساءلت ساخراً:

«أي حد؟».

«حد الردة».

«لا تتذرع بالبر، ولا تهددني بالردة. لا أثق بهذه الافتراضات، لئلا تتفاءل، لن أدافع عن إلحادي أو أتمسك به، ولا أريد أن أذهب ضحيته. لماذا أشرك بالله، ولا مبرر لدي، سواء كان واحداً أو ثلاثة، أو لا أحد. أما إذا كانت لديك اتهامات أقوى، فلا تتردد،

اقتلني، أيها الابن البار».

«لا يغفر الله لقاتل أبيه».

انقطع حديثنا بظهور الأكتع، كان حزيناً. بمجرد أن رآه سامر عرف ما يريده منه، قطع عليه شكواه، وصرفه بإشارة من يده، ووعده مساء. فتابع الأكتع طريقه نحو القرية. من بعيد كان قطيع من الماعز يقوده راع يسير محاذاة البيوت متوجهاً نحو الساقية.

لم يتابع سامر كلامه، كان لديه ما يقوله رداً عليّ، لكنه توقف فاغراً فمه، رفع رأسه وأخذ يصغي، تسلل إلى سمعي صوت أزيز. رفعت بصري إلى الأعلى، السماء خالية وصافية. قال سامر: صوت طائرة. لبثنا لحظات نصغي وقد حبسنا أنفاسنا. علا الصوت وأصبح هديراً خافتاً، وبدأ يقترب. لم يكن الأكتع قد ابتعد كثيراً، عندما ناداه سامر وطلب منه أن يُعلم المجاهدين في المضافة أن يخرجوا منها ويتفرقوا.

أمسك سامر بيدي وشدني نحو الخندق، سارعنا خافضي الرؤوس إلى الانكفاء فيه. بينما أخذت الانفجارات تتوالى من بعيد، وتقترب منا. استندت إلى جدار الخندق، فدفعني بيده إلى الاستلقاء فيه، وإخفاء وجهي. القنابل تتفجر من حولنا، تزلزل الأرض من تحتنا، أصوات تصم الآذان وجحيم من النيران، اللهب يلسع وجهي، الأتربة والأحجار تتساقط فوقي، القصف لا يتوقف، الدوي يصك سمعي. أحس بالاختناق. لم أدر كم استمر، كل ما أعيه هو أنه لا ينتهي، لم أتأكد فيما إذا أصبت أم لا، نظرت إلى سامر، كان يتلمسني بيده يطمئن عليّ، فضممته إلى صدري وأحطته بذراعيّ أحميه.

رفعت رأسي رأيت الشابين السعوديين يركضان وقد تماسكت أيديهما، أدركهما صاروخ قبل تمكنهما من الوصول إلى الخندق، وتحولا بلمح البصر إلى عجاج غص به الفضاء، تساقط منه رذاذ من الغبار الكثيف، هبط متناثراً على الأرض، لم تبق منهم حتى الأشلاء. كانت هذه أمنيتهم؛ الموت معاً.

بعد قليل حلقت مروحيتان من نوع آباتشي على مستوى منخفض، الأولى تطلق القذائف وترمي القنابل اليدوية، ولحقت بها الثانية، تمشط المكان بالرصاص رشاً ودراكاً دون توقف، بينما خفت هدير الطائرات النفاثة وتلاشى. هجمة الطائرات انتهت، وتركت وراءها قطيع الماعز طريحاً على الطريق وإلى جوارهم جثة الراعي وكلبه. تراءى بعيداً من خلل الدخان، مدرعات ينزل منها الجنود ويتقدمون بحذر في طرقات القرية، وهم يطلقون نيران رشاشاتهم، ترافقهم عربات الهمفي. لم يتابعوا التقدم، انبطحوا على الأرض، واجهتهم المقاومة، بقذائف الهاون، والآر بي جي، وصليات متواصلة من الرشاشات، مجموعة من المقاتلين اختبأوا إلى جانب الطريق هاجموا المدرعة من الخلف بقذيفة مضادة للدروع وقاذفة صواريخ، أصابوها إصابة مباشرة، ثم أطلقوا عليها قنبلة حارقة. أعاقهم المجاهدون عن التقدم، فاضطروا إلى التراجع.

دفعني سامر بيديه، فتسللنا زحفاً على طول الخندق. وصلنا إلى نهايته، كنا قد أصبحنا خارج مرمى النيران، على مقربة من الأحراش والقنوات وأشجار النخيل. التفتّ إلى الخلف. شملت الموقع بنظري، الحرائق مشتعلة، الشاحنة والسيارة اللتان وصلتا البارحة، نالتهما القذائف الصاروخية انصهرتا وأصبحتا عجينة واحدة. الغارة لم تترك بناء في الموقع دون أن يدمر، لم ينج أحد

ممن بقي في البيت.

التفتُّ إلى سامر، كان يحدق إلى الطرف القصيّ من الخندق، تركته يمضي وقفلت عائداً، لا أسمع شيئاً، كنت في عالم ليس فيه سوى ذلك الصدى الهائل للموت المخيم على فضاء ضاق فيه الكون، وأصبح بحجم الهباء.

في الخلاء، أمشي فوق أرض ترتج تحت أقدامي، أجيل على المكان بنظري، بيت المضافة، أصبح حفرة كبيرة، جدرانه المهدمة طافحة بالفجوات، دخان أسود كثيف ينتشر ويتصاعد، النيران من حولي تزداد اشتعالاً. الشاحنة الملتصقة بالسيارة يطل مما تبقى من نافذتها النصف الأعلى من سائقها متفحماً، وقد مد ذراعيه يريد الخروج منها، أو أنه يطلب النجدة. جذع الأكتع معلق على شجرة. رائحة لحم بشري... التونسي والمغربي والجزائري نجحوا أيضاً بالخروج من البيت، واختبأوا خلف الشاحنة، لم يسعفهم الوقت بالوصول إلى مأمن، ماتوا وقد تماسكت أيديهم وتلاحمت أجسادهم: كانت بقاياهم تحترق.

حانت نظرة مني إلى الجسر الخشبي العائم، فلم أجد أثراً له، نظرت إلى البيت الطيني رأيت أبا الحارث واقفاً أمام بابه، كما نقطة في مهب العاصفة، فاتحاً ذراعيه للطائرات، يستقبل القذائف، وهي تتفجر من حوله، دون أن تنال منه إلى أن أصابته إحداها، ارتفع مع الدخان، وتناثرت أشلاؤه في الفراغ المدلهم.

لم يأته الجواب من الله، جاءه من الأميركان.

الأرض على مد النظر قد نبشت، جثث الأهالي الذين حاولوا

الخروج من منازلهم والاختباء في الأحراش القريبة، أدركتهم رشاشات المروحيات، بعضهم داسته المدرعات فتسطحت أجسادهم وانسحقت رؤوسهم.

أتقدم نحو القرية، جنود المارينز احتلوا الجامع، القناصة يطلون من المئذنة، آخرون ملتصقون بجدران البيوت متحفزون لعبور الطريق، أحدهم في الزاوية المواجهة، عينه على الرشاش يغطي رفاقه وهم ينطلقون نحوي ركضاً.

أزيز الرصاص من حولي يخترق سمعي، وخزة في يدي اليمنى وأخرى في قدمي اليسرى، الألم يسري في أعضائي، وأتنفسه، النار تشتعل فيَّ. أصبتُ، عسى أن تكون الإصابة مميتة، وألفظ حياة بشعة قذرة مجرمة. جنود المارينز يتقدمون باتجاهي كالأشباح، يسددون فوهات بنادقهم نحوي، كانوا حقيقيين.

تابعت تقدمي إلى الأمام، إطلاق النار لا يتوقف، أردت الموت بكل قواي المتهالكة. وكنت في انتظار رصاصة الرحمة أو قنبلة الشفقة، على أهبة أمنية ربما تتحقق على عجل؛ لفظ أنفاسي الأخيرة. خُيل إليَّ، أو أنه كان حقيقة، ما تراءى لي؛ جوناثان يظهر من خلال الغبار الكثيف، أسقط على بعد خطوات منه، يتقدم ويحملني مع آخرين إلى المحفة.

في هذا السكون الشامل فقدت وعيي.

١٧

في المستشفى، طالعني وجه جوناثان، بلا غبار ولا دخان، وأنا على نقالة، رافقني إلى غرفة العمليات. بشرني بأن حالتي ليست سيئة. معنوياتي لم ترتفع، الخوف على ملامحه أقصى عن ذهني أي احتمال للحياة. لم يتبادر إلى ذهني قبل الموت، سوى معرفة، أين ميللر، هل ما زال حياً؟

جوناثان لم يجب. فسألته:

«انتحر أم قتلوه؟»

همس في أذني:

«ونحن أيضاً ننتحر».

في غيابي شيعت جثته إلى كاليفورنيا.

لم أعرف بالضبط ما الذي أراد ميللر فعله، أو لماذا انتحر. ما أنا متأكد منه، أن دوافعه كانت سليمة، رغم ما خالطها من وساوس وأخطاء. الأفكار الجيدة أثمانها باهظة، ميللر لم يقبل الخسارة، لو أنه تحملها لأضاع كل ما كان ضده.

قال جوناثان بأن ميللر حسب التوصيفات الجديدة المستنكرة، حمل فكرة ومات من أجلها. حتى لو كانت الفكرة تستحق، فالأمر مرفوض، لا تضحية بالحياة. لم أشأ مناقشة غير قادر عليها. عبّرت عن حزني بصدق:

«لقد فقدت صديقاً عزيزاً».

أغمضت عينيّ، وودعت ميللر، بصمت ومن غير ضجيج، وداعاً نظيفاً ووديعاً، من فرط وداعته، أوحى لي بموت مريح. لم أرغب في تعكيره، ولم أسأل سؤالاً آخر، كي لا أسمع خبراً سيئاً عن سامر، فأرحل مصدوماً.

ولقد نجوت، لكنني لم أستوعب عودتي إلى الحياة، إلا على أنها عودة إلى الرعب. فلم تهمني معرفة القصة التي دارت في الخلفية عن اختطافي وإنقاذي.

غير أن جوناثان أخبرني أن ميللر أخفق في اجتياز المرحلة الحرجة، خلالها استرد وعيه قليلاً واعترف بأنه انتحر، فاعتبر جوناثان نفسه مسؤولاً عن سلامتي. استنكف عن السفر من بغداد، وسارع إلى إجراء اتصالاته، وطلب من رئيسه أن أكون مهمته الأخيرة، لقد جاء بي ميللر إلى العراق وتعهد بكفالة عودتي، هذا ما أوصاه به ميللر عدة مرات.

ما ساعده أن عملية ملاحقة القاعدة لم تتوقف وقطعت شوطاً لا بأس به، وما داموا في أثر الزرقاوي، فقد يصلون إلى سامر، ويجدونني لديه. رافقهم جوناثان في مداهماتهم بحثاً عني، مداهمتهم الأخيرة لم تخضع لأي أمان، كانت القرية تحت سيطرة القاعدة بالكامل، فخضع الهجوم لقواعد الاشتباك الجديدة، واعتبرت المنطقة كلها حرة النيران، فكان أي شخص موجود في داخلها، امرأة أو رجلاً، شاباً أو طفلاً، مسلّحاً أو أعزل، يتوجب اعتباره معادياً، وهكذا لم تكن غارة، وإنما عملية إفناء، أطلقت فيها النار على كل شيء، وخلفوا وراءهم جثثاً وأرضاً محروقة. من حسن حظي أنني لم أصب إلا بعدة طلقات، لو أنه لم يكن برفقتهم لأجهزوا عليّ.

بقي جوناثان إلى جانبي، لم يتركني، لا قبل دخولي إلى غرفة العمليات، ولا بعد خروجي منها. كان حريصاً على أن أتلقى عناية قصوى. ادعى أن بحوزتي معلومات، من المهم الحصول عليها. ظننت أنه قالها لي كي لا أخفي عنه شيئاً. قلت له:

«أنت أدرى بالذي حصل، المكان دمر، والمتطوعون قتلوا».

«أصدقك».

ولقد صدقني فعلاً. لم يسألني المزيد، وأثبتت صداقتنا، أنه من الممكن ألا نكون متعنتين، ونراعي مآسينا الشخصية قدر المستطاع. بل واحترم مشاعري كأب، وأخبرني أن سامر نجح في الفرار، عدا ذلك لا يدري عنه شيئاً.

زارني فاضل في المستشفى وهون عليّ:

«لا تدع شيئاً يقلقك».

«أريد أن أنسى».

ليس لأنه لا شيء يستحق أن أتذكره، وإنما لا يجوز تذكره.

في زيارته التالية، عند الباب تبادلنا الابتسامات، ودعته دون أن يدري، وداعاً مضاعفاً ومن العيار الثقيل. إذ بعدما خرج، أسندت رأسي إلى المخدة، ثم كأن يداً أسبغت عليّ لمسة من النسيان الرحيم. في تلك اللحظة تعطلت ذاكرتي. وكان اختياراً لا أدري مدى صوابه، وسواء كان مقصوداً أم لا، لكنه كان الحل الأمثل لتجنب آلام استعدتها فيما بعد وأخذت تتفاقم.

عندما فوجئوا بفقداني الذاكرة، جربوا تحريضها بحكاية التعارف، فجرى تعريفي إلى جوناثان وفاضل من جديد، وهم الأشخاص الذين أحسست بالحرج أمامهم، لحدسي بأنني مدين لهم على نحو كنت واثقاً منه رغم عدم تأكدي، ولقد عذروا نسياني، ربما لإدراكهم أنني بحاجة إليه، أما أنا فتركت الأمر للزمن. ولم أكن مستعجلاً.

تلقيت عناية ممتازة في المستشفى، لكنني لم أرغب في البقاء، ومع أن الأطباء قالوا إن عودتي إلى بلدي ستسرع بشفائي واستعادة ذاكرتي، فقد نصحوا بمتابعة العلاج. جوناثان لم يكن موافقاً على عودتي إلا بعد استرداد قواي. لكنني أصررت على المغادرة، فاضطر إلى ترحيلي في سيارة قديمة لا تسترعي الأنظار مع سائق محنك.

كان ما يرسم توجهاتي أمراً مبهماً، سواء في إصراري على الرحيل أو تظاهري بأنني في صحة جيدة. سيطر عليّ إحساس قوي بأنني جثة على وشك أن تكون هامدة. وكانت أمنيتي أن تهمد في دمشق.

□□□

لكنها لم تهمد في دمشق.

الأنوار الساطعة تضايقني، إنها لا تطاق. كتبت كي أعود إلى الظلام، كتبت كي أحسن الفهم لا العيش، العيش فات أوانه، والفهم مطلب عسير. كيف نستدرك ما سوف يصبح تاريخاً يخضع للكذب والتنقيح والتأويل؟ لهذا عانيت. ولئلا أترك ورائي قصة يتطوع الآخرون لكتابتها، فيروون قصتهم لا قصتنا، وقد تعتمد على أنها الوحيدة، فكرت بكتابتها.

غير أنني لم أعد إلى الظلام، المرأة التي أحببت، كانت كريمة معي، وقفت إلى جانبي، وتجاوزت عثراتي وعنادي. لم أعتقد يوماً أن الحب يصنع المعجزات، سناء جعلتني أؤمن بالمعجزة الأكبر، أعادتني من الموت إلى الحياة، ومن الظلام إلى النور. أشعرتني أنني إن لم أكن مخطئاً، ما كنت مصيباً أيضاً، وعليّ أن أصمد، إذ لا خيار آخر، ومن الأفضل أن يكون خياري فعلاً.

وهذا ما جعلني لا أصمد فحسب، بل أواجه نفسي؛ ما كتبته لم أكمله، ما زال هناك فصل مقتطع أحشاه. ولقد حاولت أن أمسحه من حياتي وذاكرتي، كأنه لم يحدث أو لم يكن، أو أنه مجرد كابوس لا يمتلك ذرة حقيقة. لكنه كان حقيقياً.

حان أخيراً وقت الاستسلام لذاكرة لا يجوز أن تروى منقوصة ولا مجتزأة. هذه ضربية النور والحياة.

هذا أنا، في ذروة الألم، أتجرأ وأروي:

١٨

تعالى النداء من مكبرات الصوت يطالب الباقين على قيد الحياة بالاستسلام؛ صلية رشاش وقذيفة هاون أسكتته، عاد القصف من بعدها شديداً.

لحقت بسامر إلى الأحراش، في الوقت الذي عاد فيه الأزيز المرعب، وإذا كان الهدير أعقبه، فالطائرات ستعاود ظهورها في السماء، كنا قد نجحنا في اجتياز حقل أعواد القصب. لم يتوقف سامر تابع الركض، وأنا أركض وراءه، كان متجهاً صوب البيت كي يُخرج هند منه قبل أن يُقصف.

تأخر، القذائف دمرت البيت، السقف استوى بالأرض، ولم تكن هند في داخله، كانت هناك ممددة إلى جانب الحوض قد نجحت بالخروج قبل أن تصاب، وزحفت مسافة عدة أمتار، سارعنا إليها، كانت مستلقية على ظهرها، الذعر مطبوع على

ملامحها، لم يكن ثمة هلع أعظم من هذا الذي برز من عينيها. بطنها منتفخ ومبتورة الساق، وشيء ما فيها يحترق، رائحة شواء، الدخان يتصاعد من شعرها وفمها وعينيها، كانت ميتة تسبح في دمائها. حملها سامر بين يديه، وكأنه يستطيع فعل شيء لها، مشى بضع خطوات، قدماه لم تقويا على المشي، ركع على الأرض، حدق إلى السماء، مستغرباً بعينين جاحظتين، وكأن الكون سينشق عن الله، ويعيد كل شيء إلى ما كان عليه.

كان الصمت المهول للرب مرعباً.

تيبست في مكاني، هرعت إليه، أخذت عنه الجثة، حملتها وركنتها إلى جوار شجرة لم يبق منها سوى جذعها، خلعت سترتي وغطيت هند بها. نهض سامر ونزع عنها السترة:

«دماؤها ستشهد عليهم يوم الحساب».

انتحى جانباً، ينظر إليها، وربما رآها كما رأيتها أنا، جميلة رقيقة هشة، ولا أظن أنه تساءل مثلي: ألا تستحق شيئاً أفضل من التعذيب والاغتصاب وهذا الموت البشع؟ بالنسبة إليه كان كل شيء مقدراً عليها، حتى هذا الاحتراق البطيء. لكنه عاكسني، وطاح بأفكاري عنه وعنها، عندما قال:

«أبي، لقد أحببتها».

واغرورقت عيناه بالدموع، واقفاً أمامي مكسور القلب، بنوء تحت أثقال الحب والحقد. أنا الأب أشهد ابني يتألم ويبكي حبه. أشفقت عليه، قلبي يتقطع. وإذ انتفض انتصب بقامته، مُصعّراً

وجهه للدخان والرماد، ورفع رأسه ثانية نحو السماء، عيناه لا تخفيان وعيده ولا تهديده، أطلق صوتاً فاق هديره هدير الطائرات والدبابات:

ربي، تعرف أني لم أطلب منك مجداً ولا لقباً. ما قاتلتهم طمعاً بغفرانك ولا رضوانك، لم أسألك الجنة لي، وإنما لغيري. لم أرد منك مغنماً ولا مكسباً، أردت تطهير أرض المسلمين من رجسهم، وإقامة دولة الإسلام، لتحكم شريعتك، وتقام الصلاة خالصة لك، ويتلى كتابك الكريم، وترتفع كلمتك وتتحقق.

لوح بقبضتيه، صوته يبرق كالبرق، ويرعد كالرعد:

سبحانك اللهم رب العرش العظيم. أنا على عهدك لم أنكث به، فما بال وعدك؟ تخليت عني ونصرت القوم الظالمين.

أخفى وجهه بين ذراعيه، متردداً في حيرته ولوثته، لا يهدأ على حال، عيناه حمراوان كالدم.

ربي، أفوض إليك أمري، فلا تخذلني. نعم المولى أنت والنصير. سامحني إن تزعزعت نواياي، أو خالط قلبي الشك، واعفو عني يا أرحم الراحمين. أنت خلقتني وأنا عبدك، فاهدني وسددني. وأتمم عليّ نعمتك، يا ذا الجلال والإكرام.

ورجا الله بصوت كالنحيب.

العدل يا ربي... العدل يا ربي... العدل يا ربي.

توقف تبادل النيران، بعدما أسكت القصف أسلحة فلول

المقاومين. ساد السكون للحظات، تعالى بعد قليل النداء من مكبرات الصوت مطالباً الباقين على قيد الحياة بالخروج رافعي الأيدي. لكن قذيفة آر بي جي، جددت القصف.

تحامل سامر على نفسه. أمسكته ورجوته أن يسلم نفسه وأنا سأضمن عودته إلى سورية سالماً. أشاح بوجهه عني، ونظر صوب الأحراش، إلى طريق لا عودة عنه.

لا مفر من الوداع، ولا متسع للوم ولا للصلاة ولا لمزيد من البكاء... إلا لبضع كلمات أخرى، عبرت عنها نظرته الجريحة وهو ينقّل بصره بين جثمان هند والطائرات التي ارتدّت تقذف صواريخها. نظرة لم يفتني معناها، وكلمات تمنيت ألا يودعني بها، لكنه قالها جواباً على سؤال لا أجهل فحواه:

«هل عرفت لماذا نقتلهم؟».

أمسكت به وشددته من يده، كي يسارع بترك المكان. نزع يدي عنه، لم يردني أن أتقدم معه خطوة واحدة. تمتم يرجوني:

«حافظ على حياتك».

تبدد في داخلي كل ما كرهته فيه، كان ابني المكلوم والمنكوب. قلت له بأسى:

«تمنيت لك شيئاً آخر».

«لا تتمن شيئاً بشأني».

«أردت ألا أفجع بك».

«أبي، هل ستنكرني؟».

«ليس بوسعي، هذا فوق طاقتي».

«وأنا سأحمل وزرك يوم القيامة».

عانقني مودعاً، قبّلته، قبلت الطفل الذي كانه، والأمير القاتل الذي أصبحه، والجريح طالب العدالة.

تراجع خطوات إلى الوراء، وهو يتأملني بعيون مفتوحة على وسعها، يختزن في ذهنه صورتي. هل خطر له ما خطر لي؛ هذه آخر مرة يرى فيها واحدنا الآخر، لن نلتقي ثانية. وكل منا يخطو نحو الخلف بتؤدة، كانت الدموع تسيل على خديه...

آه من هذا القلب الجبار الذي لا يرحم، كم يخفي من دموع.

عسى هذه اللحظات تطول إلى الأبد، لكنها مضت.

لوح لي بيده، رفعت يدي ولوحت له. ثم استدار وغاب في الأحراش.



فواز حداد

جنود الله

"لاح السراب البعيد المخيم على الأفق متألقاً، كما لوحة مرسومة بجمال رقيق ومسالم، مجللة بصمت بهي، تغزل ألوانها ثم تتحلل إلى لون واحد، بلا لون، غيوم تعبر على مهل زرقة سماء صافية، لوحة تتجاوز بعنفوانها الهادئ، سخف الأسلحة والقنابل واللحى... من الأفق لا منها، يأتيني موتي هانئاً وخفيفاً، يتهادى على أمواج الأثير، يمسني كما العبير، يقيني من بؤسي ويعصمني من ظنوني، آه، لو كان لي قبر في هذا الغبش لا في ذاك التراب.

تخيلت موتاً سريعاً دون اعترافات أو طلب للرحمة، بلا شكاوى ولا أنين أو بكاء، لن أسألهم الشفقة بي، ما سأطلبه ذبحي وأنا مغمض العينين، دون رؤية ما حولي، لا العناصر المسلحة الملثمة ولا كاميرا الفيديو، لن أسمع صيحة "الله أكبر" أو أترقب اليد التي ستمتد، وتلتف من الخلف حول رقبتي، أو أحس بالذعر والنصل الحاد يحز عنقي. وذهب بي التمني إلى ما بعد الموت، لن يشوهوا ملامحي أو يمثلوا بأعضائي، وأكثرت من التمني، سيتمكن شخص من العثور على جثتي قبل أن تتفسخ. ويصادف من يتعرف عليها، ويقرأ الفاتحة على روحي، وربما أرسلت للدفن في مقبرة العائلة بدمشق.

كان الموت هكذا حلماً مترفاً ولا أجمل".

(من الرواية)

RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 9953-21-466-2

9 789953 214665